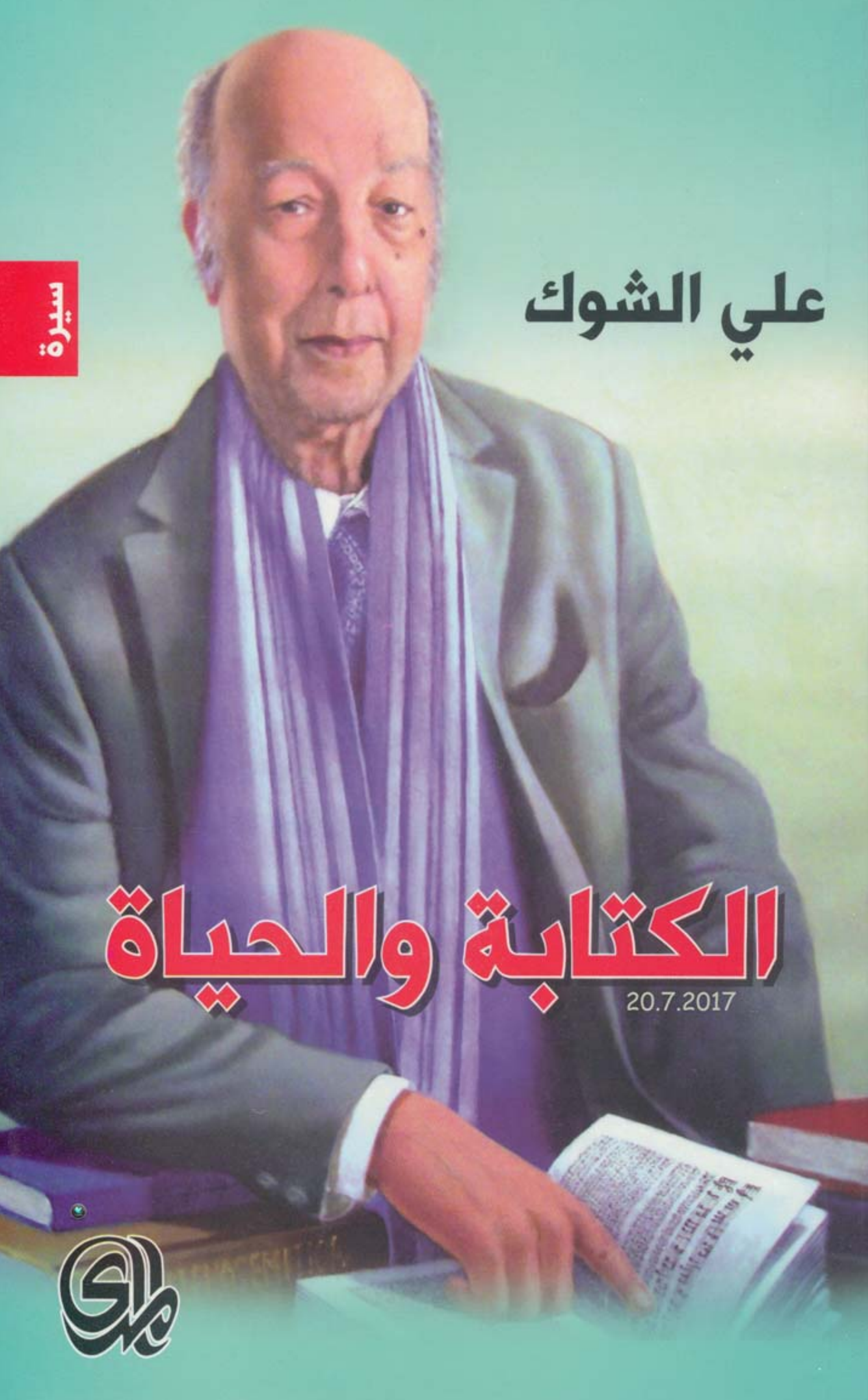


سيرة
علي الشوك
الكتابة والحياة
20.7.2017

علي الشوك

# الكتابة والحياة



# الكتابة والحياة




المؤلف: **علي الشوك**

عنوان الكتاب: **الكتابة والحياة**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

الناشر: **دار المدى**

الطبعة الأولى: 2017

**جميع الحقوق محفوظة**

Author: **Ali Al-Shouk**

Title: **Writing and Life**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2017**



Copyright © **Al-Mada**





**للإعلام والثقافة والفنون**

*Al-mada for media, culture and arts*

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

*All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.*

# إضـاءة..

## علي الشوك، الضَّعفُ حين يتحوّل
## إلى قوّةِ خلقٍ وإعادة وعي ..

### فخري كريم

حــين كنتُ أكتبُ عــن الزمن الجميل الموءود، الذي توسَّــدَتْ أحلامُنا ثنايــاه، كانت تراودني في كلّ مرّة رغبــةُ استرجاع بعضٍ من بقايا ضفافهِ، لعلّــي أعــثرُ على حطام من موروثــه، فأتشبّثُ به وأضمُّــه إلى ما تبقّى من حطام دنيانا، لعلّه يتحوّل إلى أيقونةٍ تُجنّبُني الإحساسَ بالندم واللّاجدوى، فيجرفني تيارُ اليأس والحسرة إلى نسيانِ ذلك الزمنِ نفسه.

في كلِّ مــرّةٍ أمسك خيطاً ينسلتُ منه، أُمنّي النفس بأنه قد يؤشّر لعودةِ ماضٍ يكاد يُبشِّرُ بالرجوع مغسولاً بكفّاراتِنــا التي لم تكن مجرّد أدعيةٍ أو نذورٍ، بــل أرواحَ آلافٍ، لا بل ملايين نحرتْهم الحروب، وألوانُ العسف والكراهيةِ المُنفلتةِ والإقصاءِ على اللون والفكرِ والنوع، ولربّما لمجرّد العبثِ واللّهو فوق كرسيِّ السلطة، والمكابرة بوهمِ سحرهِ ودوامِ سطوتِه..

لا مبالغةَ في التغنّي بزهوِ ذاكَ الزمنِ، ولا تعسُّفَ في تعفير جبينِ زمنِ القحـطِ الذي نعيشُـ، والعثُّ يتسلّلُ منـه إلى كلِّ مسامةٍ من مساماتِ حياتنـا، وهواؤهُ يتضمّـخُ برائحةِ الموتِ وطعمهِ.. زمـنٌ تغيَّرَ فيه حتّى عزرائيـلُ مَلَكُ الموت، إذ لم يعُد يتأنّى كما كان عليه في الزمنِ الجميل، فلا يُخطئ قِراءةَ سِجلٍّ ولا يتعجّلُ، ولا يُقدِّمُ أجَلاً أو يندفعُ بلا تَرَوٍّ كما يفعلُ الآن،إذ يحصِدُ أرواحاً لم تينَعْ بعدُ و لم يَحِنْ قِطافُها..!

لَم كانـت لـكلِّ شيءٍ في الزمـنِ الجميل نكهةُ الحياة.. حيـاة إنسانٍ سَـوِيٍّ، وما تُعبّر عنها من سلوكٍ، يتمثّلُ فيـه أو توصيفٍ لمعانيه ومآثرِهِ وتجلّياتِهـا.. بل والجرأة في الإفصاحِ عن مكنوناته العميقةِ العصيّةِ على البوح، حينما تُجسِّدُ جُرحاً أو ما يُشبِه العيب.

البطولةُ نفسُها بطابعها التراجيدي ودلالاتِها، أمستْ إحدى ظواهرِ ذاك الزمن، حفرتْ معانيها عميقاً في وجدان المجتمع العراقيّ وأضفتْ على سويّة أجيالٍ تعاقبت فيه أحزاناً وقهراً وشجناً مكبوتاً. وكأنَّ القدرَ أراد للعراقـي أن يظلَّ مُنتَهَكاً، ترهّلتْ وسائلُ فرحِهِ وأشواقه وتجذّرتْ في روحـه مكامنُ اللوعةِ والأسى والفجيعـة. فالمفهومُ البطوليُّ، تجاوزَ رمزيَّتَـه الفرديّـة، بعد أنْ صـار المجتمعُ موضوعـاً له. و لم تَعُـدِ المآثرُ البطوليّةُ لزمنِ علـي الشوك تتجسّدُ في قوّةِ تحملُ التعذيبَ والاستعدادَ للمـوتِ والتضحيةِ بمباهـجِ الحياة ووهادِ الاستقرار، وإنمـا الجُرأةُ أيضاً علـى الاعترافِ بالضعفِ في مواجهة عذابـاتِ الجسد، وتعريةِ الذات والقصور، في تجنُّبِ الانكسارِ وما يُفضي إليه من تداعياتٍ وتساؤلاتٍ بين الأهلِ وفي المجتمع.

إنَّ البطولةَ كقوّةِ إرادةٍ واستعدادٍ على المواجهة والموت، تجدُ تعبيرَها

النقيضَ في الضعف، ليُشكّلا معاً نسيجاً مترابطاً للكينونةِ الإنسانية، ولن تتكاملَ وتتوازنَ من دونِ تداخلِ وتشابكِ مظهريهِما

" القوّةُ والضعفُ الإنسانيُّ " وهما يُشكّلان معاً كيانَ الإنسانِ الطبيعيِّ المتوازن...!

في رمزيّةِ البطولةِ، تلتقي المتناقضاتُ كلُّها من دون أنْ تتشوّهُ المعاني. فالبطلُ إذ يواجهُ العذابَ دفاعاً عن حقٍّ أو صيانةِ سرٍّ قد يتسبّبُ الكشفُ عنه إلحاقَ الأذى بقضيّتـهِ أو تعريضِ مصائرِ آخرين إلى الخطر، يتشبّثُ بكلّ ما يستمدُّ منه طاقةَ الصمودِ وهو يواجهُ نقاطَ ضعفهِ الإنسانيِّ ويتعالى على عذاباتِـه : الإيمانُ العميقُ بالمبادئ، وقوّةُ المُثُلِ والعقيدة، والقيمِ الاجتماعية، وأعرافُ العشيرة، ونظرةُ الحبيبـة وهيَ ترى فيه عائداً، سحرَ حُلمها المرتجى..

تفتَّحَ وَعيِي على مشارف ذاك الزمنِ الجميل. إذ كنتُ مسكوناً بقيم مدينةٍ صغيرةٍ نائيةٍ تجتمعُ فيها تناقضاتُ القريةِ وتجلّيات مظاهرِ الحضارةِ الآتية من وراء البحار. وحين أخذتني بغدادُ لتُعيدَ تكويني، ولتغمرَني في ضجيج تجاذباتِها الاجتماعيـة والسياسية والثقافية وصخبِ فوضاها، وفيوضِ جمالياتِها الآسرة، عمّدتْني كرحّالةٍ يبحثُ عن ذاته، ويُريدُ لها أن تتكوّنَ على وقعٍ ينفضُ عنه ما عَلِقَ بها من غبار طفولةٍ ظلّتْ تبحثُ عن حدودِ اللهِ وراءَ أسوارِ المدينة الصغيرة النائية التي يبدو كلُّ شيء فيها موضوعاً للتساؤل..!

يومَها لم أسمعْ أو أقرأ لعلي الشوك وعشرات الأصواتِ المُبهرةِ من زمـن التوهُّج والتكوين، بل شاءت الصدفةُ أن أكون على مسافةٍ منهم، يفصلنـي عنهم فارقُ العمرِ وخزينُ الثقافةِ والمعرفة، وهَمُّ القلقِ والتردُّدِ

في البحث عن سبلٍ للنفاذ إلى عوالمهم لعلَّ بالإمكانِ اختزالَها وتحويلَ كوامِنهـا إلى زوّادة عمرٍ آتٍ، بعضُه مضمـرٌ وأكثرُهُ سِرٌّ يحتويه الغيبُ، ولا سبيلَ للتعرّفِ على متاهاتها..

كانَ علـى الشوك علماً، يتوهّجُ بثقافة، تتميّزُ بالتنوّعِ والغنى المعرفيِّ والثقافيِّ، والتعـدُّدِ في الاهتمام باتجاهاتها الفكريّـةِ ومدارسها الفنيّة، غـيرَ هيّـابٍ في تطويعهـا والتفاعلِ معها وهـو يكتب ويؤلّـفُ ليبتكرَ لنفسـه أُسلوباً يُميّزه، وينحـتُ مسلّةً جماليّةً قوامُهـا السردُ والموسيقى ونقدُ النقد، متّكئاً على معرفةٍ بالعلوم والرياضياتِ ملتقطاً شذراتٍ من كلّ ميدانٍ من ميادينها متماهياً في بحورها وتجلّياتِها.

توهّجـتْ ثقافةُ الشوكِ في زمن الصعودِ والانتصارات التي شهِدتَها البشريّـةُ بعدَ الحـرب العالميّة الثانيـةِ والانتصارِ على الفاشيّـة والنازية، وتركـت بصماتها في كلّ ميدانٍ مـن ميادين العلـوم والثقافة والمعرفة بتنوِّعهـا وتعدُّدِ حقولهـا وتطبيقاتها ومنجزاتهـا في المجتمع والطبيعةِ وسبرِ أغوار الأكوانِ البعيدة. حيث غزا الإنسانُ الفضاءَ الخارجيَّ، ودار گاگاريـن لأوّل مرّة حـولَ الكرة الأرضيّة. وشَهِـدَ الناسُ كلّ يومٍ على الأرضِ ما يجعلهم أقربَ إلى أن يكونـوا أسيادَ مصائرِهم، وما يُوحي لهـم بقرب انعتاقِ العالم من أسرِ عبوديّـةِ التخلّفِ والجهل والاستغلالِ وصروفِها وأرزائها وتداعياتِها على الحياة وتحدّياتِ المستقبل.

احتـوى ذاك الزمـنُ الواعدُ تناقضـاتِ عصر التحوّلِ الـذي قيل إنه يشارفُ على كسـر سياق نظامِ الاستغلال، مع مـا يُثيرُه من تساؤلاتٍ محيِّرة عـن سيرورته، وتجاذباتٍ لم يكـنْ من السهل تمثّـلُ أبعادِها، ولا تَجنُّـبُ التورّطِ في استقطاباتها، من دون إحـكام الفكرِ وما تبلورُه من

اندفاعــاتٍ أو انحيازاتٍ ليســت محكومةً في كلّ حالٍ بمــا تعكسه من مصالحَ طبقيّةٍ أو اجتماعية أو تكرّسه من يقين، فالعصرُ بسماتِه المُهيمنة كان شديــدَ الالتباسِ، تعصفُ بــه قيمُ التحــرّرِ والعدالــة الاجتماعية والتشوّفِ الإنســانيِّ لعالمٍ يندفعُ ليتجاوزَ كلَّ قديمٍ بالٍ، وتفكّكُ آلياتِ إعادة إنتاجِ منظومته، بفعلِ تناقضاتِ النظامِ التناحريّة..

كان علي الشوك نموذجَ المثقّفِ المهموم بقضايا عصره المتحوّل، وهو الآتي من مجتمعٍ تظهرُ فيهِ كلُّ تلكَ التناقضاتِ بوضوحٍ كافٍ ليتمكّنَ مثلُه من التقاطِ الأبعادِ التناحريّــةِ المستحكمة في النظام الرأسماليِّ المتطوّر، حتى يبدو " نظريّــاً " كأنّه على "عتبةِ الانتقالِ إلى النظام الجديد الواعد "! وقــد وجدَ في مجتمعه العراقيّ، وهــو يعودُ ليتفاعلَ فيه مع الجديد، صراعــاً مكشوفاً بــين القديمِ المترهّل المثقــلِ بارتكاباته، وقوى التحوّل والتقــدُّمِ وما تُبشِّرُ به من تحرُّرٍ ومســاواةٍ وعدالة اجتماعيّة وانعتاقٍ من أسْرِ التحريم والموروثِ المُخاتل. لم تكــن قد اتّضحت في تلك المرحلة المبكّــرةِ بعد، مظاهرُ الصــراعِ المستور والمواجهــةِ المُضمَرة بين القوى السياسيّــة المتحالفة المضادّةِ للنظام القــديم، والمصالح التي تربطُ بعضَها مــع قوى وامتداداتِ ذاك النظام، ممّا قد يجعلُ منها أدواتِ ارتدادٍ، و " حصانَ طِروادة " تُجهضُ عمليّة التغيير والتحوّل الثوري. وكان صعباً علــى المثقّف في ظروف الصــراع الوطني التحرّري المحتــدم، أن يُميطَ اللِّثام عــن الأبعاد الاجتماعيّةِ والطبقيّةِ التــي تتحكّمُ في الاصطفافاتِ السياســة في وضعٍ " محكومٍ بتناقضات مرحلــةِ تداخلِ المصالح " التي تلتقــي حول أهدافِ التحــرُّرِ واستعادةِ الســيادة والاستقلالِ الوطني. وفِي مجتمعٍ تتحكّمُ فيه قيمُ وأعرافُ وتقاليدُ ما قبل الدولة، و لم تبرزْ فيه المعــالمُ الطبقيّة المعبِّرةُ عن نزعاتٍ ومصالحَ طبقاتها وحواملها السياسيّةِ

التـي تميّز بعضَها عن البعض الآخر. وما كان سائداً في المجتمع العراقيّ في مشــارف خمسينيّات القرن العشرين، عشيّةَ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ نهوضٌ جماهيريٌّ معبِّرٌ عــن القوى المعنيّةِ بالثورة والتغيير، يتداخلُ في إطــاره تجمّعٌ غيرُ متجانسٍ من حيث التركيــبُ الطبقيّ والسياسيُّ كان من شأنه إضفاءُ مزيدٍ من التعقيد على المشهد ولوحة الصراعِ السياسيّ.

ولَعِبَ النظامُ السياسيّ الملكيّ شِبهُ الإقطاعيّ شبه الاستعماريّ، دوراً في التمويه والاستقطابِ والتمايز، فغيابُ الحريّاتِ السياسيّة – الحزبيةِ وتفاقــمُ مظاهرِ الاستغلال وانعدامِ العدالة الاجتماعية، وتمركزُ الهدف الوطنيّ العام حول إنهاء نظامِ التبعيّة والانصياع للأجنبيّ، لم يتركْ خياراً حُرّاً مفتوحــاً في الانتماء والانحيــازِ للشرائح والأوســاط الاجتماعية الأكثرِ وعياً واستعداداً للانخراطِ في الفعل الوطنيّ العام، غيرِ الانضمام إلى الحزب الشيوعيّ العراقيّ أو حملِ مشروعهِ وشعاراته. فالاستقطابُ تمحــورَ في الخيار بين الحركة القوميّةِ العربيّــة التي لم تنطوِ على برنامجٍ اجتماعيٌّ جــذريٍّ يُلامسُ نبضَ أغلبية المجتمعِ المتّسم بطابعهِ الفلّاحيّ السائــد، والفئاتِ الطبقية من شغيلة اليدِ والفكر. وانعكسَ هذا الواقعُ بــكلِّ ملابساته وتداخلاتهِ على المثقّفــين بشكل خاصٍّ لكونهم الأكثرَ وعياً وحساسيّة إزاءَ مظاهر الظلم الاجتماعي والقمع السياسي وانعدام الحريّات. وجعلَ الغالبيةِ منهــم تنحازُ إلى المشروع التغييريّ الذي كان الأكــثر وضوحــاً ببرنامجه الاجتماعــيِّ الاقتصاديّ وأهدافــهِ وشعاراته السياسيّــةِ في التعبــير عمّا يتطلّعــون إليه من إصلاحٍ وتقــدّمٍ وتحوّلاتٍ اجتماعيّــة وتطلّعاتٍ شعبية، جسّــدتْ مبادئ وقيَمَ الحريّــةِ والمساواة والعدالــة الاجتماعيّــةِ والنــزوع الإنســانيّ. وزادتْ في قــوّة المشهــد وتعبيراتِه، الموجةُ العالميّة المُنبّئة بانبثاق عصرٍ جديد وانعطافٍ حادٍّ دشّنته

ثـورةُ أكتوبر الإشتراكيّةُ في روسيـا، وكرّسته منجزاتُ دولتِها في سائر ميادين التطوُّرِ والتقدُّم.

عـادَ علـي الشوك من الولايـات الأميركيّةِ إلى العـراق، وهو مُشبَّعٌ بالمعـادلات والمنحنيـات والأرقـامِ التي أتت بهـا آخرُ علـومِ الفيزياء والرياضيات، وتكاملت مع انشغالـه بمصادر الإلهام الإبداعيّ الثقافيّ كرافدٍ آخر يُعمِّقُ إحساسَه بالواقع الاجتماعي وما يسود فيه من أسباب التمايزِ والظلم ومُصادرة الإرادة.

انضـمَّ علي الشوك، وهو مهمومُ بكلّ هـذه الهواجس، إلى الحزب الشيوعـيّ، وصار مـن أبـرز مثقّفيه، وتحـوّل إلى كادرٍ قيـاديٍّ منظّم للمثقّفـين، وهو لم يكنْ بانتمائه هذا شذوذاً عن القاعدةِ السائدة، وإنما تعبيراً عن ظاهرةٍ سادتِ الوسطَ الثقافيّ، بمفهومه العام والإبداعيّ، حيث بـدا كما لـو أنّ كلّ مثقّفٍ ومبدع، كاتباً كانَ أو روائيّـاً، فنّاناً تشكيليّاً أو مسرحيّـاً وممُثّلاً، طبيبـاً ومهندساً وأُستاذاً جامعيّـاً أو مُعلِّماً، عضواً في الحـزب الشيوعيّ أو علـى مقربةٍ منه. وصار المشهـدُ يتّسمُ بطابعه الغرائبيّ، وهو يؤشّر إلى احتواءِ الحزبِ في تلك المرحلة لأبناءِ الإقطاعيّين والملّاكينَ الكبارِ وأبناء العوائل من الطبقةِ الوسطى والبرجوازيّة النافذةِ من دون استثناء أبناءِ النُّخبة الحاكمة وأصفياء طبقتها.

ابتـدأتْ تلك المرحلةُ في وقت مبكّرٍ مع الإرهاصات الأُولى لانبثاقِ بواكـيرِ الحركـة الفكريّـةِ الماركسيّة منتصـفَ العشرينيّـاتِ من القرن العشرين وظلّت تنمـو وتتوسّعُ لتُصبحَ ظاهرةً طاغيـةً في الخمسينيّات منـه، لتبدأ مسيرةُ الانكفاءِ والضمور بعد الانتكاسة المُروّعةِ في انقلاب ٨ شبـاط ١٩٦٣ الدمويّ، حيث بدأتْ عمليّـاتُ الانتقام الارتداديّ

من الشعب العراقيّ على ثـورة ١٤ تموز ١٩٥٨ من قِبَلِ حزب البعث العربي الاشتراكي بالنيابـة عن حاضنته، المخابراتِ الأميركيّة، وكانت تلك لحظةُ الانهيارِ الذي لم يتوقّفْ حتى يومِنا هذا، أدّتْ إلى تدمير كلّ بُنى التطوّرِ والتحديث، وتفتيـت نواتاتِ التحوّل والتقدّم الاجتماعيّ – الاقتصـاديّ السياسـيّ للعراق، وإجهاضِ حركتهـا وإفراغِها من نزوعِها التقدميّ.

كانَ علـي الشوك ومجايلوه مـن الكتّاب والمثقّفـين والفنّانين يُغْنُونَ الحركـةَ الثقافيّـة ويمدّونها بكلّ مـا يثريها بالجديد، ممـا يُعمِّقُ من وعي المجتمع ويستنهضُ فيه عواملَ التمرّد على واقعه المشوّهِ المتخلِّف. وليس بمعـزلٍ عن نهوض الحركـة الثقافيّة السياسيّة، شهـدتْ تلك السنوات منـذ أوائل الأربعينيّاتِ مـن القرن العشرين، ازدهـاراً غيرَ مسبوقٍ في كلّ ميادين الثقافة والمعرفة والتعليـم، حيث انبعثت من العراق الحداثةُ الشعريّة مُمَثَّلةً بريادة نازكِ الملائكة وبدر شاكر السياب، وريادةِ المدارس الفنيّـةِ في الحركـة التشكيليّةِ ممثّلـةً بجواد سليم وفائـق حسن ومحمود صـبري، ونهوض المسرحِ بريادة حقـي الشبلي ويوسف العاني وزينب وخليـل شوقي وناهدة الرمّاح وسامـي عبد الحميد. وقد كان بين أبرز مظاهر التقدّمِ في تلك المرحلة التطوّرُ في التعليم الجامعي، حيث برزت قاماتٌ تركت بصماتِها في جيلٍ ظلّ مثلاً يُقتدى حتى يومنا هذا، إذ لن تنسى الذاكرةُ العراقيّة أسماء عبد الجبار عبد الله وعلي الوردي ومهدي المخزومـي وعلـي جواد الطاهـر وصفـاء الحافظ، ونُخـبٍ علميّةٍ في ميادين الطبّ والعمارة والهندسةِ والقانـون والصحافة والأدب وهي تحتلُّ مواقعَ الصدارةِ في تاريخ العراقِ الحديث.

لم يستطع علي الشوك تحمُّلَ التعذيب المروّع الذي تعرّض له في قصر

النهايــة على أيدي زبانيــةِ الحرس القومي الفاشــي البعثي، كما تعرّض لــه الآلافُ من العراقيــين، استُشهِدَ منهم مَن استشهــد وتحوّل البعضُ الآخــرُ إلى حوامل لجراحــات جيلٍ لم تكن جذوةُ الإيمــان قد انطفأتْ في أعماقهــم، بــل ظلّتْ مصدرَ عذابٍ قد يفــوق في لحظات استذكارٍ ويقظــة، معاناةُ التعذيب والقسر، ومحاولات كســر إرادة الإنسان وهو يُحاولُ جاهداً الاحتفاظ بنقاوة ضميرهِ ووجدانه.

لم تكن جريمةُ البعث تتمثّلُ في التعذيب والموت الذي غيّبَ الآلاف في قصــر النهاية وأقبية أجهزةِ الأمــن والمخابراتِ طوالَ عهدَي حكمه فحســب، بل تجسّدهــا أيضــاً كســر إرادة الآلاف من أفضــل العقول والكفــاءات من المثقّفــين والناس الأخيار، وجعلهــم أسرى الإحساسِ بالذنب والانقطاعِ قسراً عن عوالم الحلم الذي راودهم، بسبب ضعف إنسانيّ أمــام قطعانٍ من وحوش ضارية في هيئة بشر. وقد دفع المجتمعُ العراقيُّ ثمنــاً باهظاً لتلك الجريمة، سواءً بشــكل مباشر عبر حرمانهِ من طاقاتهــم الخلّاقة، أو مــا انعكــس في أوساطه من الآثــار الجانبيّة التي أصبحت في حالاتٍ غيرِ قليلة مظاهرَ مرَضيّة خلفتّها حالات الانكسار الداخلــي لمن حوّلتهــم الوحشيّةُ البعثيّةُ إلى أفرادٍ يتــوارونَ في حواشي المجتمع، وينكفئون على جراحاتِهم الداخلية.

واصل علي الشوك، بعد خروجه الدامي من مجزرة قصر النهاية حياةً أراد لها أن تكون تجاوزاً وليس انقطاعاً عن ماضيه المضيء، محاولاً بكلّ ما فيه مــن طاقة الإبداع والتوق الإنسانيِّ أن يُــرمِّمَ انكساراتهِ، خيباته، شكوكَــهُ وهواجسَه وتساؤلاتِهِ التــي صارت كلُّها عبئاً مضنياً في محيطٍ يبعــث على مزيدٍ من الشكوك. وكما كان عليه دائماً صار أكثرَ انكباباً علــى القراءة، لكــنَّ الموسيقى ظلّتِ المحــرّكَ الذي يتسلّــلُ إلى أعماقه

المُحبَطة، فيعيدُ إليها السكينةَ والأحساسَ بمعنى الوجود، وسحرِ الحياة وعنفوانهــا، وبقي الشــوك رغم انشغالاتِه بترميم مــا انكسرَ في روحه مشــدوداً إلى عمليّة إبداعٍ خــلاقٍ تشكّلُ قوّةَ تجديــدٍ واستعادة عافية، فبــدأ في كتابة الرواية، محاولةً منه بتجريــب بناء حيواتٍ رأى في بعض أبطالها انكساراً قابلاً للمعافاة، وفي البعض الآخر كائناتٍ متمرّدةً على التقاليد، مرفوضةً بحكم العادة والمألوف.

قــد ينسى علي الشوك في لحظــات استذكاراتهِ، وهــو يَرسُمُ أبطالَه أحياناً محكوماً بدواعي التمرّد على كلّ مألوفٍ، كما لو أنه يعيد صياغة بيئةٍ مضــادةٍ لقوىً كانت سبباً في أنكسارِ جيلــه، ولكنه إذ يفعلُ ذلك يُضفي ظلالَ شكوكٍ حول مدى بــراءة دوافعه الإبداعيةِ، ويُعمّقُ عزلةَ أبطالــهِ عن محيطهم التاريخيّ وقد يُشوّهُ دوافعَ سلوكه كروائيّ بإسقاط رغبته الشخصيّــة على بعضهم وتلبيسِهم طابعــاً متخيّلاً غرائبياً يضيق بهم زمن الرواية وأمكنتِها..

انتقلَ علي الشوك إلى الرواية أملاً في بناء مختبرٍ لتشريح أبطالِ رواياتِه وإعــادةِ تخليقهم مُضفياً على نماذج منهم، مجــازاتٍ مقتطعةٍ من لوحة حياتــه وإسقاطاتها، فاتــه أن يعيش تجاربَها، متحرّراً مــن قيودٍ فرضها انحيــازُه الآيديولوجــيُّ والتزامــه الحزبــيّ.. وكان التشــدّدُ والتزمّتُ والازدواجيّة السلوكيّةُ معيارَهما ومحدّداتِهما المفهوميّة..

في أواخــرِ السبعينيّات، حــين توضّحت معالمُ سياســةِ نظام البعث الكارثيّة، خرج علي الشــوك من العراق إلى حيثُ يجدُ الحمايةَ الذاتيّة مــن احتمال انكسارٍ جديد. وكأنّه بموقفه هــذا يُعيدُ إلى ذاكرته مشهدَ مواجهة جــلادهِ في قصر النهايــة، فيتحدّاه ويُظهره مجــرّدَ شِبه إنسانٍ،

مسخ، يتضاءلُ أمامَ ناظريهِ فيسقطُ تحتَ ثقل جرائمه، مكسورَ الإرادةِ، فيتعرّى وينهار...

كان خروجُـه من العراق تعافياً وإعـادةَ تكوينٍ مُبرّءاً من عوالق زمنِ التعـثّرِ والانكفاء وتجاوزاً للقطيعة مع قامتـهِ كإنسانٍ يستردُّ ما اغتُصِب منه، والعودة إلى زمنِ التوهُّج..

يقـول علـي الشـوك، كلّمـا أرادّ أن يتوقّـفَ عند محطّـات إبداعه الفكريِّ والأدبيّ، ان كتابـه " الأُطروحة الفنطازية " يظلُّ يحتلّ موقعاً أثـيراً في مسيرة عطائـه، فريداً من نوعـه في العالم العربـيِّ، ويجدُ في اعترافِ كلٍّ من أدونيس ومحمود درويش بقيمة الأُطروحةِ دالّةً تُكرّسُ قيمتَهـا وسعةَ تأثيرِها. ويرى الشوك أنَّ " الأُطروحةَ الفنطازية " كرّستهُ كاتبـاً ذاع صيتُه بين أبرزِ مجايليهِ من الكتّاب والمبدعين وجوازَ مرورٍ إلى عـالم الكتابـة والأدب. والأطروحةُ قد تصلُح مفتاحـاً لفهم شخصيّتهِ التـي تجمع بين الانفتاح على العلم المجـرّدِ الملغوم بالمعادلات الرياضيّةِ ومتاهاتِ نظريّاتِ الفيزياء والإبحارِ في عوالم الأدبِ والفنون، ومِنهما تمكّنَ من تطويع علمِ الرياضيّات لصياغةِ عملٍ أدبيٍّ رفيعِ المستوى.

علـي الشوك، إذ يكتبُ في مذكّراتهِ أنّه صـار نزيلَ "قاعةِ المُعترفين" تحت التعذيبِ، ويُقرُّ بأنّه لم يستطعِ الصمودَ أمام التعذيب، يُظهرُ زاويةً أُخرى من سمات ناسِ الزمن الجميل وفضائِله... إنّه لم يُكابر و لم يدّعِ أو يُـبرّرْ ويسوّقْ أكاذيبَ ليُزيّنَ صورتَـهُ كضحيّةِ نهجٍ أو سياسةٍ خاطئة أو ممارساتٍ فظّة، بل اكتفى بأنه " اعترف "..!

لكـنَّ هذا الاعترافَ لا يكفـي، فها هو يصفُ مشهـدَ قائدٍ شيوعيٍّ جيء به من قاعةِ الصامدين بشموخٍ أمام الجلّاد، محاولةً في كسر إرادتِه

ليتفرّجَ عبر شاشةِ التلفزيون على اعترافاتِ قياديٍّ انهار ؛ يقول علي الشوك: "لم يبقَ سوى دقائق ثم طلبَ بتعالٍ إعادتَهُ إلى محبسه"، مشمئزّاً من دون أن يتشفّى..!

علي الشوك، وقد اختارَ المنفى، حاولَ أنْ يسترجعَ كلَّ ما هو مُمكنٌ من ماضيهِ قبلَ الانكسار، وإذا لم تكنْ رواياتُه تعكسُ عودةَ الوعي هذه أو أنَّ بعضَها خدشَ سريرةَ أصدقاءٍ له ومُحبّينَ وأثارتْ في ما بينهم تساؤلاتٍ خارجَ سياقاتِ العمليّة الإبداعيّة، فإنّ مذكّراتهِ تردُّ على هواجِسهم إذ تعكسُ كينونةً عصيّةً على الانكسار.

**بغداد/ ١٤ كانون الأول ٢٠١٦**

# الفصل الأول

كانت الرواية هاجسي الأكبر طوال حياتي، وعلى مدى علاقتي بالكتابة. فأنا حين اتخذت قراراً في ان أصبح كاتباً، لم أفكر في كتابة أي شيء سوى الرواية. الكتابة عندي كانت تعني القصة أو الرواية. ولا أذكر ماذا كانت قراءاتي الأولى، لعلها كانت تافهة. فأنا بدأت أقرأ خارج إطار الدراسة المدرسية عندما كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. لكن الكتابات التي استهوتني كانت الأعمال القصصية، بعد ذلك بعام أو عامين، أي بداية السنوات الجامعية. كنت الآن أقرأ مجلة (الرواية) المصرية، وإصدارات دار الكاتب المصري. في مجلة (الرواية) تعرفت إلى عالم القصة الفرنسية، مثل كتابات موباسان، وفرنسوا كوبيه، وألفونس دوديه، وأندريه تيريه، الخ. واستهوتني كثيراً قصة (الراقصة الأندلسية) لأندريه تريبه. لا أزال أذكر المقاطع الشعرية فيها التي قالها بطل القصة الراهب الذي وقع في حب راقصة أندلسية:

كان أول أسباب ضياعي امرأة

ولا ضياع في الدنيا، يا حبيبة القلب

أجل لا ضياع

لا يأتي من النساء.

وقد تعلقت كثيراً بهذه القصة لأنني كنت مراهقاً. وفي هذه المرحلة أيضاً تعلقت بقصة (الحب الأول) لإيفان تورغينيف. ووجدتها أعذب وأحب عمل قصصي قرأته. وقد استهوتني كثيراً لغرابة موضوعها. فهي تروي قصة حقيقية عاشها المؤلف عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وأحب ابنة جارتهم، الفاتنة زينايدا، كان عمرها ٢١ سنة. ثم يكتشف أنها كانت عشيقة والده. وشاهده يضرب بالسوط على ذراعها، ثم تقبل موقع الضربة. أذهلتني هذه القصة يومها، وأصبحت من أحب مفردات ثقافتي القصصية أو الأدبية. ثم قرأتها حديثاً، أي بعد أكثر من ستين عاماً على قراءتها الأولى. و لم تفقد روعتها. وقرأت عنها أن الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير كان معجباً بها. وذكرت كونتيسة مقربة إلى تورغينيف أن إمبراطور روسيا نفسه قرأ القصة للإمبراطورة وأعجبت بها. لكن تورغينيف كتبها في سن النضج. وهذا يقدم تفسيراً لتسرعي في التفكير في كتابة شيء على غرارها عندما كنت في العشرين من عمري.

وقرأت قصصاً وروايات أخرى كانت تشدني أكثر إلى عالم الرواية. قرأت (قصة رجل مجهول) لأنطون تشيخوف، و(رسالة من امرأة مجهولة) لستيفان زفايغ، و(دير بارم) لستندال، و(المقامر) لدستوفسكي، الخ. وهذه القراءات زادتني حباً للرواية، ورغبة في أن أجرّب كتابتها. لكنني كنت أدرك أنني أكاد أنشد المستحيل، لأن هذه

الروايـات لا تمنح نفسها لحـالم مثلي كان محدود الموهبـة والتجربة. ثم عندمـا قرأت رواية (الأحمـر والأسود) لستندال خيـل إلي أنني قرأت المستحيل، وأنني تعرفت إلى بطلة ليس لها مثيل في كل الدنيا والتأريخ، بمـا أسبغه عليها المؤلـف ستندال من مزايا استثنائية مـن بين كل النساء. أنـا أشير هنا إلى شخصيـة البطلة (ماتيلد). وأثار فضـولي واهتمامي ما قرأتـه عن الشخصيـة الحقيقية التي أوحت لستنـدال بشخصية ماتيلد. وأعني بهـا (ماتيلد دمبوفسكي) التي لم أحصـل على معلومات عنها. لكـن قصتهـا أدخلت في روعي أن كتابة العمـل الروائي الرائع تتطلب أن تكون على معرفة بامـرأة نادرة المثال في جمالها ومزاياها الأخرى. أيعني هذا أنك لكي تكتب عن شخصية روائية استثنائية مثل ماتيلد دي لامـول، يتعـين عليك أن تجد في الواقع امرأة يمكـن أن تستنهض عندك القـدرة على كتابة المستحيل أو المتعذر؟ إن المخيلة وحدها ليست قمينة بـأن تخلق شخصية روائيـة مذهلة. لأنك لن تستطيـع أن تقنع نفسك بمصداقيـة عملك الروائي. أنـت ستخلق بطلة روائيـة مفتعلة إن كنت ستصنعهـا من عالم المخيلـة فقط. لكنك ستشعر أنـك أمسكت بالحلم إذا كان هـذا الحلم له خلفية من واقعـك المعاش... وأين هي تلك المرأة التـي ستكون ملهمة؟ فأنا لا أعتقد أنني أستطيع أن أكتب رواية دون أن أتعـرف إلى امـرأة ذات مواصفات خاصة، حتى لـو كانت روايتي عن الرجال المعصوبي العينين.

لكـن واقعي المعاش كان ما يزال ضنيناً بأجـواء الرواية التي أريد أن أكتبهـا، وسيتعيّن علـيّ أن أواصل قراءاتي واطلاعاتـي على الحياة. في بيروت قـرأت أشياء من الأدب الروائي الفرنسـي والروسي، وتعلمت شيئاً جديداً عن عالم اللغة، شيئاً مثيراً جداً للفضول: اشتقاق الكلمات،

بمعنى الوصول إلى جذورها الأولى. وكان أستاذي الدكتور أنيس فريحة هـو الذي غرس فيّ هذه الهوايـة. سأقول: إن أحب درس في حياتي كلها كان درس التأريخ الإسلامي (باللغة الانكليزية) الذي درّسنا إياه الدكتور أنيس فريحة في جامعة بيروت الأمريكية، مع أننا ذهبنا لدراسة الهندسة. كان أنيس فريحة من الدارسين في جامعة شيكاغو العظيمة في دراساتها الاستشراقية. وكان هـو متحرراً يومذاك. فنسي أو تناسى تعليمات جامعة بيروت المتحفظة في تحررها. كان يفسر التأريخ من وجهة نظر علمانية. وكنت أنا أصغي إليه بمزيد من الاهتمام والارتياح، في اشتقاقه كلمة «الصراط»، وكلمة «الجن»، إلى آخره. ولفت نظري في تفسيره آية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾... وإختزنت هذه المعلومات والإستطرادات إلى يوم صرت أفكر في التعامل مع اللغة بصورة أخرى. وسأعترف بأن بيروت كانت مدرستي الأولى في التعامل مع اللغة ومع التأريخ ومع الأسطورة، وذلك بفضل البروفسور أنيس فريحة.

أما في بيركلي فكنت ذاهباً إلى الهندسة، على حدّ قول ماكس فريش في مسرحية (دون جوان عاشق الهندسة). لكنني لم أذهب إلى الهندسة بمحض إرادتي، بل اختاروها لي. لذلك تنغصت حياتي في السنة الأولى لأنني لم أكن عاشقاً الهندسة مثل دون جوان. كان هناك خطأ في فهم مزاجيتي العلمية. وأنا لم أكن كائناً عملياً. لم أفك برغياً في حياتي. بل كنت عاشق كتب. لذلك لم أتنفس الصعداء إلّا بعد أن انتقلت من الهندسة إلى الرياضيات. وعند ذاك وجدت بيركلي أجمل مدينة في الدنيا. وأحببت بائعة الاسطوانات الموسيقية (زيدا) في محل(Tupper and Reed) وشغل بالي موضوع ميكانيك الكم

ومبدأ اللاحتمية. وظل شاغلاً بالي طيلة حياتي. و لم يهدأ بالي إلا بعد أربعين عاماً، حين اكتشف أن مبدأ اللاحتمية كان مبنياً على تجربة نظرية وليست مختبرية. وقد تم تفنيد هذا المبدأ فيما بعد. وأنا كتبت كتاباً علمياً تحدثت فيه عن ملابسات ميكانيك الكم في الفيزياء. ولست في صدد أن أدخل الآن في تفاصيل هذا الموضوع، بل أحب أن أتحدث عن توطد علاقتي بالموسيقى في بيركلي. أنا حين تحررت من كابوس الهندسة المعمارية، والهندسة المدنية، وأية هندسة أخرى، وانتميت إلى الرياضيات، صرت أحل المعادلات الرياضية على أنغام موسيقى: (آلام القديس ماثيو لباخ)، أو باليه بتروشكا لسترافنسكي، أو خماسية شوبرت، وأشعر بلذة ميتافيزيقية. وصرت أترنم في طريقي من البيت إلى الجامعة بأنغام بتروشكا، ولا أتوقف عنها. وفي واقع الحال إن سترافنسكي أصبح مقترناً عندي مع بيركلي والشوارع المؤدية من بيتي إلى حرم الجامعة. فأنا عشقت الموسيقى في بيركلي. وابتليت بلوثة موسيقية. ثم لازمتني هذه اللوثة الموسيقية طوال عمري، وفي أيام بيركلي كنت أذهب إلى دار الأوبرا في سان فرانسيسكو كل نهاية أسبوع. كنت أستقل القطار من شارع (شاتك) كل يوم أحد ليقلني إلى (الديبو) عبر الجسر في سان فرانسيسكو، ومن (الديبو) أذهب إلى دار الأوبرا. أوه، لقد شاهدت معظم أوبرات فيردي، وفاغنر، وموتسارت، وروسيني، وحتى أوبرا (بوريس غودونوف) الروسية، لموزورغسكي.

وعشقت مغنية الأوبرا الشقراء للي بونز. آه، نسيت أوبرات بوتشيني. وبالذات أوبرا (مدام بترفلاي). وفي الأيام الأخيرة من مدة بقائي في بيركلي ودعت كل شوارعها، لاسيما شارع (اللزوورث)

الذي كان بيتي يقع عليه، وشارع تلغراف المؤدي إلى الحرم الجامعي، ومخزن إسطوانات Tupper and Reed.

كنت في تلك السنوات الثلاث التي أمضيتها في بيركلي، وقبلها في السنتين اللتين أمضيتهما في بيروت، في إجازة عن الدنيا إلى اليوتوبيا، وهذه الإجازة الفردوسية لم تتكرر في حياتي.

هناك شيء في سيرة حياتي لا أريد أن أنساه، أعني به السياسة. كنت أنا ذا نزعة يسارية منذ أيام بيروت في الأربعينات، ومنذ أيام أميركا. وعندما عدت إلى العراق تلقفني «الرفاق»، وأرادوا أن أكون واحداً منهم. وأنا لم أبادر في أن أنخرط في عمل سياسي. كنت متجاوباً مع الفكر الماركسي. ثم لا أدري كيف وجدتني منتمياً إلى الحزب. وفيما بعد أعطوني اسماً حزبياً. أردته أن يكون بعيداً عن مضامين النضال. ومع ذلك بقيت أخجل من استعمال اسم آخر لي. وعندما علمت أن اسم ستالين يعني «فولاذ» لم أرتح لهذا التبجح الكفاحي. ثم إني لم أكن أنسجم مع طقوس العمل الحزبي كلها، ولا العمل السري. لكنني تقبلت هذا العمل (عن غير قناعة فطرية)، بعد أن التحقت برفاق مثل الدكتور صلاح خالص، ومحمود صبري (في مناسبات مختلفة). ولاشك أنني كنت مقتنعاً بوجود خلل في حياتنا السياسية. فلم يكن متاحاً لنا أن نمارس حياة ديمقراطية. ففي ١٩٥٤ جرت الانتخابات البرلمانية. وذهبت أنا لأدلي بصوتي لممثل الحزب الوطني الديمقراطي، وحال خروجي من المركز الانتخابي، تقدم مني شرطيان يحمل كل منهما بندقية، واقتاداني إلى مركز الشرطة. فرحت أردد: «هذا حكم قرقوش» طوال الطريق، وفي داخل مركز الشرطة. فصرخ مفوض شرطة من الطابق الأول المطل على الباحة: «اخرس»، قالها بالعامية،

التي تبدو أكثر إهانــة. فرددت عليه بالمثل. فلم يكن منه سوى أن يهرع إليّ ليضربنــي بكف في وجهي. لكننــي عاجلته وضربته أنا بكف. وهنا انبرى أفراد الشرطة ليباعدوا بيننــا. واقتادوني إلى غرفة معاون الشرطة، وكان مــن أسرة القريشي، وهو يعرف من أنــا، ويعرف عائلتي. فافتعل الغضــب، وأوقفني أمــام أحد جدران الغرفة. ثــم اغتنم المفوض المهان الفرصة، وانتقم لنفســه، فضربني بكف على وجهي. لكن هذه الحادثة لم تدم أكثر من ساعة، أطلق سراحي بعدها. وقد فاز في تلك الانتخابات عشرة نواب وطنيــين. لكن نوري السعيــد لم يحتمل فوزهــم، فألغى الإنتخابــات، وأعلــن الأحــكام العرفية. وقد قــرأت في مذكرات عبد الكــريم الأزري، الذي فاز عــن جبهة الحكومــة، أن السفير الأمريكي فيليــب آيرلاند، زاره فور صدور نتائــج الانتخابات، ولعله كان قد زار الوصــي على عرش العراق، وربما نوري السعيد أيضاً، ليقنعهم بضرورة إلغــاء هذه الانتخابات، خوف أن يظهر بين المرشحين الوطنيين مصدق آخر.

ومــن مظاهر الخلل الأخرى منذ تلــك الأيام أن حزب البعث العربي الاشتراكــي أصرّ منــذ تأسيسه على أن يلعــب دوراً تخريبياً في الساحة. فعندمــا عقد الحزب الوطنــي الديمقراطي مؤتمره(ولعــل ذلك كان قبيل الانتخابــات المشار إليها)، بدأ حسين جميل بالكلام. وهنا انبرى أربعة صبيــان من أربعــة أركان الصالة، وأخذوا يهتفــون: «أمة عربية واحدة ذات رســالــة خالدة». وظلوا يهتفون بهذا الهتــاف بلا انقطاع، إلى أن قرر حسين جميل إلغاء الاجتماع.

ومــن مظاهر الخلل الأخرى أن حرية النشر والتعبير عن الرأي لم تجد متنفســاً لها في أيام الحكم الملكي(أو نوري السعيد). فقد اتفق عدد من

مثقفي اليسار على إصدار مجلة ثقافية تحت عنوان مجلة الثقافة الجديدة. وصدر العدد الأول منها. وكان صدور هذه المجلة حدثاً في تأريخ الثقافة في العراق. وقد ساهم في تحرير هذا العدد مثقفون عائدون من أوروبا، مثل الدكتور صلاح خالص، والدكتور صفاء الحافظ، وإبراهيم كبة، وغيرهم. لكن السلطة عطلت المجلة، وعطلت كل شيء آخر. وبعد تعطيل البرلمان، أعلنت الأحكام العرفية. ودام إعلانها حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، وهو تأريخ قيام ثورة تموز.

إنهم يتحدثون الآن عن تلك المرحلة، مرحلة العهد الملكي بحنين طاغ. ونسوا أن حلف بغداد انعقد في تلك الأيام، أيام الأحكام العرفية، حيث تتعطل الحياة السياسية. ونسوا أيضاً أن العراق كان فيه نظام إقطاعي هو الأسوأ في العالم.

لكن الشرَّ كان أهون بكثير مما هو عليه الآن. فأنا تعرضت إلى التنكيل في أواخر عام ١٩٥٦، لأنني لم أستجب إلى طلب الوزارة (طلب هذا من كل المدرسين) بتقديم قائمة بأسماء الطلاب الذين تظاهروا انتصاراً لمصر في قرارها تأميم قناة السويس. ونقلت إلى ثانوية عنة (نفيت في واقع الحال). لكنني أُعدت إلى بغداد بعد ستة أشهر، بعد أن جربت الحياة في بلدة لم تكن فيها إسالة ماء، بل كنا نتزود بالماء من الفرات- وكان أحلى وأعذب من ماء دجلة -بواسطة ساقٍ.

في تلك الأيام بدأت تصدر ترجمات منير البعلبكي الجميلة، وترجمات دار اليقظة في دمشق، الضخمة، أعني أعمال دوستويفسكي وتولستوي الكبيرة. سوى أن ترجمات دار اليقظة كانت مهملة في طباعتها الحافلة بالأخطاء المطبعية، ليست كمطبوعات دار العلم للملايين الأنيقة. وكنا نتلقف الإصدارات الأخرى من مصر ولبنان.

لاسيمـا إصـدارات الألف كتاب. وكانت سعادتـي طاغية بعد صدور ترجمـة (الأحمر والأسـود) المصرية. إلى جانب ذلك كلـه كنت أتابع بلهفة الإصدارات الشهرية لكتاب (الأغاني لأبي الفرج).

أمـا حياتنا في تلك الأيام التي سـادت فيها الأحكام العرفية، فكانت بليـدة ومملة، لكن ليس إلى حدِّ الاختنـاق، وأنا بدأت أشاغل نفسي في كتابـة خواطر ليست للنشر، بل لي فقـط، للتسلية أو للتجربة. و لم أطلع عليها أحداً، لأنني كنت أكتب بحرية مطلقة تقريباً. وبقيت أكتب هذه الخواطـر على مدى سنوات. وبدا لي يومئذ أن حياتنا لم تكن تستنهض الرغبـة لكتابة شيء قصصـي؛ أو لعلي أنا كنت ممتنعـاً على هذا العا لم. ثـم إني لم أكن قد تعرفت بعد إلى المـرأة، التي ستصبح ملهمتي في كتابة الأعمال الروائية.

وصـادف في تلك الأيـام أن تنشأ لي علاقة مـع شخص كانت نقطة تحول في حياتي، وحياتـه، كما أكد هو أيضاً. وأعني به الدكتور نوري السعـدي. وكان واسطة التعارف زميلاً لي في التدريس كان صديقاً له، وقد حدثه عني بارتياح كبير على ما يبدو. فأحب نوري أن يتعرّف إليّ. أنـا لا أدري إذا كانت قد حصلت علاقة صداقة في مجتمعنا في مستوى العلاقـة التي حصلـت بيننا. لكنني أملك أن أقـول إن العلاقة الصداقية بينـي وبين الدكتور نوري السعدي كانت لامثيل لها في الانفتاح الذي تم بيني وبينه. ولعلي عبرتُ عن هذا الموضوع جيداً بتوكيدي على كلمة «الانفتاح». فأنا كان وأصبح لي معـارف و«أصدقاء»آخرون، لكن أيّاً مـن هذه العلاقات لم تكن منفتحة في مثل مستوى انفتاح العلاقة بيننا، فنحـن أصبحنا نسر الآخر بما يدور في عقلنا الباطن. لم يكن هناك شيء محظور بيننا.

كان معجباً بثقافتي. وكنت أرشح له الكتب التي يحسن به قراءتها. كل قراءاته تقريباً. وعندما شاهد كستناءات موجودة على رف في مكتبتي، سألني عنها. فأخبرته بأنني التقطها مما كان متساقطاً في حديقة لوكسمبورغ في باريس. فقال: «تعجبني مزاجيتك الرومانسية».

قلت له: «أنا أجد سعادتي في عالم القصص التي أقرأها. وكان اسم حديقة لوكسمبروغ في باريس، وكذلك غابة بولونيا، يتكرر كثيراً في القصص الفرنسية التي كنت أقرأها، وعندما زرت باريس في طريق عودتي من الولايات المتحدة أحببت أن أزور هاتين الحديقتين، وأحتفظ بشيء منهما للذكرى. أنا إنسان رومانسي بالفعل. ووجدت سعادتي في العالم الغربي، في آدابهم، وموسيقاهم، وفنونهم، إلى جانب تقدمهم العلمي الهائل».

«لكنك تستطيع أن تخلق عالمك الذي تريده هنا».

«نعم، هذا في الحد الأدنى، إذا تغلبت نزعتك الوطنية على النزعة الكوزموبوليتية. كما كان الحال معي. لكنني ضحيت بحياة أفضل وأسعد من حياتنا هنا».

«هل عدت لكي تساهم في بناء الوطن، أو تحريره إذا شيءنا الدقة؟»

قلت له: «نعم، مع إنني لست ممن يحبون العمل السياسي».

«أنا لاأفهمك»

«أنت على حق. لكنني أنتمي إلى بيركلي أكثر من بغداد».

«هل وجدت أو تجد صديقاً مثلي في بيركلي؟»

«لا، لكنني أتحدث عن الحياة».

«ماذا تقصد؟»

فقلت: أنا عشت في مدينتين في فترة من حياتي، أعتبرهما من أفضل مدن العالم، هما بيروت، وبيركلي. هما متماثلتان في مواصفاتهما الجغرافية، لكن بيركلي ألطف كثيراً في الصيف. وقد وجدت سعادتي في بيروت والمدن اللبنانية التي زرتها كلها. لكنني سأفتقد بيركلي بلوعة. (أنا الآن أكتب هذه الصفحات وأنا أبكي، لأنني لم أعُد إلى أحب مدينة إلي، و لم أزرها مرة أخرى. ودمعت عيناي حين قالت لي قريبة لي: إنها كانت في زيارة كاليفورنيا هي وأخوها، وزارا بيركلي، ثم قال لها أخوها: هذا كان بيت علي الشوك).

آه، يا إلهي. كيف يكون الحب. وكيف يكون الحزن حين تفتقد الشيء الذي تحبه؟. بيركلي كانت أحب إلي من كل النساء اللواتي أحببتهن.

قلت لصديقي نوري: في السنة الأخيرة من إقامتي في بيركلي كنت أجوب شوارعها في الليل في صحبة البروفسور الهندي الزائر كاليانبور، وأحياناً نفترق في نحو الساعة الرابعة صباحاً. علاقتي معه كانت علاقة تلميذ بأستاذ، ثم سرعان ما أصبحنا صديقين. وهو الذي أهداني كتاب (الدون الهادئ) لميخائيل شولوخوف. وأحببت أن آخذ درساً(في الرياضيات) على يديه في السنة الأخيرة. وترك لي أن أقرأه وحدي. وعندما حان موعد الامتحان، اتصل بي، وأعفاني من الامتحان، وأعطاني B. كان ألمع بروفسور في جامعة بيركلي في علم الاحتمالات الرياضية. وكانت الجامعة توفده ليمثلها في المؤتمرات.

وعلمت أنه توفي بعد بضع سنوات. لكنني لا أذكر أنه كان يسعل. كان شيوعياً؛ وكان عمه (أو خاله) الشخص الثاني في الحزب الشيوعي الهندي. وكان من بين مودعيّ في محطة القطار عندما غادرت بيركلي.

«أنت تجعلني أشعر بالغيرة منه».

«لا، مطلقاً، أنا وهو لم نكن نتبادل الحديث عن مشاعرنا».

«وما هي الأشياء العزيزة الأخرى التي تفتقدها في بيركلي؟»

قلت له: كل ألوان السعادة. وكل الفرص التي تُتاح في واحدة من أرقى المدن الجامعية في العالم. في اعتقادي أن السنوات الثلاث التي عشتها في بيركلي قد تكون أجمل سنوات عمري. بالمناسبة أن أولى محاولاتي في الكتابة كانت في بيركلي.

«أنت تكتب؟كنت أتصورك كذلك. سوف نعود إلى موضوع الكتابة، فأنا أريد الآن أن تشبع فضولي عن هذه المدينة الجميلة التي صنعتك. أنت لا يبدو عليك أنك عراقي».

نعم، أنا لم أذهب إلى أبعد من كرادة مريم، وباب المعظم، أو ربما الإعدادية المركزية، منذ ولادتي حتى عام ١٩٤٧. ثم بعد ذلك شاهدت نصف العالم، النصف المهم، وحططت رحلي على قيد خطوات من المحيط الهادي. كانت رحلة طويلة جداً، عبر البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي، ثم عبر الأرض الأمريكية كلها. في كل البحر المتوسط، من بيروت إلى لشبونة لم أقرأ سطراً واحداً، لأن دوار البحر لم يرحمني. لكن المحيط الأطلسي كان أرحم، فاستطعت أن أتناول طعام الدرجة الثانية الفاخر، بعد أن كنت أتبلغ بالكليجة التي

زودتني بها أمي، وأنا طريح الفراش. وقرأت كتاب (كل شيء هادئ في الجبهة الغربية)، وكتاب (عناقيد الغضب). وكانت الأيام الأربعة التي أمضيتها في القطار، من نيويورك إلى بيركلي، رحلة إلى اللانهاية. إلى أين أنا ذاهب؟ لقد أرسلوني من بغداد إلى الجانب الغربي من الولايات المتحدة لدراسة الهندسة المعمارية، بعد أن كفلني أبي بمبلغ خمسة آلاف دينار(في حساب تلك الأيام)، لأسددها إذا فشلت في دراستي.

سأتجاوز سنة الصعوبات التي واجهتها في دراسة الهندسة، التي لم أخلق لها ولأي شيء عملي، وأتوقف فقط عند درس الرسم الذي كنا نرسم فيه امرأة عارية، ذكرني بالقصص التي كنت أقرأها عن الرسامين وموديلاتهم العارية. ولدى انتقالي من الهندسة إلى الرياضيات وجدت طعماً لحياتي في بيركلي.

ضحكت على طبيعة النظام الرأسمالي في أمريكا حين قرأت كتابة بالبرونز على بوابة الحرم الجامعي تقول: «هذه ملكية أعضاء مجلس جامعة بيركلي في كاليفورنيا». لكنني ذهلت حين قرأت إعلاناً– منذ اليوم الأول لوصولي– عن محاضرة يلقيها توماس مان عن روايته(دكتور فاوستوس) في قاعة الجمنازيوم. قلت: أية فرص ستتاح لي؟

«من هو توماس مان؟» سألني نوري.

«لعله أبرز كاتب في كل تأريخ ألمانيا».

كنت سأحضر محاضرته وأنا لم أقرأ له شيئاً بعد. كان عمري عشرين عاماً. وقلت: كم سيتعين عليَّ أن أقرأ قبل أن أكتب. ومن المخجل أنني لم أقرأ شيئاً لتوماس مان إلّا بعد ذلك بعدة سنوات. وكان أول شيء قرأته له (موت في البندقية). أشعرتني أنني لن أستطيع على الإطلاق أن

أكتب شيئاً يرقى إلى مستواها وكانت لغتها مستحيلة. واتضح لي فيما بعد أن (موت في البندقية)، و(دكتور فاوستوس)، هما من أكثر كتابات مان وعورة. وهنا أذكر أن توماس مان ذكرني بأبي العلاء المعري بشكل ما.

لكن الأدب لم يكن صيحة تلك الأيام، الفيزياء كانت صيحة تلك الأيام. ربما كنت رجل علم في المقام الأول، أما الأدب فكان هواية مع أنه سيتجذر عندي فيما بعد. لكن الفيزياء ستشدني إليها هواية وفلسفة. فأنا بدأت أسمع وأقرأ عن ميكانيك الكم. وكانت جامعة بيركلي ملتقى لفيزيائيين مهمين جداً، مثل روبرت اوبنهايمر مهندس مشروع القنبلة الذرية. وأمامنا، على التل، السايكلترون الذي كان أول سايكلترون صنع. وأنا شاهدت العالم Serber الذي قال لطلابه- قبلي بعامين-: إنه شاهد الله في الحلم (لعله يقصد المسيح) وقال له الله: «ألا تذكرني؟ لقد تلقيت على يديك درساً في ميكانيك الكم!».

هذه هي أجواء بيركلي. وبالمناسبة كان أوبنهايمر يسارياً ومحسوباً على الشيوعيين. وهوقال للرئيس ترومان بعد إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي: «يداي ملطختان بالدم». فقال ترومان لوزير خارجيته أتشيسون: «لا أريد أن أرى ابن القحبة ذاك في هذه الدائرة مرة أخرى».

لكن ميكانيك الكم كان مالئ الدنيا وشاغلها، والثرثرة حول مبدأ اللاحتمية. وهذا جعلني أرتضي لنفسي عدم تخصصي في الفيزياء. وأعترف بأن الفيزياء أقلقت بالي يومذاك، لأنني كنت أؤمن بمبدأ الحتمية. فأين هو الخلل؟ هل هو في الماركسية، إذا كانت الفيزياء منيعة على الخطأ؟ لكنني وجدت ملاذي في الرياضيات والموسيقى.

وتعاميت عن فلسفة ميكانيك الكم ولكنني لم أستطع فيما بعد الوقوف علـى التل بالنسبة للأفكار المثالية التي كانت تبشر بها الفيزياء، فدرست ميكانيك الكم عن كثب، وبصرتني بالحقائق أيضاً التجارب التي أثبتت خطـأ مقولات هايزنـبرغ ونيلز بور حول مبـدأ اللاحتمية، وما يسمى بالمبدأ التكميلي، الذي يضرب على الوتر نفسه.

مع ذاك ستبقى الفيزياء شاغلة بالي إلى هذا اليوم، لأن المؤسسة العلمية الرسمية تبقى تصر على تبني المواقف والنظريات المثالية. وأنا أقول بهذا الصدد إن بيركلي عززت عندي المزاجية العلمية أكثر من النزعة الأدبية، إذا أخذنـا بنظـر الاعتبار دراستـي الرياضيات. لكـن بيركلي غرست عندي أيضاً الولع الهائل بالموسيقى. فأنا أصبحت كائناً موسيقياً بالرغم مـن أننـي لا أعزف على أية آلـة. وهذا الولع جمع بينـي وبين الدكتور نوري السعدي.

هل إبتعدت عن الموضوع في استطرادي السابق. فأنا قلت لصديقي الدكتـور نوري إن بيركلـي كانت مدينة طوباويـة في طبيعة الحياة التي كانـت تحياها المدينـة. إنها مدينة بلا آثام أو منغصـات. فنحن كنا نضع أجـور الحليب مـع القناني الفارغة أمـام باب الدار في الليـل ليأتي بائع الحليـب ويستلمهـا في الصباح دون أن يطـرأ على بالـه أو بالنا أن يداً أخرى ستمتد إليها.

قال لي نوري: «غرامك الهائل بمدينة بيركلي ينقصه شيء، أو يضعفه. هو أنني لم أجدك في صحبة امرأة من بيركلي. ألم تقع في حب فتاة؟»

«وقعت وخاب ظني».

«وتركت المحاولة؟»

قلت له: «أنا خجول؛ وأنا لم أستطع أن أتعلم الرقص».

«صراحتــك تعجبني. لكن ألا تــرى أن المدينة يمكن أن تفقد روعتها بدون امرأة، أو بدون حب».

«بقيت أحب التي خذلتني، وأحب بيركلي من أجلها».

«هذا يجعلني أرثي لحالك وكيف كنت تدير حالك؟»

«هذا موضوع محرج».

«حدثني بلا حرج».

«ذهبت ثلاث مرات إلى محلات بنات اللذة».

«ثلاث مرات فقط؟»

«نعم».

«وماذا تفعل الآن، تعاشر يدك؟»

«نعم».

ثــم سألني إن كنت شاهــدت امرأة سوداء راجعتــه اليوم في العيادة. كنــت أنا في انتظــاره في العيادة إلى أن يفرغ مــن عمله. لاحظت تلك المــرأة السمــراء بعباءتها كانــت مليحة الوجه. قال لي انهــا كانت تقوم بأعمــال منزلية عندهم لقــاء أعطيات مالية وعينية. وهــي نظيفة، ولها جسد جميل. فإذا استلطفتها، فسيحدثها عني. وهي لاترفض له شيئاً.

# الفصل الثاني

اتصل بي نوري السعدي، وأخبرني بأن (ط) ستكون في العيادة ليعرفها بي. والتمس أن أحمل له نماذج مما أكتب. كان قد علم أنني أكتب خواطر لنفسي فقط، واستبد به الفضول لقراءة سوانحي. وأنا كنت الآن قد كتبت عـدداً من هذه السوانح. كتبتها بغير تحفظ، كنوع من الكتابة «العارية»أو «الإباحية». والحق أنني كنت أتردد في كتابتها. لكنني تخليت عن ترددي بعد أن أدركت أن أحداً لن يقرأها. وعندما أخبرت نوري السعدي بطبيعة هذه الكتابات استبد به الفضول لقراءتها. و لم أمانع.

كانـت (ط) موجـودة معـه في غرفة العيـادة عندما أخـبر الفرّاش بأن أتفضل بالدخول. وكنت أنا أحمل أوراقي في ملف.

قـال لهـا نوري السعـدي: «هذا (الأستـاذ علي)، لا مثيـل له بين كل العراقيين. ولو كنت تقرئين لاستأذنت منه بأن يتيح لك قراءة أوراقه، التي أنتظرها بلهفة».

قالت: «أنا سعيدة في كل الأحوال بالتعرف إليه».

وأصبحت (ط) من معارفي المفضلات.

التواضع يمنعني من أن أنقل انطباع نوري السعدي عن أوراقي، سوى أنني سأعترف بأنه ذهل بها. وأكدت له بأنني سأكتب له وحده، ما دام هو الوحيد الذي يتفهم هذه الاعترافات. كنت لا أعرف أن أكتب للآخرين. فبقي هو قارئي الوحيد، إلى أن حدث ما لم يدر في الحسبان.

وسأتطرق الآن إلى ذكر صديق عزيز آخر تم التعارف بيني وبينه منذ أيام الدراسة في جامعة بيروت الأمريكية. وسأحجم عن ذكر اسمه تجنباً للحساسيات. هذا الصديق أصبح ثالثنا. وأصبح مثلي يزور بيت نوري السعدي. وتعرف إلى أخواته، مثلما تعرفت أنا إليهن. ولست أدري كيف سبقني إلى خطبة أخته الصغرى، التي سأطلق عليها اسم «إفروديت»؟. ربما لأنني لم أكن أفكر في الزواج يومئذ. فماذا فعل صديقنا نوري السعدي؟ أخبرني برغبة صديقنا المشترك في طلب يد أخته «إفروديت». ثم قال لي: «لكنني أتمنى أن تكون أنت زوجها، فما رأيك؟».

عند ذاك شعرت بحب فوري وطاغ لإفروديت. وأنا سميتها إفروديت لأنها تشبه الفتاة في لوحة بوتشيللي (إفروديت تخرج من القوقعة). وعلقت نسخة مصورة عن اللوحة على أحد جدران غرفتي.

قال لي نوري السعدي: «أنا لا أحب أن أرفض طلب صديقنا. فهل تستطيع أنت أن تخبره بأنك تود أنت أن تطلب يدها؟».

قلت: «نعم، رغم حرجي».

وعندما فاتحت صديقنا المشترك بأنني كنت متعلقاً بإفروديت بصمت، ويسعدني أن تتنازل أنت لي عن طلب يدها. قال لي على الفور: «لك ما تريد». و لم أنس هذه البادرة النبيلة منه. وصرت أكتب إلى الصديق نوري السعدي خواطر كلها غزل بأخته. وكان هذا شيئاً عادياً بيننا. وإفروديت كانت الآن قد أنهت الدراسة الثانوية بتفوق. ورشحت لدراسة الرياضيات في بريطانيا على نفقة الدولة. وأنا رحت أفكر في أن أقدم لدراسة الدكتوراه في الأدب العربي في بريطانيا إذا تم اقتراني بها. ثم فاتح الصديق نوري السعدي أمه وأباه برغبتي في طلب يد «إفروديت» وعندما شاع الخبر في العائلة، ثارت ثائرة شقيقتها الأكبر منها لأنني تجاوزتها. والظاهر أنها كانت على علم بموضع أوراقي التي كنت أكتبها إلى نوري السعدي فأعطتها لأمها لكي تعطيها إلى أبيها، ليرى كيف أتغزل أنا بأختها الصغرى أمام أخيها ويتقبل ذلك.

وبعد أن قرأ أبوها أوراقي، انهار كل شيء، بعد أن كنت في أمل أن يتم قراني بإفروديت، وأفكر في مرافقتها إلى بريطانيا لدراسة الأدب العربي، لمرحلة الدكتوراه. فتصدعت أحلامي وانتكست آمالي، ولا أذكر كيف تماسكت. حدث هذا في ١٩٥٨. وربما كان لتداخل الأحداث يومذاك دخل في تماسكي. ففي تلك الأيام صدرت مجلة (المثقف) التي كنت أحد أهم مؤسسيها. وحدثت ثورة تموز. وأنيط بي بمركز مهم في مديرية معارف لواء بغداد. هذه الأحداث شغلتني وانقذتني من الانهيار. لكن الجرح لم يندمل. وقررت الامتناع عن الزواج بعد أن خسرت إفروديت.

هل وجدت ملاذي في الأدب؟ وماذا كان يضمره لي مستقبلي

الأدبـي؟ كان ممكنـاً أن أحقق حلمي في كتابة عمـل روائي أو قصصي على غرار (الحب الأول)، في إطـار القصة التي وجدتني متورطاً فيها. لكنني لم أستطع أن أكتب فضيحتي. وماذا كان مصير أوراقي؟

انتهت الخواطر التي كنت أكتبها للصديق نوري السعدي وأصبحت كاتبـاً أكتب للقراء، بمعنى الآخرين. وسأكتشف أن طريق الكتابة طويل وبطـيء. فأنا مستعد للتنكر لكل ما كتبتـه في الخمسينات والستينات. بمـا في ذلك كل مـا نشرته في الصحـف وفي مجلة المثقف. هـذا مع أن مجلـة المثقف نالت حظوة بين الكتاب والمثقفـين العراقيين. لكن ما هي قيمتهـا الآن؟. حقاً إن نتاجنا الثقـافي كان متواضعاً في تلك السنوات. وقـد استثني الشعر العراقي الذي قدم إنجازاً مهماً في الشكل. لكنني لا أعتز به كثيراً.

أنـا الآن نشـرت أكثر من عشريـن كتاباً، كلها كانـت بعد عام ٧٠، باستثنـاء كتـاب (الدون الهادئ) الـذي أسهمـت في ترجمته مع أمجد حسـين، وغانم حمدون. نشـر هذا الكتاب في الستينـات، وأظنه طبع ثلاث طبعات، وحقق رواجاً بين القراء. أنا لا يحق لي أن أعتز بدوري، لأنني لم أكـن أفضل من أمجد وغانم في ترجمتي، ولأن أمجد قام بترجمة جزأيـن من الكتـاب. أما الجزآن الآخـران فقد قام كل مـن غانم ومني بترجمة جزء منهما. وكانت مراجعتنا الترجمة من أحب الأيام التي كنا نلتقي فيها في منزل أمجد حسين، على سطح داره في أيام الصيف السابق لانقلاب ١٩٦٣ المريع.

وربمـا كانت أيام العمل في مجلة (المثقف) شيئاً مسلياً بالنسبة لي، لأن المجلـة كانـت في إطار ما «مجلتـي». وهذا الإحساس أعـاد إليّ ذكرى كتابة خواطري، مع فارق الحرية.

كان هنـاك شعـور بالطمأنينة المؤقتة طوال حكـم عبد الكريم قاسم، لأن الصراع بين اليسـار واليمين بدأ منذ اليوم الأول للثورة (أنا أسميها ثورة بتحفظ رغم أن جورج بطاطو اعتبرها ثورة). من المعلوم أن تنظيم الضباط هو الذي قام بالثورة. لكن هذه الثورة حظيت قبل قيامها بتأييد ودعم من أحـزاب الجبهة الوطنية المحظورة، وهـي الحزب الشيوعي، والحـزب الوطنـي الديمقراطي، وحـزب الاستقـلال القومي، وحزب البعـث. أما قائد الثورة عبـد الكريم قاسم فلم يكن ذا اتجاه معين، سوى أنـه لم يكن ذا نزعـة «قومية»، وبالتـالي لم يكن مـن المؤمنين بحكومة الوحدة مع عبد الناصر. وهنـا انقسم الضباط فئتين، وكذلك الشارع، فئـة قومية تؤمن بالوحدة (ربمـا إيماناً ديماغوجياً، لأنهـا لم تنفذ الشعار عندمـا وصلت فيما بعد إلى الحكـم)، وفئة لا تريد الانضمام إلى وحدة عبـد الناصر بعـد أن لمست فشلها بين مصر وسوريـا. أنا أدخل في هذه التفاصيل لأنها دخلـت في شرايين كل عراقي. وجرت محاولات قومية لقلـب نظام الحكم، كانـت أخطرها محاولة عبد الوهـاب الشواف في الموصل، التي حظيـت بدعم من حكم عبد الناصر، لكنها قمعت وقتل الشـواف. وهنا شهد الشـارع انفجـاراً يسارياً هائـلاً أورث الرعب في نفسـ عبد الكـريم قاسم، والـدول الرأسمالية، وربمـا حتى الاتحاد السوفييتي الذي لم يكن يريد ثورة «شيوعية» قد تحرجه.

منـذ ذلك الحـين شعرت أنا في خلفيـة أعماقـي أن الشيوعية العالمية حلـم لن يتحقق. لقد حدثت ثـورة في كوبا، لكنها كانت خارج إرادة السوفييت، رغـم أنهم ناصروها. وكان من الممكن، بمزيد من الثقة، أن تتحقق ثـورة إشتراكية في العراق منذ النصـف الأول من عام ١٩٥٩. لكنهـا لم تحدث، ربما لأن السوفييت لم يكونـوا على استعداد للدخول

في مــأزق مع الرأسماليــة في منطقة حساسة جــداً. وإلا لماذا لم تتحقق الاشتراكيــة في العراق، مع أنهــا أيسر من شرب قدح ماء كما يقول المثل العراقي؟

بعــد فشل محاولة الشواف أبعد عبد الكريم قاسم العناصر القومية عن المراكــز الحساســة في الدولة. لكنه لم يتح للشيوعيــين أن يحلوا محلهم، باستثنــاء الدكتــورة نزيهــة الدليمــي التــي تم تعيينها وزيــرة للبلديات. وتم تعيــين ضابط ديمقراطــي النزعة، هو محيي الدين عبــد الحميد وزيراً للمعــارف، وهذا الوزيــر عين موظفين ديمقراطيــين. وأنا كنت من بين مــن أشغلوا مراكز حساســة في وزارة المعارف. لكن هذا العرس لم يدم طويــلاً. فقد ارتعب قاسم من الطوفان اليساري، وقلب لليساريين ظهر المجن. وأنا كنت من بين من تم التنكيل بهم. نقلت من مركزي كمعاون مهــم لمدير تربية لواء بغداد، إلى مدرس في ثانوية الديوانية، تحت رحمة حاكــم عسكري ســيء الصيــت، إلّا أنني رفضت الالتحــاق بوظيفتي الجديــدة، واعتــبرت مستقيلاً من المهنــة. وتفرغت للعمــل السياسي، والكتابة الأدبية للصحافة والدوريات.

وذات يوم، بينما كنت في جلسة غير رسمية مع أدباء زملاء، كان من بينهــم الدكتور علي جواد الطاهر، في صالة اتحاد الأدباء، وقد فاتني أن أشــير إلى أن مقــر اتحاد الأدباء العراقيين، كان مقــرّ حلف بغداد. أقول: بينما كنت في صحبة عدد من الزملاء، دخل الصالة رجل بلباس مدني، وتوجــه مباشــرة إلى مجموعتنا، وقال: «مــن هو الأستاذ علــي الشوك، رجاءً؟».

فقلت: «أنا».

قـال: «ممكن أن تتفضل أستاذ للكلام مـع السيد المعاون لمدة خمس دقائق».

فرفضت الإستجابة.

إلّا أن الدكتـور علي جواد الطاهر تدخـل واقترح أن أذهب مع هذا القادم الثقيل. فأدركت أنه ليس من صالحي ان أصر على عدم الاستجابة، مـا دام أحد أعضاء الهيئة الإدارية ينصحني بذلك، وبالتالي لم يكن على استعـداد لنصرتي. واستغرقت هذه الدقائق الخمسـ مع المعاون واحداً وأربعين يوماً أمضيتها في المعتقلات.

لكن القصة كانت أبعد مـن أن تدخل في حسباني. فأنا الآن أتعرض إلى أكبر إساءة ومهانة في حياتي. وأنا أحمّل عبد الكريم قاسم مسؤولية هـذه الإهانة التـي ارتكبت في حقي. لقـد اقتادوني إلى دائـرة الأمن. وتركوني في معتقلـه مع صبيان. وفي صباح اليوم التالي نشر الخبر التالي بالحبر الأحمر وبالخط الغليظ في واحدة من الصحف المأجورة، العنوان الآتي، علي الشـوك يسرق أسئلة الامتحانات الوزاريـة، ويبيع السؤال الواحد بمبلغ خمسة دنانير في ساحة التحرير.

لكـن هـذا الخـبر المختلق لم يفـبرك بشيء مـن المصداقيـة. إذ كيف يجـرؤ أحد علـى بيع أسئلة محاطة بسرية تامـة في أشهر ساحة في البلد؟ وماذا يعني هـذا؟ ألا يعني انحطاط مستوى مديريـة الأمن في العراق، وانحطاط مستوى المسـؤول عنها، وانحطاط أكبر مسؤول في الدولة. ولماذا أنـا بالذات؟ ناشرو الخبر لم تهمهم درجـة معقوليته. كان يهمهم تلطيخ سمعتي بالأساس. وقد أفلحوا في ذلك.

وهم كانـوا يعلمون من سرق الأسئلة. و لم يكن يهمهم محاسبتهم، أو

لعلهـم حاسبوهم بعد أن ضربوا ضربتهم معي. وهم ظنوا أنهم أحرقوني في ضربتهـم هـذه. ولعلهـم نجحـوا في مسعاهم، لاسيمـا بين كارهي اليسـار. وأمضيت ٤١ يومـاً أتنقل بين المعتقـلات، كان أحدها سجن الناصريـة. لكن البلد لم يكن يخلو من فاعلـي الخير. علمت أن والدتي ذهبـت إلى منزل آمر القـوة الجوية جلال الأوقاتـي، والتمست منه أن يتدخل لإطلاق سراحي. ففعل، لأنه كان يعرفني (وهو كان شيوعياً).

مـع ذلـك تشكلت لجنة من كبـار موظفي وزارة المعـارف للتحقيق معـي. واقتادني شرطي مكبل اليديـن إلى داخل الوزارة، التي كنت أحد أنبـل موظفيها. وشاهدني كل الموظفين أدخل الوزارة بالأصفاد. لكنني كنت أصرخ في وجوه لجنة التحقيق، وهم يحاولون تهدئتي.

عندما أبعد عبد الكريم قاسـم العسكريين ورجال الشرطة اليساريين مـن المراكز الحساسـة في الدولة، واستبدلهم بعناصـر مشكوك بولائها لـه، فقد القاعدة التـي تسانده وتردع المؤامرات التـي تحاك ضده. و لم يكـن عبد الكريم قاسم وحـده معرضاً إلى خطر التآمـر عليه، بل وجد اليسار نفسه في مـأزق أيضاً، لأنه أصبح هو وعبد الكريم قاسم في سلة واحدة في مهب رياح التآمر. وناقش الرفاق مصير الجمهورية أو الثورة أو الوضـع القائم، المترنح. هل يستطيع الحـزب الدفاع عن النظام أمام المخططات المعدة للإطاحة به؟

لسـوء الحظ إن الحـزب قدم تقريـراً متفائلاً لقواه والقـوى الداعمة للدولـة. ومـرة أخرى طرحـت فكرة القيـام بحركة لاستـلام السلطة خوف ضياع كل شيء. لكن التغيير رفض.

وكان انقـلاب ١٩٦٣، أكبر مأسـاة في تأريخ العراق الحديث. كان

مجزرة رهيبة للشيوعيين، ومحنة لكل الديمقراطيين. أنا أعتقلت وعذبت في (قصر النهاية)، و لم أنج من الموت تحت التعذيب البشع إلّا بعد أن قدمت «اعترافي». وقد قتل تحت التعذيب الوحشي (بتحطيم رأسه) عبد الرحيم شريف منظم لجنتنا الحزبية المسؤولة عن العمل الفكري في الحزب. وأخبرني رفيق أن رفيقنا عدنان البراك، عضو لجنتنا، والصحافي اللامع، دفن وهو حي (و لم أتيقن من هذا الخبر من مصدر آخر).

أمضيت عامين في الاعتقال، تسعة أشهر تحت حكم البعث؛ والبقية تحت حكم عبد السلام عارف. وكان حكم الأخوين عارف أكثر كلاسيكية في التعامل مع الشيوعيين. كان يطلب من المعتقل أو السجين لإطلاق سراحه تقديم براءة من الشيوعية والحزب الشيوعي، وغالباً ما تكون تحت شروط مهينة. أذكر أن أحد زملائي منذ أيام أميركا طلب منه الإعلان عن براءته من الشيوعية في المحكمة. وعندما أعلن المسكين (وهو دكتور في علم الأحياء)، صرخ فيه القاضي العسكري: «بصوت أعلى، حقير». فلم يكن من المسكين الا أن يهتف بصوت أعلى، بعد أن تلقى ضربات وركلات من الجندي المرافق له.

وكان الصديق نوري السعدي يحاول أن يتحين فرصة لإطلاق سراحي، إلى أن اهتدى إلى محام على معرفة بالقاضي (م. د. ع). وهو من حملة شهادة الماستر في القانون من أميركا، وصديق لأحد القضاة الذين أحيلت أليهم قضيتي للنظر فيها(كان القاضيان الآخران عسكريين). واستطاع (م. د. ع) أن يحصل على كلام من صديقه المسؤول عن قضيتي بأن لا أحرج بالطلب مني بتقديم براءة. وقد التزم بذلك. وأطلق سراحي بعد أن نصحني المحامي بأن أمسك عن الكلام إذا حاول أحد الحكام توجيه تقريع لي. وبالفعل لزمت الصمت عندما قال لي أحد القضاة: «اعمل بشرف».

فاتنـي أن أذكر أن محاولة لإطلاق سراحي تمت قبل ذلك التأريخ بعام عندما كنت معتقلاً في ما يسمى بمعتقل خلف السدة، الذي كانت ردهاته مقراً لأفراد شرطة النجدة. كان الصديق فؤاد التكرلي قد عيّن قاضياً للتحقيق في قضايا معتقلي خلف السدة، وذلك بعد انقلاب عبد السلام محمد عارف على البعثيين. فأرسل في طلبي لمواجهته، وقال لي: أنه سيحشر اسمي بين عشرات الأسماء الأخرى التي رفعها إلى الحاكم العسكري لإطلاق سراحها. وعندما أرسلنا خبراً إلى عائلتي بالاستعداد لاستقبالي. كان فؤاد قد اتصل بوالدتي عن طريق تلفون أحد أقاربي لأن تلفوني الخاص صودر. خرجت أمي من هذا البيت متهللة الأسارير. وحين شاهدتها ابنة أختها، سألتها عن الخبر، فأخبرتها أمي بوشوك إطلاق سراحي. فلم يكن من إبنة أختها إلّا أن هرعت إلى بيتها لتخبر زوجها بأن يعرقل إطلاق سراحي. واتصل زوجها، وهو ابن عمي، بدائرة الحاكم العسكري، وأخبرهم بأنهم سمعوا بخبر إطلاق سراح فلان الوشيك، وهم لايحبذون ذلك، لأن (فلاناً) عنصر خطر على الدولة. فأجهض إطلاق سراحي، ووجه لوم للقاضي فؤاد التكرلي. للإيضاح أن ابنة خالتي هذه كانت هي السبب في اعتقالي، لأنها أخبرت أخويها (من أم أخرى) باختفائي عندهم. فألقي القبض عليَّ، واقتادوني إلى (قصر النهاية) فوراً. كلا، لم يرسلوني إلى قصر النهاية فوراً، بل إلى مقر نقابة المعلمين، لأنني كنت معروفاً في إطار علاقتي بهذه المهنة، وفي عملي في مديرية معارف لواء بغداد، وربما أهم من ذلك التهمة التي ألصقت بي حول سرقة أسئلة الامتحان الوزاري. وفي نقابة المعلمين كان هناك وبش فرح جداً بـ «ثورتهم». يتلقى النداءات من تلفون، ويتصل هو الآخر، وفي إحدى مكالماته قال: «معي الآن جزار، سأرسله إليكم».

لمـاذا لم أقتل نفسي قبـل الآن؟. كان يتكلم مع (قصـر النهاية). لماذا لم أحمـل معي موسى حلاقـة؟ كلا، لم أفكر في تلك الساعة في موسى الحلاقة. هذه الفكرة واتتني في قصر النهاية.

«هل تحب أن تحدثني عن همومك؟»قال لي صديقي نوري السعدي عندما إصطحبني في سيارته الموسكوفتش من المعتقل إلى البيت.

«لا، أريد أن أستمع إلى مقطوعة موسيقية».

«ما هي؟»

«ترومراي لشومان».

«لماذا هذه بالذات؟».

«لأنهـا كانت تترجـع في رأسي دائماً، وتذكرني بوقفتـي أمام نافذة الطابق الثالـث في بناية Bliss Hall في جامعة بيروت الأمريكية، وكنت أترنم بها هناك وأنا أتطلع إلى البحر..».

«سنستمـع إليهـا. لكننـي أريد أن تحدثنـي عن عدنـان البراك. هل شاهدته في قصر النهاية؟».

«لا، لقد تمت تصفيته قبل وصولي بأسبوع».

«مع ذلك، أريد أن تحدثني عنه، لأنك تعرفه جيداً».

«سأحدثك عنه».

أودّ أن أشـير إلى أن عدنـان الـبراك كان زوج (س) أخـت نـوري السعـدي. وهنا سينـكأ نوري السعدي جرحاً قديمـاً عندي يعيدني إلى

أيـام غرامي بأختها «إفروديت»، كما ذكرت ذلك من قبل. ولأن (س) بقيـت تحقد علـيّ طيلة حياتها، حتـى بعد أحداث قصتنـا هذه. لكنها فاجأتنـي ذات يـوم بدخولهـا إليّ في غرفتـي في مديريـة المعارف، في صحبـة عدنان البراك، تلتمس مني أن أمنحها إجازة في مناسبة زواجها مـن عدنان. كانـت هي معلمـة في مدرسة ابتدائيـة. وكانت مثل هذه المعاملات تتطلب موافقتي.

في بيتنـا عانقـت أمي، وأبـي، وإخوتـي، وأخواتـي. وكانت أمي قـد أعدت مائدة غـداء، دعي إليها نـوري السعـدي. وعندما دخلت غرفتي التي كانت ما تـزال فيها صورة (إفروديت خارجة من القوقعة) لبوتيشيلي، فوجئت بوجود بيانو في غرفتي. أيقنت على الفور أنه هدية من نـوري السعدي في مناسبة إطلاق سراحـي. دمعت عيناي، وقلت لصديقي: «شكراً».

هـذه العلاقة بينـي وبين نوري السعدي تجعلنـي أنسى كل همومي، وكل المآسي التي تعرضت وتعرضنا لها. وبالفعل أصبحت أكتفي بهذه الصداقة في حياتي. وأنا أعلم كم أنا عزيز عليه.

عندمـا انفردنـا وحدنـا حدثتـه عن عدنـان البراك. لم يكـن كتاب صالـح دكلة قد صدر بعد. في هذا الكتاب ذكر صالح أن سبب تصفية عدنـان البراك يعود إلى شهـادة في حقه ذكرها «رفيـق» منهار. عندما سـأل المسؤولـون البعثيون في (قصر النهاية)، هـذا «الرفيق» المنهار من أكفـأ الشيوعيين، بمعنى أخطرهم في نظرهم، ذكر «الرفيق» المنهار اسم عدنان البراك في المقدمة. فقرر المسؤولون البعثيون تصفيته.

أنـا أعتقد أن أقدر الكتاب اليساريين في الكتابة كانوا عدنان البراك،

وعامر عبد اللّه، وعبد الجبار وهبي، وربما سلام عادل، وسأذكر عزيز الحاج الذي سقط من عيني بسبب تهافته؛ سأذكر أيضاً فخري كريم الذي برزت موهبته في الكتابة بعد ذلك الجيل. ولعلي في حاجة إلى مشورة فخري في ذكر أسماء لامعة أخرى فاتني ذكرها. لكنني أذكر أن عدنان البراك كان روح جريدة (طريق الشعب)، مع أنني لم أسمع منه إشارة إلى إسهاماته الكتابية.

كان نوري السعدي يريد أن يعرف كل شيء عن عدنان البراك، ليس لأنه زوج أخته، بل إيماناً منه بأنه أحد أفضل وأنبل وألمع الشيوعيين الذين خسرتهم الحركة اليسارية. وهو، نوري السعدي، كان يعتقد أن أخته لا تستحق رجلاً مثل عدنان. لكن كل أو معظم حالات الزواج تفتقر إلى بُعد النظر، بما في ذلك تجربة زواجه هو، نوري السعدي.

لكن ظروف تصفية عدنان يكتنفها الغموض. لذلك أحب نوري أن يبحث الموضوع معي، بعيداً عن المزايدات والميلودراما. في الليل أحب أن نسهر سوية عنده، لشرب الويسكي، والحديث عن عدنان. وكنت أنا بي عطش للموسيقى بعد أن دام انقطاعي عنها سنتين. فطلبت من نوري أن يسمعنا شيئاً مما لديه من إسطوانات. أسمعنا (ليليات) لشوبان. قال لي: إنه لم يستمع، أو لم يكد يستمع، إلى الموسيقى في فترة غيابي. وهو يشعر أن كل شيء يكون له طعم بحضوري. لكنه يعلم أيضاً أننا الآن معطوبون. فهل نستطيع أن نقتنص هنيهات من واقعنا لننسى الجرح؟

قال لي: «هل ستنتمي إلى البيانو؟ أنا فكرت في أن أوفر لك آلة لتجد فيها ملاذاً لك (وضحك) على أن لا تشغلك عني!»

ضحكـــت. هو أجرأ مني في الإعراب عن مشاعره. وفي واقع الحال إننـــي وجدت في هديته أعظـــم سلوان لي، ومحفزاً علــى الانتماء الكلي إلى الموسيقــى، الآن حيث تكــون نهاراتي بلا عمل. لكن ما أحب هذه الحرية النسبية، بعد إطلاق سراحي.

سألني: «هل ستكتب؟»

«لا أجد حافــزاً الآن. سأمضي كل وقتي مع البيانــو، مع أنني سأبدأ من الصفر».

«متى سأستطيع أن أسمع خربشاتك المقبولة؟»

«لا أستطيع أن أعدك».

«أخبرت سميرة عن إطلاق سراحك، وأحبت أن تراك».

«أنا حاضر».

سميرة هي مراجعة، أصبحت محبــة. وكان يتيح لها أن تقرأ أوراقي، وذهلـــت لصراحتـــي المطلقة في التعبير عن مشاعـــري. وصارت تترقب المزيـــد من تلك الأوراق. وهي أجمـــل عراقية وقع بصري عليها. كانت تشبـــه آنا كارانينا كما وصفها تولستوي، لكنهـــا أقصر منها. وقلت لها ذلـــك، فتمنت لـــو كانت هناك ترجمة للكتـــاب إلى العربية. وهي تحب القراءة كثيراً. لسوف أعود إليها فيما بعد.

«والآن، هل ستحدثني عن عدنان؟» قال نوري.

قلت: «نعم».

قـــال: هل وقفت على أثـــر أو خبر عن عدنان في قصـــر النهاية؟ أريد

شاهداً عن بعد أو قرب. وأنت قلت إنك وصلت قصر النهاية بعد غيابه أو تغييبه بأسبوع. فما هي معلوماتك أو مسموعاتك عنه؟.

قلت له: أنني أدخلت إلى صالة «المعترفين»، أو من أصبحوا على استعداد للاعتراف. وفي تلك الصالة لمحني من الباب الرفيق (...).، فأشار إليّ بالجلوس إلى جانبه. وبقيت أياماً في تلك الصالة في جواره، ولا أذكر كيف جيء لي بجودلية للجلوس وللنوم عليها (والجودلية هي أشبه بفراش بثخن اللحاف ولا يتجاوز عرضها نصف متر أو ربما أكثر بقليل). وعندما نودي عليّ فيما بعد، تصور (...). أنني لن اعود، واختطف وجهه. لكنهم أعادوني في اليوم نفسه، أو ربما في اليوم التالي، لا أذكر، إلى قصر النهاية في نفس الصالة. لقد نقلوني إلى مديرية الأمن ليأخذوا مني تقريراً آخر عن اعترافي.

«هل يحزنك هذا الحديث. اتركه إذا كان يسبب لك ضيقاً»، قال نوري السعدي.

«يحزنني بالطبع، لكنني لا أرى موجباً للامتناع عن الحديث»، قلت له.

أود الآن أن نناقش موضوع البطل في تصورك؟

هذا سؤال ليس من السهولة الإجابة عنه، قلت له: حدثني (...). أن أحد القادة الصامدين أمام التعذيب (ذكر لي اسمه) كان يئن قبل أن يلفظ أنفاسه، وكان (...). يخشى أن يضعف، لأنه رمزنا، لكنه لفظ أنفاسه بسرعة، فتنفس (...). الصعداء.

وقال: أنا أقول لك شيئاً، إنني لا أعرف ما هو مفهوم البطل؟. لكنني أنا معجب من بين كل من أعرفهم، بك وبعدنان البراك. أنت مثقف من

طـراز خاص؛ وعدنان يملك شخصية ساحرة، لمَ تتوفر لدى غيره، رغم أنه «ناعم» الجسم في «فيزيونوميته».

وقلت له: بقدر تعلق الأمر بي، أنا لم أحقق شيئاً بعد، لذلك لا أستطيع أن أزعـم أنني أتميز في شيء. أما عدنان، فأنـا أشعر أنه شخصية ساحرة بالفعل، حتى في صمته. إن الشيوعي الوحيد الذي فرض احترامه على كامل الجادرجي هو عدنان الـبراك. فما هو السرُّ في ذلك؟ كان عدنان البراك أحب شخصية عند كامل الجادرجي. وقد لمست أنا ذلك في لقاء مـع الجادرجي ضمني أنا، والدكتور مهـدي مرتضى، وعدنان البراك، عندمـا قدمنا لـه مجموعة كاملة من أعداد مجلـة (المثقف). كان يتحدث مع عدنان بحب.

ثـم قال نوري السعدي: لكنك تعلم أيضـاً أن الجادرجي كان يودك كثيراً. هذا ما قاله لي عدنان.

ليكـن، قلت له، لكـن عدنان كان يكتب افتتاحيـات مذهلة لجريدة (طريق الشعب) ؛ وأنا لا أستطيع أن أجاريه في ذلك.

لكنـك لست سياسياً، قال لي. أنت تأسـر قلوب النساء بقلمك، مثل سميرة.

سألته: «ما هي أخبار إفروديت؟».

«هي في بريطانيا الآن، تدرس الرياضيات».

ومـن المفارقـة أن (س)، أصبحـت شيوعيـة؛ وأن إفروديت لا شأن لهـا بالسياسة، ولا بالأدب، بل بالمال. ومـن المفارقة الأخرى أن (س)

استطاعت ان تكسب ود عدنان البراك. أنا لي رأي في النساء العراقيات ذكرته بعد ذلك بسنوات طويلة.

لكن نوري السعدي لم ينته من الحديث عن الرجال. قال: عند الرجل -المتميز- الكاريزما، أو السحر؛ أما عند المرأة فالجمال، والسحر.

ثم قال: «وعندك أنت، وعند عدنان سحر، حتى في صمتكما».

فكـرت في صمتي، وهو شـيء استلمته من أبي وليسـ من أمي. أنا خجـول، وأكاد أكون عيياً، لأن حضور البديهة يخذلني أمام الآخرين. وأنـا بطيء التفكـير. ومع ذلك أشعـر أن لي شخصيتـي، وكما نعتتني إحداهـن أنـا محبـوب. لكنني في حاجـة إلى زمن ليُعد منـي طبخة لها نكهتها الخاصة. هذا ما قلته للصديق نوري السعدي.

اسمـع، يا صديقي، قـال لي نوري السعدي: «أنـت لست من هذه التربة. أنـت وعدنان. وأنتما لا تنتميان إلى المجتمـع. أنتما تنتميان إلى اليوتوبيا. هل تدري مـاذا قال لي عنك صديقنا (ع) الذي عرفني بك؟ قـال: «جاءنا شاب ليس من هذه الدنيا. إنـه ليس كالآخرين. هل تريد أن أعرفـك به؟» وهذا ينطبق على عدنان أيضاً. وأنا سعيد لأنك نجوت مـن المحنة؛ وحزين لأن عدنـان لم يفلت. أنتما فتاتـان! هل أصبحتما صديقين؟».

«لا، بـل زميلين حميمين. نحن لم نلتق خـارج نطاق اللجنة الحزبية التـي كنا نعمل فيها، ربما عدا لقاءنا في منزل الجادرجي. عدنان لم يكن ينتمي إلى المجتمع، كما قلت. و هوكان أكثر مني عزلة».

«لكن لماذا قتلوه؟ هو ليس شخصية جماهيرية».

«لأنه كان صاحب أكفأ قلم في كل العراق؟»‌.

«ما هو مستوى ثقافته؟ هل كان مولعاً بالموسيقى؟»‌.

«لا أذكر أننا كنا نتحدث عن الموسيقى. لكنني أعتقد أنه كان قارئاً جيداً»‌.

«هل تحدثتما عن المرأة، عن الحب؟»

«لا، في اللجنة الحزبية لا يدور حديث عن الحب!»

«هل تعتقد انه أحب أختي؟»

«أعتقد أن أختك هي التي أحبته. وعلى أية حال هو ليس كائناً من حجر»‌.

ثم انتقل نوري السعدي إلى بقية الرفاق. سألني من شاهدت من الرفاق في قصر النهاية. فقلت له لعله يعلم أنني اعتقلت بعد مرور أربعين يوماً على الانقلاب. لذلك لم يتسن لي أن أرى الرفاق الذين تمت تصفيتهم قبل دخولي قصر النهاية. إلا أن (...). حدثني كيف لفظ سلام عادل أنفاسه على مقربة منه. كما حدثني عن الطريقة الوحشية التي أنهوا بها حياة عبد الرحيم شريف. وأنا شاهدت عدداً من الرفاق عندما جمعونا في قاعة لمشاهدة عدد من الرفاق المعترفين يتحدثون في التلفزيون. وفي القاعة شاهدت عبد القادر إسماعيل يلملم أو يسحب بنطلونه، أو لعلها بيجامته، ربما لنرى جراح رجله من التعذيب. تعلم أنه كان من بين المعترفين. ثم جيء بالرفيق نافع يونس يسنده الحارس. وأجلسوه على الأرض لكي يشاهد الرفاق المعترفين في التلفزيون. لكن الرفيق نافع لم يطق الجلوس كثيراً، فأشار إلى الحارس بأن يعود به،

واستجاب الحارس، وكان يخاطبه بكلمة أستاذ. ومعلوم أن الرفيق نافع يونس قتل بعد ذلك في القصر.

قال نوري السعدي: «أنت تثير أشجاني كثيراً، لأنني التقيت سابقاً بالأستاذ نافع، وترك في نفسي انطباعاً ممتازاً. هو في رأيي من بين النخبة الفاضلة جداً في الحزب».

ثم سألني: ومن شاهدت أيضاً؟. فأخبرته أنهم نقلوني أيضاً إلى ما يسمى بمعتقل محكمة الشعب بعد تصفية الرفاق جمال الحيدري، ومحمد صالح العبلّي، وعبد الجبار وهبي. ثم شاهدت في معتقل خلف السدة «الرفيق» الذي وشى بمكان اختبائهم. وكنت أتناول الطعام معه في نفس المجموعة. أنت لا تستطيع أن تعرب عن مشاعرك في المعتقل؟.

نعم، قال نوري السعدي، هل نتحدث عن الفلسفة، والبايولوجيا، والسايكولوجيا؟

أدركت ماذا يقصد. وكنت عطشاً إلى عصير برتقال. كان من بين الأشياء التي كنت أريد أن أرتوي بها عند إطلاق سراحي.

قلت له: «هل عندكم عصير برتقال؟»

«يقيناً، قال، فبيتنا لايخلو من البرتقال».

ونادى أخته الصغرى (ر)، فقدمت إلينا، وحيتني مع ابتسامة خجول. فقال لها: «اعملي عصير برتقال لصديقنا».

ثم جاءت بقدح كبير فيه عصير برتقال. وضعته أمامي على نضد. شكرتها، وأنا أشعر بسعادة. ثم قلت لصديقي: «أنا كنت متعطشاً أيضاً

إلى اللحـــن الختامي في باليه بحيرة البجــع. كان هو ولحن (ترومير اي) يترجعــان في رأسي دائمــاً. سأسمعه فيما بعد. هــذا اللحن الختامي فيه إحساس باللملمة (لكل ما مضـــى)، وبتوجع دفين جداً هو أعمق تعبير من أي كلام. لا أعتقد أن أحداً من الموسيقيين استطاع أن يقدم لي قراءة للألم مثلما قدمها لي هذا اللحن».

«لماذا لم تحدثني عن ذلك من قبل؟»

«لا أدري. أنا كنت أستمع إليه وحدي».

«أسمعني هذا اللحن في أقرب فرصة».

كان ألبوم الاسطوانات عندي في البيت. وأنا أذكر أنني أسمعته ذات مرة أوبرا (مدام بترفلاي)، غناء ريناتا تيبالدي، فذهل لبكاء ريناتا الموجع جــداً عندما أقدمت على الإنتحار، وسمعنا صوت إرتطام الخنجر على الأرضــ. كان بكاءً حقيقياً موجعاً جــداً. و لم ينس نوري السعدي هذا المشهد. وهو صار يسعده أن أقفه على مقاطع موسيقية كهذه.

عندما أحب أن نتحدث عن الفلسفة، والبايولوجيا، والسايكولوجيا، تذكرت معاناة محمــد الجلبي التي كانت أطول معاناة تحت التعذيب في أيــام ١٩٦٣، وانتهــت بالموت، أو إنهــاء حياته، بعد مضــي أشهر من التعذيب المستمر، ربما مع توقف لكي يستطيع أن يستعيد أنفاسه ليدخل في دورة أخرى من التعذيب.

قلت لصديقــي: وأنا الآن فقــدت الشهية لشــرب العصير. لماذا ظل الرفيــق محمد الجلبي يتحمل كل ألوان التعذيب على مدى أشهر، وأنا لم أتحمله أكثر من ثلث ساعة؟».

سألني: «أنت كنت تريد الموت؟»

«نعم، بكل جوارحي. لكنه لم يواتني بسرعة... عندما ضربني (م. إ. ج) بقضيب حديدي مغلف بجانبيه بالجلد بقوة على وجهي، شعرت أن عيني توهجتا بشعلة من نار، وأن أنفي تهشم. لكنني لم أضعف. فقال: علقوه. فأوثقوا يدي بحبل مدلى من السقف. كانوا الآن قد رفعوا العصابة عن عيني. وأخذوا يضربونني بسوط أو بعصا، لم أعد أميز بين الأشياء، ولا أدري كم كان عددهم، اثنين أم ثلاثة. الذي أحسسته هو أنني لم أعد أستطيع أن أتنفس، وأن أبلع ريقي. لقد جف اللعاب من فمي تماماً، وأنا أشعر أن ظهري مهشم، فقلت: أنزلوني... هنا لم أعد أفكر في شيء، سوى أن أعطى ماء لأستطيع أن أوقف اختناقي. البايولوجيا؟ أنت طبيب.

نعم، قال، وهذا لأنك فتاة. أنت كان ينبغي أن تبقى في بيركلي».

«والرفيق محمد الجلبي، الذي قاوم أشهراً؟ ألم ينشف ريقه، وتتهشم عظامه؟».

«الظاهر أن لكل جسد تحملاً معيناً».

«وما هو موقع الفلسفة والسايكولوجيا؟»

«إن درجة تبخرهما تتوقف على بايولوجيا الجسد».

«تبخر وقتي، طبعاً، لكنه حاسم هنا».

نعم، قال نوري النسعدي، هل نتحدث في السياسة؟ أنت شوقتني إلى سماع لحن (بحيرة البجع) الختامي.

«نعم، هو يلخص ويكثف كل هموم البشر. هكذا يوحي لي سماعه. لماذا تكون للموسيقى قدرة تعبيرية هائلة؟»

«أنت تستطيع أن تفسر لنا ذلك».

لكننا لم نفرغ من موضوع الرفيق محمد الجلبي، وموضوعي أنا، وموضوع كل الرفاق الآخرين. أمامنا قبل الجميع الرفيق محمد الجلبي، الذي لقي أكبر قدر ممكن من التعذيب. ثم هناك الرفاق الآخرون الذين لم يكن تعذيبهم أهون منه، لكن أجسادهم اختصرت الموت قبله. وهناك الآخرون الذين لم تحتمل أجسادهم التعذيب. فانهاروا. وهناك المتخاذلون قبل ان يتعرضوا إلى محنة التعذيب. أين هو حديث الفلسفة، أو السايكولوجيا هنا؟.

«هل تريد أن نخوض هذا الموضوع؟ أنت لم تشرب العصير حتى إلآن، و لم تمد يدك إلى كأس الويسكي. الا تريد أن تمارس الحياة؟ إنني أنا المسؤول عن هذا النواح. لنواصل الحياة يا صديقي. ولتحدثني عن الموسيقى بدل ذلك. ألا تتطلع إلى علاقتك مع البيانو؟»

«نعم، كثيراً، وسأبدأ من يوم غد بلا توقف».

«هل ستأخذ دروساً؟ أنا سأتكفل دفع الكلفة. لا تقلق من هذه الناحية».

«شكراً، أنا لديّ معلومات أولية جداً، سأحاول أن أبدأ بها وأرى».

# الفصل الثالث

بالرغم من وجود أروع صديقين لي الآن، هما نوري السعدي، والبيانو، إلا أنني بدأت أفكر في الهجرة من العراق. لكن كيف وأنا ممنوع من السفر؟. فرضيت بهذين الصديقين كوطن لي. وانا أعلم ان هناك أمي أيضاً، التي لا أنسى تعلقها بي الذي يرقى إلى العبادة. فهي لم يعرف جفناها النوم عندما وصل إلى علمها انني اعتقلت في قصر النهاية. فذهبت إلى هناك، ورمت بنفسها أمام جنازير الدبابة. وعندما هرع إليها الحرس، وسألوها عن هويتها، وماذا تبغي، قالت لهم: إنها جاءت من أجل ابنها.

«من هو ابنك، خالة؟»

قالت: «علي الشوك».

«طيب، خالة، إذهبي إلى البيت، ونطمنك بأنه حي يرزق».

والظاهر أنهم لايسمحون لأي كان بالاتصال بقصر النهاية، فأرسلوني

إلى مديريــة الأمن، لأرسل خبراً إلى أمي بأننــي حي أرزق. فهرعت إليّ لتحمل إليّ علاّقة فيها غيار ملابس داخلية مع فاكهة. وسلمتُ الشرطي ملابسي الداخلية التي زادت أمي حزناً وقلقاً بعد أن شاهدت عليها آثار دماء جافة... ولا أنسى أيام المواجهات، عندما سمحوا بها، والأحمال الثقيلــة من الطعــام التي كانت تحملهــا على رأسها، بمــا في ذلك قدور الطبخ. هذا كان بعد أن نقلت إلى معتقل خلف السدة.

والآن، لمحتهــا تتراجع من أمام النافذة لتعود إلى غرفتها مطمئنة، بعد أن أوصلني نوري في نحو الواحدة صباحاً إلى البيت.

في الصباح قلت لها: «لا تنتظريني، يا أمي، فأنا أعود في السيارة في صحبة نوري».

«لا أستطيع النوم، يا ابني، إلّا بعد أن أراك بعينيّ عائداً إلى البيت».

وهنــاك مخلوق آخر أسعد بعودتي إلى البيت، هو القط بلور. كان من عادته أن يثب علــى كتفي عندما أجلس. تعلّم ذلك عندما كنت أتناول طعامي، وأرمــي له بقطعة لحم. وبالطبع استقبلنــي فور دخولي البيت، وســار معي إلى غرفتي لينام فيها على سريــري. كان هذا القط هدية من ابنة الدكتــور عبد الجبار عبد الله الذي أصبــح رئيس جامعة بغداد، إلى أختي الصغرى. كانوا جيراناً لنا.

منذ اليوم الثاني لعودتي من الاعتقال، بدأت علاقتي بالبيانو. وظلت أسابيــع في إطار الاكتشافات، اكتشافات أبجدية النوطات، والمركبات الصوتيــة (أكــثر من نوطة تؤدى في آن واحــد)، وكان بلور يصعد على كتفــي في كثير من الأحيــان عندما أجلس أمام البيانــو، لأنه كان ينتظر ساعة الغداء ليشاركني الأكل.

واستغرقني وقت طويل لأمرن أصابعي للعزف بشيء من المرونة. وأرهقتني محاولة عزف لحنين مختلفين في يديّ الاثنتين. كان ذلك تمريناً صعباً جداً أول الأمر. وصرت أعزف بعض المعزوفات التي أعرفها من الذاكرة، مثل توكاتا باخ، وغيرها. لكنني صرت أرتجل في كثير من الأحيان، وأستطرد في ارتجالاتي.

وفيما بعد سجلت إحدى محاولاتي في العزف، وأرسلت الشريط إلى السيد منير الله ويردي، العازف الممتاز على الكلارينيت. فأرسل إليّ الرد الآتي:

«الأخ العزيز علي:

شكراً لرسالتك والشريط الذي سمعته باهتمام ووجدته ليس كما قلتَ (تواضعاً) مجرد «خربشة» على المفاتيح. ألّا أن السلالم الموسيقية. ومنها السلم البنتاتوني وبعض الآربيجيو، ومقداراً لابأس به من التنسيق بين اليدين، ومقداراً من المهارة المكتسبة بالتمرين لحركات الأصابع، كلها واضحة وتدل على مقدار غير قليل من المحاولات للتعبير عن مجموعة ما من المشاعر والأفكار. إنها تعبر بوضوح عن حالة الحب الذي تغمرك والمعبر عنها في قصة (البيانو). واذا كان اهتمامك بالموسيقى والبيانو بهذا المقدار من الجدية فمن الجدير والمفيد أن تستمر بعد أن تتلقى بعض الدروس، حتى بدون معلم».

لم يطمئنني كثيراً هذا الانطباع عن محاولاتي في العزف، لأنني بدأت متأخراً. كان عمري ٣٦ عاماً، وكانت أصابعي أقل طواعية للعزف من الأعمار الأصغر. مع ذلك كنت أمارس العزف لكي أنسى كل شيء، وأغرق في الموسيقى وحدها.

كان صهري رفيق محمد سالم مقاولاً، ولديه علاقة بأشخاص يستطيعون التحرك في دوائر الدولة. أخبرني أنه يستطيع الحصول على جواز سفر لي، وما عليَ سوى أن أزوده بصورة فوتوغرافية لي. فتملكتني الريبة من كلامه. وأعربت له عن ذلك. فأكد أن لا أقلق من هذا الجانب، وهو يعرف شخصاً ذا خبرة بهذا الموضوع. فوافقت بعد أن أكد لي أن اسمي لن يذكر في كل المعاملة. إلا عند إعداد الجواز. وعرّفني بالشخص الذي سيتابع المعاملة. وكان هو من بين متابعي معاملاته في أعمال المقاولة. (أوضح لي أن اسمي لن يذكر عند إرسال المعاملة إلى مديرية الأمن للتأكد من عدم وجود منع لصاحب المعاملة). وبعد أيام قال لي صهري: أن معاون الشرطة في مديرية السفر والجنسية أحب أن يراك ليسلمك الجواز. هنا شعرت أن هناك فخاً لاصطيادي. فأعربت لصهري عن هاجسي. إلا أنه أكد لي أن أطمئن، وأنه هو، ومتابع المعاملة، سيكونان في رفقتي لمواجهة المعاون. وعند ذهابنا إلى المعاون، أشار فوراً إلى شرطيين باعتقالي، واقتيادي إلى مدير عام السفر والجنسية، وكان من عائلة (الضاحي) من سكنة محلتنا كرادة مريم. وعندما أدخلت عليه، قال: «ما شاء الله، مثقف ويزور الجوازات. من أنت، شيوعي، أم بعثي؟»

قلت له وأنا في غاية الغضب على نفسي، وعلى صهري، وعليه، وعلى كل شيء: «أرجوك، اتخذ الإجراء اللازم بلا أي تعليق».

«نعم، خذوه إلى المعتقل».

وفي الخارج كان صهري ينتظر وهو في حالة شديدة من الحرج والندم. لكنني قلت له أن يتصل فوراً بالصديق نوري السعدي، ليتصل

بدوره بمجيد خياط، مدير الشرطة العام، وهو صديقه، ويعرفني لأنه كان يلتقي بي عندما يزوره في عيادته.

وأدخلوني أنا ومتابع المعاملة ردهة المعتقلين. وبعد ربع ساعة عاد صهري بغروس سكاير وعلبة شوكولاته. واتكأنا إلى الجدار بعد أن جلسنا على جودلية. وبعد ربع ساعة ناداني الشرطي، وقال: أن المعاون يطلبني لمكالمة مدير الشرطة العام. ولما أدخلت على المعاون، قال لي: «تفضل، كلم المدير العام».

وعندما استلمت السماعة، قال لي مجيد خياط: «علي، ما الخبر، هل القضية سياسية؟»

قلت: «لا، سيد مجيد، إنها حول جواز سفر».

«بسيطة، إذن، سيطلق سراحك فوراً، أنت وحدك».

ثم استدرك: «لكننا لا نريد أن يزعل السيد الضاحي. هل لديك مانع أذا أطلق سراحك غداً؟»

قلت له: «لا، أستاذ مجيد».

«طيب، مع السلامة».

وأطلق سراحي في اليوم التالي، وأبقوا صاحبي ليؤدب. وتركت له بقية السكاير والشوكلاته.

وأقام صهري لي وللصديق نوري السعدي دعوة سادها المرح. ومن منزل صهري اتصل نوري السعدي بمجيد الخياط ليشكره، وأشكره أنا أيضاً... أحزنني أن مجيد خياط توفي بعد ذلك بعام أو عامين، مع انه كان لا يزال في مقتبل العمر.

...

لم أجد من الملائم أن أبقى بلا عمل، أي بلا مورد مالي، بالرغم من أن الصديق نوري أكد لي أن لا أفكر في هذا الموضوع، لأن وضعه المالي جيد جداً. لكنني أستطيع أن أمارس التدريس في المدارس الاهلية. فتحدثت مع الصديق نجيب محيي الدين بهذا الشأن. وهو له معارف وصلات، لأنه كان نقيب المعلمين يوماً ما. وتحدث مع سلمان مهدي، مدير مدارس الجعفرية الأهلية (التي كان أجدادي من جهة أمي من بين مؤسسيها)، فرحب في أن أصبح على ملاك الهيئة التدريسية في متوسطة الجعفرية للبنين، لقاء راتب قدره خمسون ديناراً شهرياً.

وسأذكر حادثاً ظريفاً من أيام تدريسي الصف الثالث. كان في مؤخرة الصف طالبان يثرثران بينما كنت أنا ألقي الدرس. أحدهما كان أخا مظفر النواب. وكان هذا جالساً إلى جوار طالب آخر كان يلغو معه. فزجرت هذا الطالب، وامتثل. ثم لما انتهى الدرس وخرجت، هرول أخو مظفر في إثري، واقترب مني، ثم قال لي: «هل تعلم، أستاذ، من هو الطالب الذي زجرته؟»

«من هو؟» قلت له.

«إنه ابن رئيس الجمهورية عبدالرحمن محمد عارف».

«صحيح؟ قل له يوصل احترامي لأبيه».

في ضوء ذلك كم كنت أتمنى لو استمر حكم أبيه.

وعلى أية حال، كانت سنوات الستينات رهيبة في أحداثها السياسية. ففي ٦٣ حدث أبشع انقلاب في العراق؛ وفي ٦٧ كان اندحار الدول

العربيـة، وفي مقدمتها مصر، أمام اسرائيـل؛ وفي ٦٨ حدث الانقلاب البعثي الثاني (في نفس يوم زواجي). وسأعود إلى هذا الموضوع.

لكننـي تعرفت في عـام ٦٦ إلى فتاة ستصبح أهم امـرأة عراقية، هي هناء. وقد تم هذا التعارف عن طريق الصديق نوري.

أنا تعرفـت في حياتي إلى عدد من النساء، كانـت أحبهن إليّ اثنتين، همـا هنـاء؛ و(غ). لم تصبـح هناء صديقـة مقربة جـداً إليّ. بل كانت صديقـة مقربة جداً إلى نـوري. لكنها بقيت تحمـل لي وداً كبيراً. وهو نفس شعوري تجاهها.

كان (ل) شقيق زوجة نوري زميلاً للطالبتين هناء، و(ف) حتى انتهاء دراسـة الحقـوق. وكان (ل) يحدث زميلتيه عنا، أنـا ونوري كثنائي لا مثيـل لنا. ولعله تحدث عني ككاتب أيضاً، أو لعل الفتاتين كانتا تقرآني. فأحبتا أن تتعرفا إلينا. هما كانتا يساريتين أيضاً. وتم التعارف في العيادة. وربما على الفور دخل نوري في قلبي هناء و(ف)، أو هناء بصفة خاصة. أما (ف) فلسوف تعجب بصديق لنا يُحسن اجتذاب المرأة.

أنـا لم أكن ساحراً أمام المـرأة. ولم أفرض يومذاك إعجاباً واضحاً في كتاباتي. أنا لم أؤلف كتاباً بعد، لاسيما مثل كتاب الأطروحة الفنطازية، الـذي سيجنن سميرة. اما نـوري فبالإضافة إلى كونـه طبيباً، فهو كان وسيماً ويملك سحراً بشخصيته المفرطة في رقتها.

وقـد تقول هناء إنني مفرط أيضـاً في رقتي، وربما مذهل في مداركي الثقافية، لكنني لا أملك جاذبية كجاذبية نوري، ولا لباقته.

وهنـاك فارق السن بيننا، لكنـه لم يكن عائقاً بالنسبـة لهما، لأنهما

كانتـا تريـدان أن تدخلا إلى الحيـاة عن طريقنا، ومن بـين مباهج الحياة المغلفـة بالتابو، كانت الخمرة، التي تكاد تكون مقصورة على الرجال. مـا هو طعم البـيرة، مثلاً، وماهـو مفعولها؟ لماذا لا تجربـان شربها ولو بحـذر وبتقتير. آه، يا لها مـن رعشة المحاولة. و لم يكـن من الملائم أن تكون المغامـرة ليلية. وعند ذاك سيكون اللقاء عندي، لأن نوري يعمل في النهار. ثم إن المهمة ستقتصر على المحاولة فقط، تجربة المشروب، من غير أبعاد أخرى.

وكان عليّ أن أكتم المحاولة عن عيون أبي. أما أمي فشأن آخر، لأنها لاتناقش أي شيء أمارسه. وكان هناك فستق، ورقاقات البطاطا المقلية، وموسيقى، ليست راقصة طبعاً، كما يقتضي الحال، بل كلاسيكية.

كان هنـاك امتعاضـ أول الأمر مـن الطعم، وربما مـع دموع. لكن «المـزة» كانت شفيعـاً. التهمتاها بلا حسـاب. وأقنعتهما بأن هذه هي البـيرة، لذتها في مرارتها. وأنـا مثلهما لست معجباً بهـا. وكان هناك ضحـك، وثرثرة حلوة. وفي الأخير مـرت التجربة بنجاح، لأن مرارة البيرة جزء من لذتها. ثم أنها كانت شراب السومريين.

(أنا الآن أكتب هذه الاستذكارات بعد سنوات عديدة، وبعد رحيل نوري المحزن، الذي أوجعني مثلما أوجع هناء وعائلته. شرعت بكتابة هـذه السوانـح لكي أسد ثغـرات في ذاكرتي بشأن أحـب الناس إليّ. وعندمـا فكرت بكتابة هذا المشـروع، تساءلت مع نفسي حول المدى الـذي أستطيع أن أتحرك فيـه. مع أن كثيراً من «أبطـال» هذا المشروع غيبّـه الردى. لكنني رأيـت أن أكتب إلى العزيزة هنـاء لأخذ رأيها عن مـدى الحرية التي أستطيع أن أمارسها في الكتابة عنها. فأعطتني الضوء الأخضـر. وكنـت أكاتبها الكترونيـاً عن طريق ابنتـي زينب. فذهلت

زينب والتمست مني أن أراعي مشاعر عائلة «عمو نوري»، على حد قولها. مع ذلك أنا سأراعي مشاعر الكل، بمن فيهم هناء العزيزة، رغم تحررها.

(وأنا أعلم أنني أكتب ضد التيار، الذي أصبح كاسحاً للأسف الشديد؛ وضد حتى بعض المشاعر الصديقة. فقد أجرح مشاعر أشخاص لديهم رؤى راسخة قد يعتقدون اني أهزها. لكنني أكتب هذه الاعترافات عن قناعتي الشخصية، وإيماناً مني بأن الاعتبارات لم تعد لها أهمية في عالمنا القيامي هذا. مع ذلك فإن ما اكتمه هو أكثر بكثير مما أبوح به).

ستفترق (ف) عن هناء في مسيرة حياتها منذ مرحلة مبكرة من علاقتهما، لأن (ف) امرأة ستبرهن على أنها اعتيادية في آخر المطاف، بالرغم من بداياتها المندفعة. أما هناء فهي امرأة من طراز مختلف عن كل النساء الأخريات، وأنا كنت أراهن عليها، مع أنها لم تصبح على مرامي تماماً. كنت أريدها أن تصبح كاتبة، وليس ناشطة. لكنها ملأتني إعجاباً بنزعتها المتحررة المذهلة. أن ما يميز هناء عن (ف)، التي أحببتها في البدء لمزاياها الجسدية، هو أن (ف) كانت وراء الزواج؛ أما هناء فلم تكن كذلك. وهذا، عندي، هو سر تميزها عن كل النساء العراقيات.

ماذا يعني أن تكون امرأة-عراقية- ضد الزواج؟ إنه يعني مليون شيء، وفي رأس القائمة الحرية «المطلقة»، والتخفف من القيود. عندما زرتها في برلين (الشرقية) عام ١٩٧٩ أو ٨٠، شاهدت على جدار غرفتها صورة للوحة امرأة عارية مستلقية على بطنها، للرسام الفرنسي فرانسوا بوشيه، كانت أكثر أغراء من أية لوحة أخرى. هذه البادرة أذهلتني، وأورثت عندي أحساساً بألذ ألوان الجنون في الدنيا. قالت

لها نزيهة الدليمي: «ارفعي هذه الصورة يا عزيزتي».، «لماذا؟» قالت لها هناء: «ارفعيها، يا حبيبتي»، «لن أرفعها، رفيقة».

كانت تمثل المرأة العراقية في برلين الشرقية، في منظمة النساء العالمية. كنت أشعر أنها مندوبة ناجحة، لكنني لا أدري ما هو مقدار كفاءتها كقائدة سياسية. مع ذلك كنت أشعر أن الحزب كان بيتها. وسأزداد قناعة بأنها تصلح لادارة مؤسسات جماهيرية، كما أصبحت عند أشرافها على مؤسسة إنسانية.

وهناء هي التي عرفتني بالصديقة الألمانية Inge التي دامت علاقتي بها خمس سنوات، وكتبت عنها في روايتي (مثلث متساوي الساقين).

وعرفتني أيضاً بكارولا، التي كانت صديقة خالد السلام في أثناء دراسته في ألمانيا. وزادني سروراً أن كارولا ارتاحت إليّ كثيراً، ودعتني إلى بيتها، وطلبت أختها على الهاتف من برلين الغربية لتعرفها بي. لكن كارولا لم تكن تجيد غير الفرنسية إلى جانب الألمانية. وأنا كنت أذكر مفردات فقط من بقايا الفرنسية التي درستها قبل ثلاثين عاماً. لكننا كنا نتفاهم بشكل ما، ونتناقش حول موضوع الرواية الفرنسية الجديدة الذي كان اختصاصها منذ أيام الدراسة مع خالد السلام. وكنت أنا من غير المعجبين بأطروحة الرواية الفرنسية. وعلى أية حال وصلت العلاقة بيني وبين كارولا إلى طريق مسدود عندما تعرف إليها رجل ألماني، لعلها تزوجته فيما بعد.

أعود إلى عام ٦٧ والعراق. كنت أنا الآن أفكر في الزواج. وأصبحت هناء صديقة مقربة لنا، أنا ونوري، وتشاركنا سهراتنا. أما (ف) فقد سرق قلبها صديق لنا تعرف إليها بواسطتنا. وكان نوري يفكر في كل ما

يهمنـــي، بما في ذلك موضوع زواجي. وتحدث إلى هناء عني في غيابي، وقال لها: «أريدك أن تجدي لعلي زوجة أنت على قناعة بصلاحها له».

فقالــت له على الفور: «لي صديقة تكـبرني ببضع سنوات، وهي من خريجات كلية الحقوق، وموظفــة في وزارة الإصلاح الزراعي، أظنها تصلح له. إنها جميلة ومثقفة».

«هل أنت مقتنعة بها؟»

«إسمع، هي كانت بعثية من جماعة (قيس السامرائي) الذين انشقوا عن حزبهم، وشكلوا تجمعاً يسارياً، وهم أصبحوا أصدقاء الشيوعيين».

قال نوري: «ألم تجدي غيرها؟»

«هي أصبحت صديقة لنا، وتؤمن بالماركسية».

«وماذا سنقول لعلي؟ ألا تعرفين فتاة أخرى بلا خلفية بعثية؟»

«لا تحضرني واحدة».

«لماذا لا تتزوجينه أنت؟ هو يحبك».

«أنت تعلم انني لا أحب الارتباط بزواج».

«حتى بشخص مثل علي؟»

«نعم، حتى هو».

بعد أيام سألني نوري: «هل تعرف شيئاً عن قيس السامرائي؟»

قلت له: «لا، لكنني أسمع مديحاً له».

«هل تحب أن تلتقي بفتاة جميلة من جماعته؟»

ضحكت، وقلت له: «في إطار خطبة؟»

«ليس بالضرورة، هي صديقة هناء. جرب أن تلتقي بها، سأطلب من هناء أن تفاتحها بموضوع اللقاء بك بحضورها وحضوري، في العيادة».

قلت له: «لا مانع لديّ، إذا كان مجرد لقاء».

«طبعاً».

في يوم اللقاء حضرت هي وصديقة لها اسمها ليلى، وهناء، إلى جانب نوري، الذي كلف فرّاشه بأن يُعد لنا قهوة. لا أذكر شيئاً من الحديث التمهيدي الذي دار بيننا، سوى أنني لمست أن نوري استحسنها. ودخل معها في حديث كانت تجيبه بلباقة. والظاهر أن فكرة التعارف بيننا كانت مطروحة. فقال لها نوري: «أنا أعتبر عليّاً كاتبي المفضل، وأنا أراهن عليه ككاتب لامع. هل تحبين الأدب؟»

«نعم».

«من هم كتّابك المفضلون؟»

«سارتر، وكامو».

«ماذا تحبين لسارتر؟»

«دروب الحرية».

«ولكامو؟»

«كاليغولا».

ثم وجه كلامه إليّ: «ما رأيك يا علي؟»

ضحكت، وقلت: «وماذا أيضاً؟»

قالت: «محمد الماغوط».

«هل سمعت بجيل الستينات؟»

«لا».

«وما رأيك برواية الغثيان؟»

«هذه رواية فلسفية؟»

«ما هو رأيك فيها؟»

«استمتعت بها».

«أنت قارئة ممتازة. وأنا أقول لكم إنني كنت أتلذذ كثيراً بقراءة (الغثيان)».

ثم سألتني زوجتي المقبلة: «وماذا تكتب أنت، أستاذ؟»

قلت لها: «ستريحينني أكثر إذا سألتني ماذا اقرأ. أقرأ الآن كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني. هل تعرفينه؟».

«نعم».

كان اللقاء ناجحاً في معاييري، والتقينا مرة أخرى في منزل نوري. وفي هذا اللقاء حدثتني زوجتي المقبلة عن موسيقى البيانو التي تسمعها جارتها روناك الكردية، زميلتها في الدائرة. واتفقنا ان نواصل لقاءاتنا.

وبقينا نلتقي ستة أشهر، في منزل نوري، وفي بيتي.

في لقــاء آخر عند نوري، قدم لنا مشروباً. وعندما سأل نوري باسمة (خطيبتــي) إن كانت تحب أن تشــرب، فأجابت بالإيجــاب. وسألها: «ويسكــي»، فأكــدت أن نعــم. أنــا طبعــاً لم أستغرب بعــد أن علمت أنهــا كانت تشــارك في جلسات مختلطة مع شبــان وشابات متحررين. كمــا أصبحت هناء تشـرب الويسكي أيضاً. وأسمعنــا نوري موسيقى كلاسيكية.

كان الجــو الآن بــدأ يصبح أكــثر حميمية. وتحدثت هنــاء عن عملها الجديــد في أحدى الــوزارات. والتمست من نــوري أن يبحث لها عن شقــة على شارع ١٤ رمضان. وأخبرتنــي بأنها حدثت زهير الجزائري عني، فأحب أن يزورني بصحبتها. وكنت الآن أصبحت كاتباً معروفاً، وصــار الأدباء الشباب يزورونــي، مثل سركون بولص، وعبد القادر الجنابي.

(حدثنــي زهير عن هذا اللقاء فيما بعــد، وأكد أنه كان يؤمن يومذاك بالكفاح المسلح، وناقشته أنا حول الموضوع، فتخلى عن الفكرة)

أخبرتني باسمة أن صديقتها هناء الشيباني أحبت أن تتعرف بي، وهي مــن المؤمنات بالكفاح المسلح (وقتلت سهواً فيما بعد برشاشها الصغير في بيروت).

ثم تساءل نوري: «ما هــي السياسة؟ وما هو الكفاح المسلح؟ ما هو الكفــاح غير المسلح؟ هنا، أشار إلى الصوفا التي كنا أنا وباسمة متخذين مقعدينا عليهــا– كان المهدي بن بركة جالساً مع عامر عبد الله. أين هو

المهدي بن بركة الآن؟، أنبل وأكفأ زعيم سياسي في عالمنا العربي. أنا لم أنم ليلة قرأت نبأ اغتياله، لأنني عرفت من هو».

«كيف يبدو؟» قلت له

«يملأ العين. وهو يبدو وكأنه من رجالات هوليبود».

قلت أنا: «هل تعتقد أن فيه مواصفات القائد التي تحدثت عنها؟»

«نعم».

ثم قال: أنا لا أعتقد ان عالمنا العربي مسموح له بأن ينجب بطلاً. لقد ظهرت بوادر هذا البطل في شخص المهدي بن بركة ثم أجهض. في الصين كان هناك بطل، هو ماو، رغم مآخذنا عليه. وغاندي كان قائداً، وجواهر لال نهرو. وأنا أشعر أن المهدي بن بركة كان طموحاً لمشروع قائد. كان هو حالماً كبيراً، أكبر مما يتيحه له الواقع.

سألته هناء: كيف، كم كان يسعدني أن أراه.

أنا قرأت عنه كثيراً، قال نوري السعدي، نحن عندنا سياسيون أرستقراطيون، مثل كامل الجادرجي؛ وآخرون سطحيون مثل القوميين. باستثناء صديق شنشل؛ وآخرون مغامرون وصبية، مثل البعثيين. ولا أريد أن اتوقف عند عبد الكريم قاسم، فهو رجل غامض؛ وأنا لم أعجب يوماً ما بعبد الناصر. لكن المهدي بن بركة أقنعني بكفاءته كقائد على صعيد أكثر من وطني.

ثم قال: وأنا قرأت عن حياة المهدي بن بركة وأعجبتني سيرة حياته. هو كان ذكياً في الرياضيات. ونال الليسانس في هذا العلم. وكان

متفوقاً في العلوم والتأريخ واللغة الفرنسية. وانخرط في السياسة منذ سن الخامسة عشرة. وسرعان ما أصبح وجهاً سياسياً بارزاً في المغرب. وناضل مع عبد الكريم الخطابي، وعبدالرحيم بو عبيد. ثم انتخب رئيساً للجنة السياسية لمنظمة التضامن الأفريقي الآسيوي في ١٩٦٠. ومنذ أن أصبح منسقاً للجنة التحضيرية لمؤتمر القارات الثلاث، أصبحت أكثر من جهة تسعى إلى إخفائه من المسرح السياسي العالمي بكل وسيلة. ويظهر أن خطة وضعت من لدن أجهزة فرنسية لتنفيذ عملية اختطافه بواسطة أيدٍ مغربية وفرنسية، وبدعم أجهزة تقنية أمريكية وإسرائيلية.

إن اللقاءات مع الخطيبة لا تزيدك معرفة بها، مهما طالت. وهذا يسري على الخطيب أيضاً. قبل أن تنتهي الأشهر الستة التي حددناها لزواجنا، كان هناك شعور بالارتخاء والتطامن بعد إبعاد البعثيين عن الحكم. وازداد حقد الناس على «الحرس القومي» بعد نشر كتاب(المنحرفون) لكنني فوجئت ذات يوم بزيارة المحامي (ك. ط)، الذي لعب دوراً في إطلاق سراحي.

قال لي: «أنا مكلف بأن أبلغلك برغبة قيادة حزب البعث في إيصال خبر قيامهم بانقلاب إلى الحزب الشيوعي، آملين أن تحظى ثورتهم بتأييد الحزب».

فقلت له: «لعلك تعلم أنني لم تعد لي صلة بالحزب. وأرجو أن لا تزجني في مخاطر كهذه».

بعد أيام ذهبت مع باسمة إلى مصيف في الشمال (لم تكن تسمية كردستان دارجة بعد)، لقضاء شهر العسل هناك. انطلقنا في يوم ١٤ تموز ١٩٦٨. وفي يوم ١٧ تموز أعلن الراديو عن قيام «ثورة»، هي

انقلاب حزب البعث على حكم عبدالرحمن محمد عارف. فقلت لباسمة: «لقد انتهى العراق».

وتنغص علينا شهر العسل.

لكنهم لم يأتوا للانتقام، كما فعلوا في عام ٦٣. جاؤوا الآن بخطة مدروسة، هي محاولة تبييض صفحتهم أمام العناصر الديمقراطية. لكن الذئب لا يستطيع أن يرتدي إهاب حمل، مهما بذل من جهد في إخفاء أنيابه. وعلى أية حال طرحوا مشروع الجبهة الوطنية. وكان ذلك إحراجاً هائلاً للشيوعيين. في رأيي الشخصي كان أفضل حل لهذا الإشكال هو أن يحل الحزب الشيوعي نفسه، بدل أن يجد نفسه «مقسراً» على العمل المشترك مع الذئاب. لكن الحزب، كما أعتقد، لم يكن في مقدوره حتى القيام بهذه الخطوة.

مع ذلك اتصل بي المحامي (ك. ط)، وقال لي إن (أ. أ)، الذي أصبح مديراً عاماً للشرطة اتصل بمدير الأمن العام لإلغاء المنع من السفر المفروض عليك. وسآتي أنا إليك غداً لمواجهة مدير الأمن العام لتحقيق هذا الغرض. (أ. أ) هو من جيل البعثيين القدماء، وكان يلتقي معنا، أنا ونوري السعدي، عند القاضي محيي الدين العمر الذي توسط لإطلاق سراحي في ١٩٦٥.

وقرأت في اليوم التالي نبأ ترشيحي أنا ونوري السعدي لعضوية مجلس السلم، وذلك دون الاستئناس برأينا. وفي مديرية الأمن العامة اكتشفت أنه كان عليّ منعان من السفر، وليس واحداً، ورُفعا.

وقرر الأدباء البعثيون اعادة تأسيس اتحاد الأدباء العراقيين بعد أن ظل معطلاً خمسة أعوام. وفي جلسة كان فيها الجواهري حاضراً طرحت

أسماء كأعضاء للّهيئة الإدارية. وبعد أن تلكأوا في اختيار البقية لاكتمال النصاب، علمت أن الجواهري قال لهم: «اختاروا وجوهاً». ولما سألوه «من تقصد، أستاذ؟» قال الجواهري: «علي الشوك». فتم اختياري، مع أنني لم أكن راغباً في المشاركة.

وفيمـا بعد علمت أن الشاعر (ح. ش. ج) اعترض على اختياري قائـلاً: «علي الشوك مثقف، وليس أديبـاً». لكن اعتراضه لم يؤخذ به، مع أنني كنت أتمنى لو أخذ به.

أنـا كنـت يومـذاك، في ١٩٦٩، أمـر في حالة من مخاض أدبي أو «ثقـافي»، أو إبداعي، بعـد أن أهلت نفسـي لكتابة شيء يحقق شيئـاً من طموحي. كنت آنذاك أفكـر في أن أعد كتاباً عن التيارات الجديدة في الأدب، أو عالم الثقافة. وكنت أيضاً أفكر في إنجاز شيء لم يكتـب مثله. لقد تخليت عن محاولاتـي الموسيقية التي لا جدوى منها، كطموح، مع أنها حققت لي توازناً نفسياً بعد مأساة ١٩٦٣. وتركت البيانو بلا رجعة، لأنني اتخذت قراري في أن أعاود الكتابة بعد انقطاع سنوات.

أنا أعلم أنني مثقف مـن الطراز الأول في كل شيء تقريباً. لكنني أحـب الروايـة والموسيقى أكثر من أي شيء. وأريـد أن أكتب عملاً روائياً عن الرجال المعصوبي العينين، بعد أن مررت بالتجربة. لكنني لا أستطيع أن أكتب عن هذه التجربة لأسباب تتعلق بالرقابة. وأنا لا أحـب أن أكتب بصورة متهربة جداً عـن الحقيقة والواقع، كما فعل عبدالرحمن منيف (فيما بعد اقترب منيف كثيراً من الحقيقة). وحتى كتابـات غائب طعمة فرمان الجميلة كانت تفقد شيئاً من رونقها في

رأيـي بسبب الإحساس بسيـف الرقابة المسلط. ربمـا كانت محاولة فـؤاد التكرلي الأولى (الوجه الآخر) التي ساعدت أنا في نشرها، من أكـثر الكتابات الروائية الواعدة. وربما يعود سبب نجاحها إلى كونها عمـلاً «فلسفيـاً» كان في منأى عـن سيف الرقابـة... آه، إن «زر» الكتابـة الروائية لم يضغط بعـد عندي، لأنني لم أخلـق روائياً حتى هذه اللحظة. والعلة هي أن ثقافتي ستظل تنأى بي عن عالم الرواية. فهـل كان تنبؤ أستاذي وصديقي بروفيسور كاليانبور بإهدائه أجزاء (الدون الهادئ) وهماً أم أملاً مرجأً؟

في أواخـر ٦٩ كنـت أفيض معرفـةً، وأكتنـز أفكاراً مهمـة. ففي السنوات السابقة كنت اكدس المعلومات، وأنتقي منها نصوصاً جميلة، بعضهـا اختزنته ذاكرتي، ومعظمها كنت أدونها في أوراق. عن الرواية وحدها، أعني عن موضوعها في الإطار النظري، كتبت عدداً كبيراً من الأوراق، بقيـت محفوظة في مكتبتي، مع عمـل روائي قصير كتبته فيما بعد، قبل رحيلي من العـراق، وقدمته إلى وزارة الثقافة والإعلام، لكنه لم يجـز، وقـال عنه المحكم إنـه محاولة فيها نفس حديـث جداً، لكنها لاتصلـح للنشر، لأنها متحررة أكثر ممـا ينبغي. وقد حاولت غير مرة أن أحصل على المخطوطة، التي نسيت عنوانها، وكل شيء فيها، لكنني لم أوفـق. وهذا لأنني لم أذهـب إلى العـراق، و لم أبحث عنها بنفسي. وما حك جلدك مثل ظفرك.

وأحببت في تلك الأيام أن أقرأ عن كل المحاولات المجددة في الفن، بما في ذلـك المحاولات العبثية، مثـل حركة «دادا». فرأيـت أن أكتب كتابـاً عن الموضوع، وفي سياق عملي نشأت لدي فكرة أن أكتب شيئاً لم يكتـب مثلـه في عالمنا العربـي. ورأيت أن أوظـف الرياضيات لهذه

المهمة. كنت أريد أن أضحك بواسطة الرياضيات. ذلك أنه ما من شيء يمكن أن يدعوك إلى الضحك مثل الرياضيات. وأنا أملك زمام هذه اللغة، فلم لا أركب المغامرة. إن أجمل ما في الموضوع، هنا، هو التعبير عن المنحنيات بلغة المعادلات؛ والتعبير عن لغة المعادلات بالمنحنيات أو المرتسمات... وأنا صرت أفكر على نحو فنطازي وسريالي. هل يمكن أن أجد معادلة للابتسامة؟ هذا شيء ممكن أن يحقق ذروة من ذرى السعادة. وأنا لا أفتقر إلى المخيلة، وإلى خفة الدم. كأن أستطيع أن أخلق انطباعاً منحنياً بالكامل من خطوط مستقيمة بالكامل(من خلال فكرة المماس أو المماسات). وفي الوسع تحقيق انطباعات جميلة من هذه المغامرة. ولعل قصة الذهاب إلى مخزن أوروزدي باك كانت أجمل مقاطع هذا الكتاب. وهذا الكتاب كان أشبه باطروحة، لذلك سميته الأطروحة الفنطازية.

وفكرت في طبع الكتابين اللذين أنجزتهما في آن واحد، أعني بهما كتاب (الدادائية بين الأمس واليوم)، وكتاب (الأطروحة الفنطازية) في بيروت. وقد يسر لي الشاعر البعثي حميد سعيد مهمة السفر، لأن العاملين في سلك التعليم كانوا ممنوعين من السفر في تلك السنة، ١٩٧٠.

# الفصل الرابع

سافـرت إلى بيروت، وأقمت في الليلـة الأولى في فندق يقع في حي بنـات الهوى، نتيجـة خطأ ارتكبه صديق ذكر لي عنـوان هذا الفندق، لا أدري كيـف. وقد نبهنـي سائق الحافلة التي تقلنا من المطار إلى أماكن إقامتنا إلى احتمال حصول خطأ. لكنني أكدت له أنني أثق في صديقي، الـذي أعطـاني العنوان. علـى أنني شعـرت أن الفنـدق لم يكن يوحي بالارتيـاح، رغم أنني لم أتعرض لأي إزعاج. وعندما اتصلت بالصديق والرفيـق إبراهيـم، الذي كان يقيم في بيروت، أستغـرب من إقامتي في هذا الفندق وهذا الحي. وجاء إليّ لينقلني إلى فندق آخر كان الجواهري ينزل فيه، وهو قريب من شارع الحمرا، وعلى الفور دبّر لي لقاء مع بلند الحيـدري. فاستلمني بلند، وصار يرافقنـي في كل حركتي في بيروت. ودبّـر لقاءً مع الراحل حسين مروة. ودعينا سوية في الجبل عند الدكتور علـي شلق، الـذي أظنه كان مترجماً لكتاب موسيقـي لرومان رولان، لعله عن بتهوفن. أنا أتعكز الآن على ذاكرة معطوبة.

وبالطبع حدثت بلند عن المهمة التي كنت قادماً من أجلها. فاقترح أن نفاتح نزار قباني لأن لديه دار نشر. ولدى مفاتحة نزار قباني، إعتذر مؤكداً أن داره للنشر لا تطبع إلّا كتبه. هنا عنّت لـ بلند فكرة هي أن يؤسس هو دار نشر، ويبدأ بطبع كتابي عن الدادائية. أما كتاب (الأطروحة الفنطازية)، فلم يجد نفسه قادراً على طبعه لكثرة ما فيه من رسوم وأشكال معقدة، فضلاً عن المعادلات الرياضية التي تتطلب مطبعة متطورة.

لكنه اقترح كمحاولة أخيرة عرض الكتاب على أدونيس، عله يجد حلاً بشأن طباعته. واتصل به وهو في الجبل، وأخبره بأن في صحبته علي الشوك وفي جعبته مخطوط كتاب يدير الرأس. فرحب أدونيس في استقبالنا. وذهبنا إليه في سيارة بلند الصغيرة الخضراء.

ليس هناك أغنى وأعذب من الجلسة مع أدونيس. كان استقباله إيانا ودياً جداً. وقدمني بلند ككاتب ذي اهتمامات ثقافية واسعة. وحثني على أن أقدم له مخطوطة(الأطروحة الفنطازية)، فلفتت نظره عندما أخذ يقلب الصفحات. وإلتمس مني أن يبقي المخطوطة عنده ليقرأها في الليل. وكان عليّ أن أسترجعها نهار اليوم التالي، لأنني عائد إلى العراق بعد يوم... وقدم لنا مشروباً وعشاء. وأسمعنا كونشرتو باغنيني على الكمان أول الأمر. ثم اسمعنا (كارمينا بورانا) بعد ذلك، وقال لنا إنه تكلم مع الأخوين رحباني من أجل الاهتمام بهذه المقطوعة المذهلة في أصواتها الغنائية والموسيقية. هذا كل ما أذكره من الحديث الذي دار بيننا قبل خمسة وأربعين عاماً. وفي اليوم التالي أعرب عن إعجابه بهذا العمل الفريد من نوعه. وقال إن زوجته السيدة خالدة أحمد سعيد، ودت كثيراً لو تتاح لها الفرصة للاطلاع

على هذا العمل الذي أثار فضولها. بَيْدَ أنني اعتذرت بسبب سفري العاجل.

وكان لتعذر طبع المخطوطة في بيروت فائدة غير متوقعة. ففي غضون زيارتي بيروت التقيت مصادفة في شارع الحمرا بزميل الدراسة في بيركلي، الدكتور (في الرياضيات) وليد السلام، شقيق خالد السلام، وأطلعته على المخطوطة، فلفت اهتمامي إلى كتاب رياضي مهم يقتني نسخة منه في بغداد، وخولني بأن أستلمه من أقاربه وأحتفظ به لي. كان الدكتور وليد السلام يُمضي سنة ساباتية في جامعة بيروت الأمريكية، قادماً من جامعة ألبرتا في كندا. وكان عنوان الكتاب (عالم الرياضيات)، ووجدته مفيداً جداً، وقد استفدت منه كثيراً قبل أن أدفع بالكتاب إلى الطبع في بغداد، بعد أن عرضته على وزارة الثقافة والإعلام، حيث تبنى السيد حميد سعيد مهمة طباعته.

وكانت طباعة الكتاب في مطبعة الرابطة. وقد أشرف على الطبع أحد تلامذتي عندما كنت أدرس في ثانوية الكاظمية للبنين. وكانت مراجعاتي لوزارة الثقافة والإعلام من أجمل الأيام. فقد صرت ألتقي بالمهندسة المعمارية (و. م)، وكانت تساعدني في طبع الكثير من المرتسمات. وفي غرفتها كانت تقدم لي البرتقال والفستق، والسكاير. وسأبقى أتذكر تلك اللقاءات بمزيد من الارتياح.

وكان صدور الكتاب في بغداد حدثاً في حد ذاته. وقد تلقفه المثقفون. وكتب عنه في العراق هادي العلوي، وفي لبنان محمد عيتاني، أو رضوان الشهال، لا أذكر بالضبط، فأنا لا أحتفظ بما كتب عن هذا الكتاب.

وأنـا كنـت أتوقع أن ينال الكتـاب اهتماماً أكبر مـن النقاد، رغم أن الكتـاب «عصـي» علـى القـراءة أو الفهـم لاشتماله علـى المعادلات الرياضية في الكثير من مقاطعه. لكنني أعتقد أن (الأطروحة الفنطازية) كانت ورقة اعتمادي أمام المثقفين العرب.

الأطروحـة الفنطازيـة كتاب غير تقليدي، وغـير مألوف بكل معنى الكلمة. كان كتاب الدادائية كتاباً أكثر تقليدية من الأطروحة الفنطازية. فهـو كتاب في فصول كأي كتاب آخـر. أما الأطروحة الفنطازية فكان شيئـاً آخـر، لا يشبهه كتاب، في لغتـه، وفي أسلوبـه، وفي مادته، وفي منهجه. ولعل كتاب (الدادائيـة بين الأمس واليوم) كان تمهيداً له. ففي كتـاب الدادائية كان هناك تحـرر مطلق في الكتابـة، أو الانفلات على غـرار شطحات دادا. لكن الأطروحة الفنطازيـة كانت أكثر من ذلك، أو غـير ذلك، ربما بلغتهـا الرياضية التي أعطت الكتـاب نكهة جديدة تتجسـد في لغة أخـرى إضافة إلى اللغة الأدبيـة والشعرية المعتمدة. هنا دخل عنصر جديد في الكتابة وفي التعبير، هو عنصر المعادلات الرياضية، إلى جانـب عنصر المخيلة الهائلـة في شطحاتها، كمحاولة إيجاد معادلة رياضيـة للابتسامـة، كما سبقت الإشارة إلى ذلـك. وسأقول شيئاً، هو أنـي حين كتبـت الأطروحة، كنت أشعر أنني في إجـازة خاصة جداً، خـارج الواقع الذي كنت أعيش فيه. إجازة في عـالم ألس العجائبي. لكأنني شربت إكسـيراً فنتازياً أو سورياليا حين شرعت بكتابة الكتاب. مرة أخرى أقول إن هذا الكتاب لم ينل حقه من النقد. لكنني سأنقل هنا رأيـاً لفاطمة المحسن جميلاً في حق الكتاب، وإن جاء متأخراً (نشر في ٢٠١٥ في كتابها تمثـلات الحداثة في العراق). قالت فاطمة عن كتاب الأطروحة الفنطازية:

«انـه خلاصة ثقافة رفيعة جمعت الرياضيات إلى الموسيقى والأدب، وهو يبدو على موجة تتخطى مـا يسمى الغموض الشكلاني، وتشكل اختباراً عقلياً لاشعرياً فقط، للحداثة الفنية والأدبية، أو تلك التي تقترب مـن المنحى السوريالي في الكتابة. «الأطروحـة الفنطازية» التي لم ينتبه إليها النقد العراقي ولا العربي، تقارب كتابات بورخيس الموسوعية التي يتنقـل فيها المؤلف عـبر عالم شاسع من الخطابـات واللّهجات الثقافية، وعلـى نحو فائق التشويق. إن ثقافة الشـوك التراثية والحداثية، وقراءاته في ميادين مختلفة، يضعها في هذه «الأطروحة».بما يشبه المشهدية النادرة في الكتابة التجريبية العربيـة. فهي تزخر بالمعلومات حول طيف واسع من الثقافات: الموسيقـى، الرياضيات، الهندسة، التراث العربي، الشعر الحداثي العالمي، النثر العربي والغربي، وكل ما يشكل عالماً فنطازياً عابراً للأجناس الإبداعية».

وقال علـي عبد الأمير: «اشتريـت كتاباً لطالما أحببتـه، وكوّن معا لم ذائقتـي في الأدب والفـن والعلـوم. كتاباً كنـت اقتنيته يـوم صدوره، وكعـادة أقراني في تلـك الفترة، أهديته إلى صديقـة، تعبيراً عن إعجابي بهـا. أنه كتاب (الأطروحة الفنطازية) للكاتب الموسوعي علي الشوك. الكتـاب الذي لم أتردد في اعتبـاره واحداً من أحسن عشرة كتب عربية صـدرت في القرن الماضـي ضمن استفتاء ثقافي أجرتـه صحيفة عربية تصدر في لندن».

مـع ذلك أذكر أن هناك شخصاً، هـو (س. س. ن) مسح الأطروحة الفنطازيـة بالأرضـ. اعتبرها عملاً من الوزن الخفيـف، ربما لما تنطوي عليـه من روح نكتة. وأنا أعـترف أن روح النكتة طاغية عليها. لكن لِمَ لا؟ إن روعة المقطع المتعلق بزيارة البطل لمخزن أورزدي باك تتجسد في

روح النكتــة. وأنا اعترف بأن هذا المقطع، الــذي كتب في صيغة قصة كان مــن أجمل وألذ ماكتب في اللغة العربية. أحدهم قال لي: إنه أروع ما في الأطروحة.

كانت الأيــام الأولى من حكم البعث الثاني تمضي بهدوء نسبي، خلا اعتداءات غــير مكشوفة على بعض كوادر الحــزب الشيوعي. وكانت الجبهــة الوطنية بين الحزب «القائد» والحــزب «المقاد» تمارس أعمالها. ولســوء حظ نوري السعدي إن اجتماعــات قيادة الجبهة أصبحت تقام في بيتــه رغماً عنــه، لأن شقيقته (س) كانت سكرتــيرة سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وكاد نوري السعدي يهم بطرد ممثل حزب البعــث نعيم حداد من بيته، لــولا أنه فطن إلى عواقــب ذلك الوخيمة. وكنت من بين مهدئي نوري.

وأنــا انسحبت من الهيئــة الأدارية لاتحاد الأدبــاء العراقيين في السنة الثانيــة، لأنني ما كنت أريد أن أشارك في مباركة الحكومة في سياستها، مثل تأميم النفط وغير ذلــك. لكن أحدهــم نصحني بأن أشارك في هيئة تحرير مجلة الاتحاد، لئلا أبدو متخذاً موقفاً سلبياً منهم، وقد لايرحمون.

في ١٩٧٣ تقرر انعقاد مؤتمر الأدباء العرب في تونس. وقد تم اختيار أعضــاء الوفد العراقي من بين الهيئة الإدارية للاتحاد. لكنهم لاحظوا أن الكلمــة التي كلف الوفد العراقي بإلقائهــا في تونس هي حول (الأدب العربــي والثورة التكنولوجيــة في القرن العشريــن). وهنا لاحظ شفيق الكمــالي، رئيس الوفد الفعلي (كان الجواهــري رئيساً فخرياً)، أن هذا الموضــوع لايصلح لكتابتــه غير علي الشوك. فاتصلــوا بتونس لإضافة اسمي، وكلفوني بإعداد الكلمة.

وكانـت إقامة وفدنـا في فندق البحـيرة. وفي جلسـة الافتتاح كان الحبيـب بو رقيبة حاضراً. وقد افتتح الجلسة وزير الثقافة، على ما أذكر. وقبـل أن يتم كلمته، نهض بو رقيبة، فقطـع الوزير جملته، وتنحى عن المنصة لبو رقيبة. هذا مشهد لا يحدث إلا في بلد عربي، مع أن بو رقيبة كان أرحم حاكم عربي.

عندما جاء دوري ألقيت كلمتي بشيء من السرعة، لأن كلمتي كانت طويلة. واعترف بأنها استقبلت بنجاح. وكدليل على ذلك أن التلفزيون التونسي أجرى معي حواراً حول الكلمة.

وقـرر وفدنا أن تكون عودتنا عن طريـق باريس، لنمضي فيها بضعة أيـام. وكنت أنا وفـؤاد التكرلي ويوسف الصايغ نتحـرك سوية. وكان فؤاد دليلنا بحكم معرفته بباريس. واشتريت لزوجتي بدلة أنيقة، وأشياء أخرى أوصتني بها.

نحن في عـام ١٩٧٣. وسينعم العراق بهدوء نسبي في ظل الخطاب البعثي. لكـن الحكم سيتعرض إلى هزة صغـيرة غامضة في محاولة مدير الأمـن (ناظـم كزار) القيـام بانقلاب لم يكتـب له النجـاح. ويبدو أن حكـم البعث سيتكرس أبـد الدهر، وسيتعزز الحكـم الفردي يوماً بعد يوم. وتعين علينا أن نتكيف مع هذا الوضع الغاشم، ونحاول النأي قدر الإمـكان عن الاحتكاك بكل ما من شأنه أن يسبب نكداً. كان يبدو أن العـراق سيعيش «ألف عام» من الحكم الفاشي. ذلك أن السلطة كانت تخطط لتبعيث كل الوطن. لكنها لم تكن على عجلة من أمرها.

أمـا نحن فكنا نحاول أن نعتـزل في «جزرنا» قدر الإمكان. نحن لم نعد نجد المجتمع مجتمعنا. لقد صادره البعث، وجعل كل الأماكن العامة

غـير صالحة لأرتيادها. فاعتكفنا في منازلنـا، واقتصرنا في حركتنا على الأماكن التي تعود إلينا وإلى أقاربنا.

وأنـا كنـت لا أزال أتمتـع بنوع من الاحـترام بين الأوسـاط الثقافية البعثية. أنا والكّتاب اليساريون. استطعت مثلاً أن ألبي دعوة من اتحاد الكتـاب السوفييت لحضور مؤتمر لمترجمـي الأدب الروسي. كنت في هـذه الدعوة زائراً فقط. لم أكلف بإلقاء كلمة أو محاضرة. وهذا أراحني كثيراً. وفي جلسة في مقر فندق (روسيا)، في صحبة غائب طعمة فرمان تقربـت إليّ امـرأة أوكرانية، لعلها كانت طامعـة في جيبي، وطلبت أن نذهـب إلى غرفتي. وهناك طلبت منـي أن أستعير كبريتة لسيكارتها من القائمـة بخدمة الطابق. فرفضت أن أذهـب خشية من أن تسرق سترتي. فأزعجها ذلك. وقبلتني وخرجت. ثم قالت لغائب الذي كان ينتظرني: «اذهب إلى صديقك لتطمئن عليه».

وفي السنـة التالية، لعلها ١٩٧٧ ذهبت أنا عـن الشيوعيين، وخالد علي مصطفى عـن البعثيين إلى رومانيا تنفيذاً لاتفاقيـة التبادل الثقافي. وهنا التقيت بأخـي رضا وبزوجته الروسية غالينـا. واغتنمت الفرصة لألتقـي بأحد مؤسسـي حركة دادا، لعلـه يانكـو (لا تسعفني الذاكرة جيداً). وكان لقاء ظريفاً.

سأعترف بـأن السنوات العشر الأولى من حكـم البعث الذي انتهى في ٢٠٠٣ كانت أقل وحشية وعذاباً. فالمحن والشدائد بدأت منذ عام ١٩٧٩، وهـو عام رحيلي من العـراق لحسن الحظ. في تلكم السنوات العشر كنا نحيا حياة شبه طبيعية.

كانـت لقاءاتنـا يومية مع نوري السعـدي وأحياناً هنـاء أدور عندما

تكون في العراق. وكان قد نشأ تقارب بين نوري السعدي وهناء أدور. فكانت سهراتنا يسودها الحب. وكان نوري السعدي يزود البيت بصناديق الويسكي من طراز shevaz Rigal، وأكياس الفستق، والبطاطا الجافة المقلية. وكنا نقدم الطعام. وكانت أم زوجتي تُعد كبة حلب لذيذة جداً؛ وزوجتي باسمة تعد وجبة تمّن برياني شهية جداً. وكانت الجلسة لا تخلو من الموسيقى، وأحياناً كنت أسمعهم أوبرا بكاملها.

وكنت ألتقي أحياناً بفؤاد التكرلي، ويوسف الصائغ. وكان التكرلي يكتب روايته (الرجع البعيد)، وكان يسعدني أن يحدثني عنها، لكنه أكد أنه يكتبها ببطء. وكان يوسف الصائغ يكتب شعراً لقي رواجاً في مهرجانات المربد. مثل قصيدته الشهيرة (انتظريني عند تخوم البصرة). وأنا حضرت إحدى هذه المهرجانات في البصرة. وكانت هناء أدور يومذاك موظفة في البصرة. وصارت ترافقني لحضور الفعاليات الثقافية. وعرفتني بعائلتها عندما دعتني على غداء يشتمل على وجبة كبة كانت من ألذ وجبات الكبة التي أكلتها في حياتي. وقدمت لي بيرة أيضاً. ان صحبة هناء أدور تجعل المرء يشعر أنه ليس في العراق، بل في الغرب. أهذا لأنها مسيحية أيضاً؟

مع ذلك كله أنا أبقى أشعر أن العراق لايصلح لي، لولا صداقة نوري السعدي. قلت له: «نحن نزداد اختناقاً يوماً بعد يوم. منطقة الكرادة، منطقتنا، نحرم اليوم من الذهاب إليها، وحتى أعماق شارع أبي نؤاس».

قال: «عندك بيتك الجميل، وبيتي، وزهور الغاردينا التي أزودكم بها، وابتسامات باسمة، وهناء».

«لكن الجو الخانق ينغص علينا حياتنا».

«تعلــم أن الإنسان يستطيع أن يعيش في كل الأجواء، وتعلم أننا نحيا في جزيرتنا».

كنــت أعلم ذلك، لكنني لم أجرؤ أن أقول له وبحضور زوجتي انني كاتب، وهــذا يجعلني أشعر أنني أكثر إحساســاً بالاختناق. أنا أريد أن أكتــب رواية عن معصوبي العينين، روايــة مكرسة لعدنان البراك، وعن زوجته (س)، وإفروديت.

سألته: «أين هي أوراقي؟»

«أوراقك؟»

لقد مضى أكثر من خمس سنوات على قصتي المجهضة مع إفروديت. وأنا أُسيء إليّ كثيراً بالكشف عن أوراقي، وضياعها.

«نعم، أوراقي، يا عزيزي، أنا لم أسألك عن مصيرها».

قــال: «تعلم أنني كنت محرجاً جداً أمــام أبي بعد أن قرأها. وتعلم أن هذه كانت أوراقاً خاصة جداً موجهة منك إليّ فقط. وعندما قرأها أبي، وواجهنــي بها، شعرت أننا، أنت وأنا، كنا عاريين أمامه، ومذنبين. و لم أدر مــاذا أفعــل. هل تعتقد أنني كنت في وضــع أستطيع فيه أن أفكر في استرجاع الاوراق؟»

«لكن ماذا كان مصيرها؟»

«لا أدري».

«أليس من حقي ان اطالب بها؟»

«آه، أنت تثير مسألة قانونية. الأوراق أصبحت أوراقي بعد أن كتبتها

إليّ. وكان يمكـن أن تكتـب نسخة أخرى منهـا لتحتفظ بها. لكنك لم تفعـل. مع ذلـك، أنا أتحمـل مسؤولية ضياعها. وكان ذلـك جبناً مني وإحساسـاً بتأنيب الضمير، لأنني كنت مداناً أمام أبي بالاستهتار بقيمنا التي تقضي بأن لا أسمح لصديقي بأن يتغزل بأختي».

كنـت أفكـر في الأوراق من منطلـق أدبي. كنت أريـد أن أستعملها كمادة مهمـة في مشروعي الروائي، الذي سأتطـرق فيه إلى فضيحتي، وإلى زواج رفيقـي عدنـان البراك بمسببة فضيحتي، هـذه المفارقة في أن تصبح مسببة شقائي زوجة أقرب رفيق لي.

وبعـد ذلك أتحـدث -في مشروعي الروائي- عـن كل الرفاق الذين ذاقـوا الموت والهوان في قصر النهاية. لكن ما جدوى ان أسأل صديقي نـوري السعـدي عـن أوراقـي إذا كان متعـذراً عليّ الكتابـة عن هذا الموضوع؟

مع ذلـك كنت يومذاك أشعر أنني فقدت أعـز شيء في حياتي، وأن فرصـة ثمينة للكتابة ضاعت مني بضيـاع تلك الأوراق. وبقيت عاماً، عامين، ثلاثة أعوام عاجزاً عن كتابة أي شيء.

لأنني فقدت تلك الأوراق.

وفي تلك الأيـام كانت تصدر مجلة المسرح المصريـة التي كانت تقدم مسرحيـة عالمية في كل شهر (على ما أظـن). وأصبح عالم المسرح تحت متنـاول أيدينا، مثل مسرحيات آنوي، ويوجـين يونسكو، ودورنمات، وغيرهم. وأعجبنا كثيراً بمسرحية (بيكت) لجان آنوي. كما عرض فيلم عن هذه المسرحية في دار سينما جديدة افتتحت بها عروضها، تقع هذه الـدار مقابل سينما النصر تقريبـاً. وكان الفيلـم حدثاً فنياً في تلك الأيام.

مثّل فيه بيتر اوتول دور الملك هنري الثاني، وريتشارد بيرتن دور توماس بيكيت. وقد شاهدته في صحبة زوجتي باسمة (العزاوي)، ونوري السعدي، وربما هناء أيضاً. وأذهلنا المشهد الأخير الذي يطلب فيه الملك من أحد مرافقيه أن يضربه بالسوط أمام قبر بيكيت، وهو يقول مخاطباً القبر: «هل يكفيك هذا؟» وأنا لا أذكر هل جاء هذا المشهد في نص المسرحية، أم كان إضافة من مخرج الفيلم.

وأنا أصبحت غارقاً في عالم المسرح، فكتبت مسرحية عن سقوط بغداد على يد التتر، أسميتها (الغزاة). وكان بطلها الرئيسي الموسيقي صفي الدين عبد المؤمن الأرموي البغدادي، مغني الخليفة المستعصم. وقد مثلتها الفرقة القومية (في ١٩٧٥). لكن المسرحية تعرضت إلى النقد بسبب قلة خبرتي بفن المسرح.

ثم بدأ اهتمامي بعالم اللغة. وهنا بدأت مرحلة جديدة وطويلة من اهتماماتي الثقافية. وبدأت بكتابة مشروع في اللغة بعنوان (الجذور المشتركة بين اللغات السامية–الحامية واللغات الهندية–الأوروبية). وجندت نفسي لهذا المشروع؛ كنت أستعير مجلدات المعجم الآشوري اصدار جامعة شيكاغو، من جاري الدكتور فوزي رشيد، مدير المتحف العراقي؛ وألجأ إلى قواميس عبرية، وآرامية؛ وقواميس يونانية، ولاتينية، وسنسكريتية. فضلاً عن القراءات حول هذا الموضوع. وفرغت من كتابة مخطوط حول هذا الموضوع. وقدمته إلى وزارة الثقافة والإعلام لتبت في أمر نشره. وقد رحبوا أول الأمر بالفكرة وباركوها، ووعدوا بأن يقدموا لي مبلغاً مجزياً من المال لقاء طبعها. لكنهم بعد قراءة المخطوطة غيروا رأيهم، وطلبوا مني أن أغير اسم اللغات السامية الحامية إلى اللغات العربية، أو شي من هذا المعنى.

وبهذا الصدد، كان الأستاذ طه باقر قد جاء بنظرية حول اللغات السامية، أطلق عليها تسمية اللغات الجزرية (نسبة إلى جزيرة العرب)، لعله بضغط منهم، أو مجاراة لهم. وأنا رفضت ما أرادوه مني. وكان ذلك وشيك مغادرتي العراق. فحملت المخطوطة معي إلى خارج العراق.

كان مشروعي اللغوي شاغلاً لي من الفراغ الذي إبتلعني بعد الأطروحة الفنطازية والدادائية. فالمسرحية كانت محاولة فاشلة. وهذا يعني أنني لا ينبغي لي أن أكون شديد الثقة في نفسي. فأنا لست سوبرماناً. لكن هل سأبرهن على جدارة في موضوع اللغة، والموسيقى، والفيزياء، وأفشل كلما تصديت إلى عالم المسرح؟ وهل ستكون تجربتي مع الرواية فاشلة أيضاً؟ بالمناسبة نشرت كتيباً جميلاً عن الموسيقى الإلكترونية في سلسلة (الموسوعة الصغيرة)، نال إعجاب نجيب المانع، كما أخبرني المشرف على الموسوعة موسى كريدي. لكنني سأتعامل مع اللغة بمزيد من الحذر. فهنا أنا سأمشي على بيض، لأن اللغة ليست اختصاصي... هل سيحسن بي أن أتعامل مع اللغة من منطلق لا أكاديمي؟ لست أدري. فأنا قد أتعامل معها من منطلق أكاديمي أيضاً.

لكن الأوضاع السياسية بدأت تصبح مثيرة جداً للقلق في أواخر السبعينات. ففي إيران أبعد الشاه وحل محله حكم ديني. وعندنا تلاحقت أحداث تركزت فيها السلطة بيد البلطجي صدام حسين. وهذا سيتم على نحو دموي يذكر بليلة السكاكين الطويلة في ألمانيا في ١٩٣٤. وسيتم تكبيل كل يدين في العراق بإقسار الجميع -تقريباً- على الانتماء إلى حزبهم. و لم أستثنَ أنا. أخبرني مدير المدرسة التي أدرّس فيها، وهو بعثي شريف، أنهم زاروه، وطلبوا منه أن يفاتحني

بالانتمـاء إلى مكتب المعلمـين الحزبي. فحاول أن يثنيهـم عني. وقد أفلح بعض الوقـت. لكنهم عادوا ثانية. فأرسل في طلبـي، ونصحني بأن أترك العـراق، وكان العـام الدراسـي علـى وشـك ان ينتهي. فاتخـذت قراراً بالرحيل.

كان ملتقى الأصدقاء يتم عندي، في بيتي دائماً. وكانت الثلة تتألف من فتاح حمدون؛ وغـانم حمدون قبل رحيله؛ وماجد علاوي شقيق إبراهيم علاوي رئيـس جماعة الكفاح المسلـح؛ ونوري السعـدي؛ وخالدة ابنة أخيـه؛ وزوجتي، وأنا. كانت زوجتـي الآن مبتئسة جداً لأخباري، لكنها كانت مقتنعة بقرار الرحيل لئلا أحترق.

أما نـوري السعدي فـكان الابتئاس باديـاً عليه بوضـوح. كان شديد الجزع. لماذا سيكتب عليّ أن أهجر وطني وأتشرد، ولماذا سيخسر صحبتي، التي نيفت على ربع قرن.

وأمـا أنا فكنـت حزيناً حقاً لأننـي سأضطر إلى هجـران بيتي الجميل، وزوجتـي، وابنتي زينـب، التي نشأت بينـي وبينها علاقـة حميمة جداً، بفضـل ذكائها وتعلقها بي. فأنا لا أنسى ظرفها عندما كنا سوية (مع أمها) في السيارة التي كنت أسوقها في شارع ١٤ رمضان، وهي تقول لي: «بابا، لا تسق سريعاً لكي يتسنى لي أن أقرأ لافتات الدكاكين». ولا أنسى حضور بديهتهـا الشعريّـة عندمـا أهديت لنا علبـة «لوزينة»، وسألتنـي: «ماهذه بابـا؟» فقلت لها: «شيء مثـل البقلاوة». فقالت للتـو: «شسمه وشسمه وشسماته؟» كان عمرها سبع أو ثماني سنوات.

قلت لأصدقائي: «ها هو خوف أبي من الحكومة يتحقق. كان يقول لي دائماً: احذر من الحكومة ابني». وهذا الرهاب من الحكومة يذكرني بقصة

رواهــا برتراند راســل في كتابه (السلطة). قال راســل: كان بوذا يسير مع خادمــه في غابة، وصادفا امرأة عجوزاً جالسة امام قبر وهي تبكي. فطلب بوذا من خادمه أن يسأل العجوز لماذا تبكي. فقالت: ابكي على ابني الذي افترسه النمر. فقال لها بوذا: لكن ألا تخافين أن يفترسك النمر هنا؟ فقالت له: النمر أقل خطراً من الحكومة، يا سيدي.

هنا قال ماجد علاوي: «هل تحبون أن تكونوا بمنأى...... عن الحكومة ولو لبضعة أسابيع؟ أستطيع أن أوفر لكم مدينة فاضلة على أتم ما يكون.

«كيف؟» سأله نوري السعدي.

قــال ماجد علاوي: «تعلمــون أن مقاولة ثانوية رست عليّ لمد خط من الشــارع العــام بعد مدينة السعديــة في محافظة ديالى إلى بلــدة كوردرة. أو كوردلــة، التي ستزال مــن الوجود، ويقام في مكانها ســد. المنطقة جميلة نسبيــاً، ومنعزلة عــن الدنيا تقريباً، وعن الحكومــة. في وسعنا أن نقيم فيها مدينــة فاضلة لعدة أسابيــع، أو إلى أن ينتهي مد الطريق الذي رسا عليّ. ما رأيكم؟».

تلقــف نوري السعدي الفكرة على الفــور، وقال: «هذا أروع مشروع يتفتق عنه ذهنك، يا سيدي! أنا أثني على الفكرة، وعلى استعداد للمساهمة في إنشاء هذه المدينة الفاضلة».

قــال ماجد علاوي: «لن يتطلب الأمر جهــداً كبيراً. نصنع مدينتنا على قــدر عددنا، نحن ومن يرغب مــن الأصدقاء. لن نكون في حاجة إلى أكثر مــن كوخ كبير وفضاء. ولدينا نهر هو نهر ديــالى، وفيء ونستطيع أن نوفر كل شيء ما رأيكم؟».

فقلت: «هذا شيء جميل حقاً، لكنني على سفر، مع أنني لا أحب أن أضيع هذه الفرصة».

عقب ماجد علاوي: «وهل ستسافر غداً؟ أمامك العطلة الصيفية بكاملها، وفي وسعك أن تبقى معنا أسابيع».

آه، لا جدوى، فأنا ملاحق الآن، ويريدون أن يحرقوني، وقد يعتقلونني إذا أصررت على الممانعة، ويعرضوني إلى محنة أخرى. لذلك لن أتأخر في العراق. هذا هو القرار الذي اتخذته. لكنني أريد أن أبقى أياماً في المدينة الفاضلة.

وأنشئت المدينة الفاضلة بكل متطلباتها الرافهة خلال أسبوع. وقد ذكرت كل هذه التفاصيل في رواية (السراب الأحمر). وفي الرواية كانت هناء أحدى مواطني المدينة الفاضلة تحت اسم (مريم)، لكنها في الواقع كانت في ألمانيا (الشرقية) يومذاك. وأنا جعلت فريقها الذي يشتمل عليها، وعلى نوري السعدي، وعلى هشام المقدادي، ينفردون للسباحة عراة في نهر ديالى، بعيداً عن الأنظار. وعندما عرضت المخطوطة على غانم حمدون ليقرأها، اعترض بشدة على هذا المشهد، وهدد بقطع صلته بي إذا أصررت على ادراجه. فألبستهم لباس السباحة.

كان ذلك المشوار في المدينة الفاضلة من أسعد المشاوير في حياتي. وقد تحدثت عنه في الرواية بشيء من الإسهاب. ثم تركت أصحابي في مدينتهم الفاضلة. وهاجرت إلى الخارج، إلى غير رجعة على ما يبدو.

# الفصل الخامس

ذهبت إلى تشيكوسلوفاكيا في صيف ١٩٧٩. وهو العام الذي غادر فيـه الكثير من اليساريين العراق. ومنذ ذلـك التأريخ انتهى انتسابي إلى العـراق، وأصبحت مواطناً بلا وطن، وقد خلفت ورائي زوجة، وطفلة عمرها ثماني سنوات، وأخرى عمرها عام واحد.

كان في استقبالي في المطار جيان، الذي كنت قد أخبرته مسبقاً بموعد وصولي، وكان قد حجز لي غرفة في فندق، لكنني لم أستلم حقيبة السفر عند وصولي، ثم استلمتها في الأسبوع التالي. وفي غضون ذلك اشتريت ملابس البيت مع أشيـاء أخرى. والتقيت برفاق قدامى وجُدد من بينهم مجيد الراضي، وفالح عبد الجبار، وأبو كاطع. وسرعان ما أصبح ابو كاطع خـير رفيق لي. وعرفنـي بصديقته هنكا، التـي في إحدى رجليها عرج؛ وبصديقـة لصديقته، سرقت منـي فيما بعد مئتـي دولار. (لم تكن بيني وبينها علاقة). والسرقة حدثت في بيت أبي كاطع عندما كنا نائمين فيها ليلاً(وكانت في صحبتي الصديقة الألمانية Inge التي سآتي إلى ذكرها).

وعندمـا علمت هناء بنبأ وصولي العاصمـة التشيكية، أخبرتني بأنها ستغتنم الفرصة وتزورني من برلين (الشرقية).

جـاءت في صحبة روزمـيري ممثلة نساء كندا، وابنهـا نيل. أقمنا في مقر اتحـاد الطلبة تحت اسم (كايا كاتانكا)، وهو اسم فيتنامي. وسرعان مـا انسجمنـا جميعاً، وتعلق بي نيل لأنه يفتقد أبـاً بعد ان انفصلت أمه عن أبيه.

وسألتني هناء: «هل جئت في زيارة؟»

«لا، هرباً»

«هرباً ممن؟»

«منهم»

ورويت لها السبب.

فقالت: «وأين ستعيش؟»

«لا أدري»

«كنت أريد أن أزور نوري السعدي»

«لا تزوريه»

«هل ساءت الأمور كثيراً؟»

«قلت لها إنها ماضية في التَردي. ألم تسمعي عن تصفية قيادة حزب البعث؟»

«سمعـت. ماذا يجري في منطقتنا؟ هل هناك ترابط بين ما جرى في إيران، وما يجرى في العراق؟»

«لا أدري».

«سأدعوك لمدة شهر لتكون في ضيافتي في برلين. هل نستطيع الاتصال بالصديق نوري السعدي؟»

«لا أعتقد. ثم إنه الآن خارج الجغرافيا».

«ماذا تقصد؟»

رويت لها مشروع «المدينة الفاضلة»، فضحكت.

وسألتني عن مشاريعي، فقلت لها إنني جئت إلى تشيكوسلوفاكيا طلباً للحماية. فأنا أعلم أن لجنة التنظيم الخارجي مقرها براغ، وآمل أن لا يعاملوني كخارجي.

قالت: «ولو. وماذا عن مشاريعك الكتابية؟»

«لدي مخطوطة، وأنا أبحث عن مستشرق لأعرضها عليه».

«لكن كيف ستعيش؟»

«لا أدري حتى الآن».

كنت أحمل معي بضعة آلاف من الدولارات، وهذه تكفي لإعالتي في البلدان الاشتراكية حوالي عامين. وفي غضون ذلك سأبحث عن مصدر للعيش، ربما الدراسة للدكتوراه على حساب دولة من الدول الاشتراكية. لكن «الإقامة» كانت هماً أساسياً. عند اقتراب موعد نفاد إقامتي، أوصلت خبراً إلى الحزب بذلك. فتم تدبير الإقامة لا أذكر كم شهراً. وبعد ذلك أوصلت خبراً جديداً إلى الحزب، فأرسلوا إليّ «ابو سرود»، وهو رجل متحجر (بالفعل هو من المتحجرات)، أفهمني بأنني

مـا كان ينبغي أن أترك العراق لأزاحم رفاق الحزب في إقامتهم! لو كان في وسعي أن ألطمه على وجهه لفعلت.

لكـن الحزب لم يشـأ أن يفرط بـي. وأرسل إليّ محمـود البياتي لتلبية متطلباتـي. الإقامـة تمـددت، ثـم تكفل محمود بـأن يرافقنـي لمواجهة مستشرق. فأحب المستشرق أن يقرأ مخطوطتي.

ثم التقيت بالمستشرق بعد قراءة المخطوطة، فقال لي:

«ألم تسمع بكتاب إيليتش سفيتش؟»

قلت: «لا».

قـال: «في هذا الكتـاب يناقش المؤلف العلاقة بـين ست مجموعات لغوية. وعملك لن تكون له قيمة والحالة هذه. مع ذلك في وسعك نشره في كتاب. لكنني أنصحك بقراءة كتاب إيليتش- سفيتيش».

شعرت كم نحن متخلفـون بالمقارنة مع الآخرين. لاسيما الروس أو السوفييت. وبالاستعانة بالأخ محمود البياتي ذهبت إلى مكتبة الأكاديمية في بـراغ لاستعارة الكتاب. لكن المكتبة ليـس لديها سوى جزء واحد مـن جزأيـن. فاستعـرت الجزء، وبقيـت أبحث عن الجزء الثـاني. فبعد عـام بالضبط ذهبت إلى لندن، وبحثت عـن الكتاب في مكتبة المتحف البريطـاني، وهي من أكبر المكتبـات في العا لم، فلم أجده هناك. وسألت عنـه في مكتبـة جامعة لنـدن، فلم يوجد لديهـم. وعندمـا انتقلت إلى بودابســت في ١٩٨١، وسألــت عــن الكتاب فلم أجــده. ونسيت أن أقول إنني اتصلت في حينها بغائب طعمة فرمان في موسكو، فأفاد بأنه لم يجد الكتاب في المكتبات (التجارية ربما). ولعله لم يسأل عن الكتاب

في المكتبـات الأكاديمية حيث ينبغي ان يوجـد فيها. وهكذا بقي لي أن أستفيد من الجزء الأول من الكتاب فقط، مع أنه مصدر لايمكن الاستغناء عنه.

وماذا فعلت؟ استنسخت معظم مادة الكتاب بيدي. مع انه مكتوب بالحروف الروسيـة (السيريلية)، واللاتينية. وأمضيـت أيامي التشيكية مـع هذا الكتاب المجتزأ. فاتنـي أن أقول إن الكتـاب اسمه (محاولة في المقارنة بين اللغات). وكانـت قراءته تتطلب جهداً لأنه يضج بالرموز، التي بقيت أجهل بعضها.

لفـت انتباهي الكلمة التي تقـال للأيّل (الظبي الكبـير). فقد كانت مشتركـة في أربع مجموعـات لغوية، هي السامية–الحاميـة، والهندية–الأوروبيـة، والألطائيـة، والدرافيديـة. وأنا ربطت بين كلمـة (الأيّل) وكلمـة (إيل) التي تقـال للإله في اللغات الساميـة. وذهبت إلى أنه من المحتمـل أن الأقوام السامية كانـت تعتبر الأيّل طوطمـاً أو إلهاً. وهذا سيدعـوني إلى أن أنصرف إلى عالم اللغة. لكن قدري الآخر سيتحقق أو يتقـرر بواسطة المرأة. وهذه المرأة لن تكون غير هناء.... ذلك أن جميع «نسائـي» جئن إلي عن طريقها، بصورة مباشرة و غير مباشرة. وأنا الآن سأرجـئ الحديث عن عالم اللغة الذي ارتبطت به معظم عمري، وأعود إليـه فيما بعد، لأنني سأعتبر لقائي بهناء في سنة ١٩٧٩ كان نقطة تحول في حياتـي، مثلما كان لقائي بهـا في ١٩٦٦ عندما تم التعرف بزوجتي عن طريقهـا، ومن خلال زوجتي تم التعـرف بالسيدة (ف. ب)، التي كان تعـرفي بهـا وسيلة غير مباشـرة لتعرفي بالسيـدة (غ)، التي غيرت مجـرى حياتي، وكانت ملهمتي في ابتعـاث مشروع الرواية الذي كنـت أفكر فيه منذ اتخاذي القرار أن أصبح كاتباً.

آه، أنــا أبــدو هنا غامضاً وضاغطــاً للإحداث. لكنهــا ستتضح فيما بعــد. فأنا الآن سأروي قصة لقائي بهنــاء في أوروبا، التي تطرقت إليها بإيجاز قبل الآن. وسأزعم، بالتالي، أن هناء كانت أهم امرأة في حياتي، وأقربهن إلى نفسي. وأنا هنا لا أعني بذلك أن هناك حباً. أو عشقاً بيني وبينها. أريد أن اقول: إن هناء كانت وما تزال أكثر من عائلة بالنسبة لي. فأنا كنت أعتبر علاقتي بها في مستوى علاقتي بنوري السعدي.

كانــت هناء منتمية إلى قضية أكثر مــن انتمائها إلى نفسها. فأصبحت محترفــة سياسة في البدء، ثم نــذرت نفسها إلى العمل الإنساني فيما بعد. وكما قلــت هي لم تكن تؤمن بالــزواج. واصبح «الحــزب» بيتها أول الأمــر. وقــد أوكل الحزب إليهــا مهــام سياسية ذات صفــة تمثيلية (في الخــارج) بفضل إتقانهــا اللغة الانكليزية، وفيما بعد شيئــاً من الألمانية. وفي أيــام «انفتاح» حكومة البعث كانت تستطيع زيارة العراق من مقر عملها في الخارج (برلين).

ولا أذكر هل كانت تبيت عندنا أم عند صديقة لها. وفي كل الأحوال كانــت سهراتها بحضــور نوري السعــدي تقضيها عندنــا حتى ساعة متأخرة من الليل. وهي تجد حريتها معنا، فتصبح واحدة من العائلة.

(منــذ بدأت كتابة مذكراتي هذه، سألتها هل استطيع ان آخذ حريتي في الــكلام عنهــا، فأعطتني الضوء الأخضــر. لكنني سأكتفــي بالضوء الاصفــر، استجابة إلى رغبة ابنتي العزيزة زينب في أن أبقى متحفظاً في كتابتي).

كانــت هناء تخلق جواً منفتحاً ومتحرراً في لقاءاتها معنا. وهذا الجو يجــد متنفساً له بحضــور نوري السعدي المذهل في تحــرره. وأنا أعتبر

تلك الأيام السبعينية – لاسيما النصف الأول منها – أهنأ وأسعد أيامنا على الإطلاق.

أنا كنت أبحث عن امرأة متميزة، أو مختلفة. وسأكتشف أن هذه المرأة المختلفة هي هناء، مع أنني كنت أتمنى لو أنها لم تختر طريق «النضال»، لأن النضال يسحبها إلى المجموع. لكنها على أية حال ستبقى امرأة مختلفة رغم نزعتها «الجماهيرية». كنت أتمنى لو أنها أصبحت كاتبة. وهذا ما توهمته في زوجتي، التي كانت قارئة ممتازة. هناء لديها القدرة على الكتابة، ولست أدري لماذا فرطت بمقدرتها هذه. لكنها ستذهلني كمتحررة.

أرسلت إليّ دعوة لزيارتها في برلين (الشرقية) لمدة شهر. كان ذلك فور عودتها من براغ. لم تكن تلك زيارتي الأولى إلى برلين. فقد زرتها في صحبة زوجتي قبل عشر سنوات بالضبط، أي في عام ١٩٦٩. وفي تلك الزيارة التقيت بالصديق غانم حمدون بعد غياب طويل. في تلك الزيارة شاهدنا كل مدن ألمانيا الشرقية، لأننا كنا في دعوة من قبل جمعية الصداقة الألمانية العراقية. أما الآن فكنت في ضيافة هناء في شقتها. وقد كتبت عن هذه الزيارة في رواية (فرس البراري)، وسميت هناء أسبرانتا، على اسم أمها.

ولم أذكر تفاصيل أخرى في هذه الرواية، عن حدث غيّر مجرى زيارتي، ولا أدري كيف كان وقعه على هناء.

في اليوم الثاني أو الثالث من إقامتي مع هناء، كانت امرأة ألمانية تعرفت إليها هناء حديثاً في زيارتها. كان اسمها Inge. وكانت الزيارة في الساعة السادسة مساء. وقد كتبت عن هذا اللقاء بصورة مفصلة في

رواية (مثلث متساوي الساقين)، لكن بعد تغييرات جذرية. في هذه الرواية لم تكن زيارتي إلى هنا، بل إلى ابن عم البطل، وهو تغيير وجدتني منساقاً إليه لأسباب روائية. وأنا هنا سأروي اللقاء على حقيقته.

عند التعارف أكدت هنا أنني كاتب، فكان لذلك وقع جميل عند Inge. وكانت هي في الثامنة والعشرين من عمرها، وترتدي بلوزة حمراء مطوية على عنقها. وكانت هي تتحدث بانكليزية ضعيفة، لكنها موفية بالغرض. هنا اتصل الدكتور (ص. ب) بهناء، ودخل معها في حديث كان مفاده أن (ص. ب) يحب ان يستقبلنا جميعاً هو وزوجته (م) في شقتهما. وبعد الاستئناس برأي Inge لم تمانع.

حملنا أنفسنا وذهبنا إلى شقة (ص. ب). وقدما لنا نبيذاً مع جوز، على ما أذكر. بعد قليل أحسست بصداع ألمَّ بي، فأعلنت عن ذلك. فقالت لي Inge: «هنا، أنم رأسك، وأشارت إلى حضنها. فابتسمت، وقلت لها: هل أنت جادة؟»

«طبعاً، أنم رأسك».

وأنمت رأسي. وجعلت تمارسه بالمساج، كخبيرة. وعندما توقفت ربما لتستريح رفعت رأسي، فقالت: «بعد». ثم واصلت مساجها. وبعد أن توقفت مرة ثانية، رفعت رأسي، فضربتني بلطف بكفها، وقالت: «بعد». ثم عندما أكملت عملها شعرت أن صداعي زال. فقلت لها: «حقاً، أنت ساحرَة».

فقالت: «هيا، ابتسم!»

وخيل إليّ أنها استلطفتني. فصرت أعاملها بشيء من الشعور

بالمسؤوليـة عندما كانت تحت (ص). على أن يداري كأسها. فوضعت يدي علـى كأسها لأحول دون ان يملأه من جديد. لكنها قالت لي: «لا تعاملني كقاصرة».

وفي اليـوم التالي تلفنـت إليّ لترافقني إلى بيتهـا. والبقية مذكورة في رواية (مثلث متساوي الساقين).

أنـا الآن لا رغبة لي في استعـادة الأحداث، لأننـي أشعر أن Inge سرقتنـي من تلـك الزيارة المتطامنة مـع هناء. وربما كانـت هذه أول علاقـة حب بيني وبين امـرأة. وقد دام هذا الحب خمس سنوات إلى أن أنهيـت أنا العلاقة. ومن لديه رغبة في الوقوف على تفاصيل هذه العلاقة، ففـي وسعه الرجـوع إلى الرواية المشار إليهـا. وأنا أعترف بـأن العلاقة تطورت بشـكل يمكن أن يثير الكثير مـن الفضول، لأن Inge كانت متزوجـة، وهي أخبرت زوجها بطبيعة العلاقة بيننا. وتم التعارف بيني وبين زوجها يوخان، وأصبحنا صديقين.

وأنا فقـدت الرغبـة الآن في مواصلة الكتابـة، لإحساس بالكآبة والاحبـاط ألمّ بي. فهـل هو إحساس برغبة في المـوت؟ فأنا الآن في السادسـة والثمانـين من عمري، و لم أعـد أشعر برغبـة في مواصلة الحيـاة بعد تدهور قواي الجسدية، وبعد فقـدان كل مجايليّ، باستثناء غـانم حمدون الـذي أراد أن ينهي علاقته بي، لأنه لم يعد ينسجم مع أفـكاري. (الساعـة الآن بلغت الثانية عشرة تقريبـاً من ليلة ١٨ آب ٢٠١٥. وسأتوقـف عن الكتابـة. ولا أدري هـل سأواصل الكتابة غداً، أم اكف عنها؟).

.....

أعود إلى الكتابة برغبة ضعيفة جداً، بعد أن فتر حماسي لها منذ مساء أمس بصورة مفاجئة، أهذا يعني انطفاء؟ أنا الآن لم تعد بي رغبة في أي شيء. وحتى عودة الصديقة (غ) من السفر لم تعنِ لي شيئاً. حملت إليّ علبة بقلاوة – قليلة الحلاوة – من إنتاج شركة زلطيمو في عمان، وجربت قطعة صغيرة فقط. وهذا كل ما في الأمر. وتحدثت معي حول أشياء لا أهمية لها، ثم ذهبت إلى شقتها... هذا الانطفاء يؤرقني. لكنني سأقسر نفسي على الكتابة، لأنني لم أعد أرغب في فعل أي شيء آخر.

أمس شعرت بضجر لا حدّ له عندما كتبت عن علاقتي التي نشأت مع Inge في بيت هناء. أنا لم تعد Inge تهمني الآن، ولا ذكراها. و لم يعد أحد يهمني باستثناء ابنتي زينب، وهناء، ونوري السعدي، الذي غيبه الموت منذ أكثر من عشر سنوات. وسأحيا الآن مع ذكريات أكتبها لزينب، وهناء، والراغبين.

كان وجودي في تشيكوسلوفاكيا قلقاً، بسبب التفكير في الإقامة، وفي توفير مورد للرزق بعد نفاد ما لدي من نقود. وصادف أن كان الرفيق عامر عبد الله في زيارة براغ (لا أدري أين كان يقيم يومذاك). وعندما سألني عن وضعي، أخبرته أنني أبحث عن مستقبل. ضحك، وقال: «هل تحب أن تعمل مع الرفيق يفغيني بريماكوف؟»

قلت له: «ماذا تعتقد أنت؟»

قال: «أنا أراه مناسباً لك»

قلت: «طيب»، وأنا متهيب من ثلج موسكو.

ثــم إن الرفيق فخري كريم كان في زيارة بــراغ أيضاً. وهو على علم بأوضاعــي. ويودني كثـيراً. قال لي: «سأبحــث في قضيتك مع الرئيس ياسر عرفات».

كان فخري قد ترك العراق قبلي، وترك لي كل ما لديه من أسطوانات. وهــو كان محباً للموسيقى (الكلاسيكية). ثــم تركت أنا هذه المجموعة مــن أسطواناتي عند نــوري السعدي عندما تركت العــراق. وسأحزن علــى مكتبتي الضخمة التــي تركتها في العراق، مع أننــي أسعدت لأن زوجتــي وابنتــي زينب استفادتا منهــا كثيراً. وأنا أشعــر الآن أن جمال أسلــوب زينب في الكتابة يعــود إلى قراءاتها الجادة برغــم انصرافها إلى دراسة الهندسة المعمارية، والى موهبة لديها في الكتابة والرسم.

كنــت أعتقد أن الأوان قد آن لكتابة روايــة، بعد أن تعرفت إلى امرأة جميلــة تعلقت بــي. فكتبت عملاً روائيــاً قصيراً في غضــون شهرين. وعرضــت المخطوطة على الصديق غانم حمــدون ليبدي رأيه فيها. فلم يكــن رأيه واضحاً. ثم أرسلتهــا إلى الصديق فؤاد التكرلي (لعله كان في تونس)، فلم ينصحني في نشرها.

أهــذا لأن تجربتي في الحب لم تكن بالعمق الذي يصلح لكتابة رواية، أم لأنني لم أكن مؤهلاً بعد لكتابة رواية؟ سأعيد كتابة رواية عن علاقتي بالصديقة الألمانية Inge بعد أن أتعرف إلى الصديقة (غ)، التي استنهضت عندي كل الملكات الإبداعية.

في بــراغ التقيت بقادة حزبيين، بعضهم يتمتــع بقوة شخصية مؤثرة وبثقافــة جيدة، مثــل عامر عبــد الله. لكنني سأكتشــف فيما بعد – في لنــدن– أن عامر عبد الله نرجســي إلى حد بعيد. تحدث عن الجواهري،

بعد موته، ونسي نفسه، فظل يطنب في مديح الجواهري له. فعلق صلاح نيازي قائلاً: «هذا ليس عامر عبد الله يتكلم عن الجواهري، بل الجواهري يتحدث عن عامر عبد الله».

وفي لقاء لتكريم عبد المجيد الراضي في مناسبة نيله شهادة الماستر (أو لعلها الدكتوراه)، كان الرفيق (ز. خ) جالساً إلى جواري. ودار بيننا حديث، أكد فيه الرفيق المذكور أن صدام حسين أفضل من كامل الجادرجي... هذا الحوار أقرفني من بعض القادة.

كنت سعيداً بلقائي بمحمود صبري، الذي كان يستقبلني على طعام الغداء بين الحين والآخر. وأسعدت أيضاً بلقاء مفيد الجزائري الذي كان يتم أحياناً في شقة محمود صبري. وفي براغ تعرفت أيضاً بفالح عبد الجبار، الذي استضافني وعائلتي ليلة قدومها لزيارتي.

كانت لقاءاتي بمحمود صبري ممتعة جداً في الأحاديث الفنية التي كانت تدور بيننا. وكنت أنا أثمن محاولته في ابتكار مدرسة فنية جديدة ذات خلفية علمية فيزيائية، سماها (واقعية الكم) تذكرة بميكانيك الكم، مع أنني لم أكن مقتنعاً بها. كنت أثمنها لأنها محاولة جديدة. لكن تحفظي عليها مرده إلى أن محمود صبري جعل من الفيزياء، ولاسيما ميكانيك الكم، أساس كل شيء، بما في ذلك الفن. فمعروف أن الفن ذاتي. في حين أن العلم موضوعي.

وأنا بدأت أصطدم معه فيما بعد، في نقاشاتنا في لندن، لأنني أختلف معه حتى في موضوع ميكانيك الكم الذي يؤكد على مبدأ اللاحتمية، لاحتمية هايزنبرغ ونيلزبور، في حين أنا أستند إلى تجارب. متأخرة تفند مبدأ اللاحتمية.

كانت زوجتي تلاحقني باستمرار. وأنا ما كنت أعلم أن الزواج يعني ملاحقة، لأنني هكذا اتفقت معها قبل الزواج. لكنها صارت تتصرف على أن الزواج ارتباط، وفي مفهومي قيد. وأنا لا ألومها، لاسيما بعد أن أصبح لدينا بنتان. والمهم أنها انقضّت عليّ هي وزينب ورباب في براغ في صيف ١٩٨٠. وواجهتني بطبيعة وضعي؛ زوجاً، رغماً عني. واقترحت أن أذهب إلى بريطانيا لأبحث عن عمل هناك، بأمل أن يلتحقن بي. وأنا لم يكن في وسعي سوى الانصياع. إنها أقوى من عشرة رجال.

ذهبت إلى بريطانيا في آب، ١٩٨٠. والتقيت بالصدفة بزميلي هادي علي من ايام الدراسة في بيركلي. فاقترح على الفور أن أنقل حقيبتي لألتحق به في شقة زميلنا موفق البدري، وكان لقاءً سعيداً. أن حياة الزمالة أشبه بحياة عائلية. وهناك أعلنت الحرب العراقية الإيرانية. وأنا لم أوفق في الحصول على عمل، مترجم أو مذيع في راديو لندن. هذا إلى أنني لم أكن أعتقد أنني أصلح أن أكون مذيعاً، رغم عربيتي الجيدة. وأذكر أن زوجتي كانت تلاحقني (من بغداد) يوماً بيوم. فأنا لم أتصل بهم طوال أسبوع بعد موعد سفري المتفق عليه من براغ إلى لندن. ذلك أنني رأيت أن أعرج على برلين لألتقي بالصديقة Inge لمدة أسبوع. ووجدتني في موقف حرج. ولعنت الزواج الآن ألف مرة إذا كان يقيد يديك ورجليك. أنا لم أكن أريد أن أحاسب من أي كان على تصرفي الحر. فلماذا أكون ملاحقاً؟.

في تلك الزيارة اللندنية التقيت مصادفة أيضاً بالصديق هادي العلوي. ورافقني إلى المتحف البريطاني وجامعة لندن لنبحث عن كتاب إيليتش سفيتيش اللغوي، لكن مسعانا لم يكلل بالنجاح، كما قلت. وعدا هذه اللقاءات، عدت إلى براغ بخفي حنين.

لكــن الحظ ابتســـم لي. فقد كان الصديــق فخري كريم عنــد كلمته. اتصلــوا بنا من بودابست وأخبرونا بأن السيد ياسر عرفات أوعز بتعييني على مــلاك منظمة التحريــر الفلسطينية في المجر. فشــددت رحلي إلى العاصمة الهنغارية.

# الفصل السادس

كنت قد عدت من زيارة لندن ببعض الكتب، من بينها الأساطير اليونانية، والإلهة البيضاء، لروبت غريفز. سأجد فيها ما يسليني، وسأستفيد منها في اهتماماتي الميثولوجية واللغوية. وسأراجع القاموس الآشوري؛ وأعداد مجلة الدراسات الشرق أوسطية العظيمة الفائدة، التي تصدرها جامعة شيكاغو. وسأبقى أستفيد من الجزء الأول من كتاب المقارنات اللغوية لإيليش سفيتيش. وسأتردد كثيراً على مكتبة الأكاديمية المجرية، ومكتبة المركز الثقافي البريطاني. فأنا سأكرس نفسي للبحث الخلاق. وسأتجاوز مرحلة التجميع، جمع المعلومات، وأبدأ مرحلة الاستنتاج، مثلما استنتجت احتمال وجود صلة بين كلمة «الأيّل» وكلمة «إيل». ستصبح متابعاتي اللغوية مبعث متعة وبهجة لي. فمثلما وجدت يوماً ما في المعادلات الرياضية والمنحنيات الهندسية مبعث بهجة. فسأجد في عالم اللغة وفي الاشتقاقات اللغوية لذة لاتنضب. الظاهر أنني وجدتني مكرساً لهذه المهمة قبل أن أحقق حلمي في كتابة

الروايـة. لكننـي في غضون ذلك وجدتنـي مكرساً أيضـاً لاهتمامات أخـرى، كالموسيقـى، والفيزيـاء. إنها مهمـة ينبغي أن تنـال حقها من الاهتمام قبل أن أنتقل إلى عا لم الرواية.

كان في استقبـالي في مطـار بودابست مدير مكتـب منظمة التحرير الفلسطينيـة، والمسـؤول الحزبـي عـن العراقيـين. رافقتهمـا إلى غرفة أستوجـرت لي بصـورة مؤقتـة، وقريبة مـن مكتب المنظمـة، فتعرفتّ إلى زملائـي الجـدد، كان من بينهم، بالاضافة إلى المديـر السيد عبد الله حجـازي، الشاعر أسـد محمد قاسم، والشاعر مريـد البرغوثي، اللذان ستتوثق العلاقة بيني وبينهما.

وبعد يومـين أو ثلاثة، طلب مني مدير المكتـب مرافقته إلى السفارة الافغانيـة (كنـا الآن في ١٩٨١) لأقوم بمهمة الترجمـة له، وهي مهمة كان يقـوم بها أسد محمـد قاسم، الذي يجيد المجريـة والانكليزية لكنه كان غائبـاً. وأنا وجدتني محرجاً لأنني لم اكـن أريد أن أستمر على هذا العمل، على حساب أسد، فضلاً عن أنني لم أجرب الترجمة الفورية من قبل، وعلى كل حال لاحظ مدير المكتب أنني بدأت أتلكأ في ترجمتي، فاستغنى عني، وواصل هو الكلام بانكليزية لم تكن أسوأ من انكليزيتي.

استأجـر لي سكرتير المكتب شقة في بـودا، في منطقة مرتفعة. وكان علـيّ أيضاً أن أرتقي ٥٥ درجة مـن موقف الباص إلى مجمعي السكني. فكانت تلك خير رياضة لي على مدى أربع عشرة سنة. وفي هذه الشقة استقبلت عائلتـي التي زارتني في صيف ١٩٨١، وفي أصياف أخرى. وكنت أستقبل أيضـاً الصديقة الألمانية. وتعرفت إلى أشخاص عراقيين، مـن بينهم أعتقال الطائي، ورجاء كمال الديـن، وثامر الزيدي، وعامر

مطر. كمـا تعرفـت إلى الكاتـب الفلسطيني فيصـل دراج، والكاتب السوري سعد الله ونوس، عندما كان في زيارة إلى بودابست.

وكنت أتكاتب مع الصديق فؤاد التكرلي. وأرسل إليّ كتاباً عن حياة تولستـوي لهنري ترواياً، عندمـا كان في زيـارة إلى باريس، وتعرف برشيدة تركي الكاتبة التونسية، ثم تزوجا.

استمتعـت بقراءة هـذا الكتاب، وشرعت بترجمتـه. لكنني لم انجز سـوى مئتي صفحة (الكتـاب كبير). وما تزال عنـدي هذه الترجمة المنقوصة نائمة في الدرج.

وفي تلـك الأيام التقيـت بالممثلـة الانكليزية اليساريـة فانيسا ريد غريـف، عندمـا كانت في زيـارة إلى المجر ولقائها مـع المسؤولين في مكتـب منظمة التحريـر. وتحدثت معها عن فاغـنر، لأنها مثلت دور ابنتـه كوزيما في فيلم نال شهرة. ثم كان يفترض أن نلتقي ثانية، لكنني تخلفت عن اللقاء، لكي لا يشعر اصدقائي الفلسطينيون أنني قد أسرق اللقاء إلى جانبي. ثم أخبروني أنها سألت عني.

لم أكتب شيئاً ربما طوال خمس سنوات، عدا محاولة الترجمة لكنني كنت أقرأ وأجمع المعلومات عن اللغة.

وفي صيـف ١٩٨٣ دعـاني الصديقان سعد الشعـر باف وزوجته فخريـة الباقـر للإقامـة عندهمـا في شقتهما في شـارع كوينزوي في لنـدن، لمدة شهرين. كانت دعوة كريمـة جداً. قدمت لي فيها الصديقة فخرية الباقر ألذ الوجبات العراقية. وفي تلك المناسبة التقيت بالصديق سلمـان شكر، الذي عرفنـي إلى الموسيقي البروفسـور هيوود، الذي ألـف بالاشتراك مع سلمان كونشرتو على العـود. وقد التقينا غير مرة

في منطقة إيلنغ. وأكد لي سلمان انه كان معجباً بكتابي (الأطروحة الفنطازية).

وأنا كنت دائماً أتهرب من قصة لقائي بالسيدة (غ) التي تعرفت إليها في تلك المناسبة. ولا أدري هل سألجأ إلى التهرب والمداورة الآن أيضاً، أم أروي قصة اللقاء على حقيقته؟ كلا، لا أستطيع أن أكون صريحاً. والمهم أنني شعرت حين وقع بصري عليها أنها اجمل امرأة في الوجود، إنها ملكة. هذا مع العلم أنني لم أكن خالياً من مُحبة جميلة، لكنها لم تكن ملكة.

أنا كنت أحلم في أن أتعرف إلى امرأة مختلفة في مواصفاتها الجسمانية. هناء كانت مختلفة في شخصيتها، وتبقى أهم امرأة في حياتي. أما (غ) فقد كانت قدري الروائي. كانت ماتيلد بالنسبة لي. كانت المرأة التي كنت أبحث عنها لكي أكتشف عالم الرواية. لكن هذا لم يتم مباشرة. فقد كنت غارقاً في عالم اللغة حتى الهامة. كنت قد وجدت في اللغة والأسطورة ملاذي ولذتي. كنت سكراناً بسحر اللغة والأسطورة. و(غ) جاءت متأخرة نوعاً ما (في عام ١٩٨٣) لتسحبني إلى الرواية. أنا قلت يوماً لفاطمة المحسن، ولعلها ذكرت ذلك، أن الرواية، عندي، هي المرأة. هذا هاجس خاص. فأنا لست دوستيوفسكي، ولا تولستوي، ولا تشارلس ديكنز (الذي لا يهزني كثيراً)، فأستطيع أن أكتب رواية في كل الأحوال. أنا كنت أريد أن أكتب رواية على غرار (الحب الأول) لتورغينف. وهذه كانت بعد أن حركته امرأة. والآن أشعر أنني أصبحت مؤهلاً لكتابة الرواية، بعد أن جاءت المرأة إليّ، مثلما جاءت زينايدا إلى تورغينف.

و(غ) وقفت على اهتماماتي اللغوية، والأسطورية، ودخلت في

المعمعـة. أهو غسيل دماغ، أم انسجـام؟ فهي صارت تتفهم عقليتي، وتختـار لي الكتب والمصـادر التي تقع على هـواي. في زيارتها (من بلجيـكا) إلى بريطانيا كانت ترسل إليّ أهم الكتب، بعد أن تستنسخها بآلـة الاستنسـاخ. كان مـن بينهـا كتـاب Hellen o semitica لمايكل استـور، الذي كان أهم كتاب في حياتـي في أطار اللغة. وأرسلت إليّ كتـاب (الفطر المقدس والصليب) لباحـث في السومريات مهووس بالجنـس. هي أعتقدت أننـي سأعتبر هذا الكتاب لقطـة. وأنا وقعت تحـت سحـره أول الأمر، ثم فطنت إلى أن التفسـير الجنسي يجعل من الكاتب والقارئ مهووسين. وانا تخليت عن تعلقي بهذا الكتاب قبل أن أجعله مرجعي الأساسي في علم الاشتقاق.

والتمسـت مـن (غ) أن تستنسخ لي كتـاب (الأساطير العبرية) من مكتبـة (SOAS)، في محاولـة لترجمتـه اذا وجـدت علاقـة بين هذه الأساطـير والأساطـير السومريـة. الكتـاب تأليف روفائيـل باتاي، وروبرت غريفز. وجدته مفيداً جداً. وشرعت بترجمته والتعليق عليه. ثـم زارني ابن عمي نبيل الشوك من فيينا، وحدثته عن الكتاب، فأبدى استعـداده لطبعه. وتم طبع الكتاب في لندن طباعة أنيقة عند دار (لام) للنشـر لصاحبها غسان العطية. وصدر الكتـاب تحت عنوان (اختاره الناشر) هـو (الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة). ولقي الكتاب نجاحاً بين القراء العراقيين.

أنا الآن في ١٩٨٧، دعـاني نبيل الشوك لأقيم شهراً في الرباط، في حـي أكدال، في شقة تعـود إلى والده المتوفى. فكانت تلك الزيارة من بين أجمل المشاوير في حياتي. فهناك صرت ألتقي بخالد الجادر، الذي عرفني إلى الرسامـة الزخرفية (ل. و).. وكانت أروع رفقة في حياتي

(مع أن دوافعها لم تكن عاطفية). وقد ذكرت كل تفاصيل هذه الرفقة في رواية (الأوبرا والكلب)، التي سأعود إلى الكلام عنها فيما بعد.

كنت الآن شديد الولع بعالم الأسطورة، إلى جانب اهتماماتي اللغوية. كنت أقرأ الأساطير السومرية، والمصرية، والكنعانية، والعبرية، واليونانية (والرومانية)، والعربية. لكنني كنت أجد متعة كبيرة في الاساطير اليونانية والرومانية، متعة كانت توازي عندي متعة الرواية. وأعترف بأن الكتاب الرومان كانوا يأسرونني بمخيلتهم. وأنا أشير بصفة خاصة إلى Ovid في كتابه Metamaphosis، وقصته الجميلة عن النحات بيغماليون، الذي نحت تمثالاً لامرأة فاتنة، وأحب أن تنفح فيها الحياة، فالتمس من الإلهة فينوس أن تبعث فيها الحياة ففعلت، ثم تزوجها بيغماليون.

وكان يلفت اهتمامي موضوع ليلى في تراثنا الأدبي، فلدى قراءتي كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني حول ليلى وقيس، لاحظت أنه ليس هناك إجماع على هوية كل من قيس و ليلى. وهناك شك في شخص مجنون ليلى. ويترتب على ذلك شك أيضاً في شخصية ليلى. وأن اسم (ليلى) يمكن أن يذكرنا بالعفريتة (ليليث) في الأساطير الساميّة. فكتبت كلمة بعنوان (هل كانت ليلى كائناً أسطورياً؟)، نشرت بعنوان (ليلى وليلاكة).

ولعل أقدم جد إشتقاقي أو قرينة لغوية لاسم «ليلى» هو العفريت لِلّو Lillu، ابو البطل أو الملك جلجامش، الذي ورد اسمه في قائمة ملوك سومر، التي يرجع تأريخها إلى حدود ٢٤٠٠ ق. م. كان للّو أحد أربعة عفاريت من صنف عفاريت الهامة من مصاصي الدماء، أو عفاريت الإغواء. والثلاثة الآخرون هم: ليليتو Lilitu (وتقابلها

ليليث بالعبرية، وليليثا بالآرامية، وفي رأينا ليلى بالعربية) ؛ وأردات للي Ardat Lili، أو وصيفة للي، أو للي العذراء، التي تزور الرجال ليلاً؛ وإردو للي Idrdu Lili. وكانت هذه العفاريت عفاريت عاصفة أو رياحاً. ذلك أن كلمة «لِلْ» السومرية تعني «ريح». ثم إن ليليتو الأكدية تقابل ليلاكة السومرية.

ومن المعروف أن هذه العفاريت كائنات ليلية. ونحن نعلم من تراثنا أن ليلى شخصية إنسية، أي ليست أسطورية، ولكنها كانت تلتقي مع قيس ليلاً، حسب الرواية الآتية قيل: لما اختلط عقل ابن الملوّح، وترك الطعام والشراب، قضت أمه إلى ليلى فقالت لها: «إن قيساً قد ذهب حبك بعقله وترك الطعام والشراب. فلو جئته وقتاً لرجوته أن يثوب إليه عقله»، فقالت ليلى: «أما نهاراً فلا آمن قومي على نفسي، ولكن ليلاً». فقالت له: «يا قيس إن أمك تزعم أنك جننت من أجلي، وتركت المطعم والمشرب، فاتقِ الله وابق على نفسك». فبكى، وأنشأ يقول:

قالت: جننت على إيش؟ فقلت لها: الحب أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

قال فبكت معه، وتحدثا حتى كاد الصبح أن يسفر. ثم ودعته وانصرفت فكان آخر عهده بها.

وفي رواية أخرى، أنه لما خرج زوج ليلى وأبوها في سفر، أرسلت ليلى بأمَةٍ لها إلى المجنون، فدعته، فأقام عندها ليلة فأخرجته في السحر، وقالت له: «سر إليّ في كل ليلة ما دام القوم سفراً». فكان يختلف إليها حتى قدموا. وقال فيها في آخر ليلة لقيها وودعته:

تمتع بليلى إنما أنت هامة من الهام يدنو كل يوم حِمامها

تمتع إلى أن يرجع الركب أنهم متى يرجعوا يحرمْ عليك كلامها

كمـا إننا نعتقـد أن ذكر «الهامـة» ربما لم يأت عفـو الخاطر. كانت العفريتـة ليليـث تقترن بالبـوم، والـبراري، والصحـاري، والخرائب. والهامـة، في القاموس، نـوع من البوم الصغير تألـف القبور والأماكن الخربة.

وقـرأت في الموسوعة اليهودية المطبوعـة بالانكليزية ما يلي: «ويقال إن العـرب... يطلقـون علـى ليليـث اسـم لالاّ Lalla، بصفتهـا سيدة مقدسة..». لكنني أرجح أن ليلى هي المقابل لاسم ليليث.

هـذه من بين اجتهاداتي واستنباطاتي من خـلال قراءاتي الميثولوجية واللغويـة. وأنا أصبحت مغرماً بهذا الموضـوع إلى حدّ الانصراف التام إليه تقريباً. وكنت أكتـب انطباعاتي إلى مجلة الكرمل، فكانت تتلقفها. ثـم اتصل بي محررا صفحة (آفاق) مـن جريدة (الحياة) يريدان أن أكون من بين مكاتبي صفحتهم. فكانت جريدة الحياة ومجلة الكرمل خير منبر لكتاباتـي اللغوية وغيرها. ومنذ ذلك التأريـخ توطدت علاقتي بأحمد أصفهاني، الذي أصبح خير صديق.

وأنـا ناقشت العديد من المفردات وتوصلـت إلى جذورها الأصلية، في حدود اجتهاداتي واطلاعاتي. وسأذكر هنا كلمة (الشجرة) العربية، التـي لم أجد لها جذوراً في اللغـات الساميّة التي تنتمـي إليها عربيتنا. فالجـذر السامـي (سجـر) أو (سكـر) يفيد معنـى الإغـلاق، والسد، والإيصـاد. كما أن الكلمة الساميّة المشتركة التي تقال للشجرة هي (ع صـ). وقد بقيـت في العربية في كلمة (العصـا)، وفي العضاة وهو كل

شجـر عظيم وله شوك. ومما يعزز هاجسنا حـول غموض أصل كلمة (شجـرة) العربية أنها متقاربة في لفظها مع كلمة sagaris اليونانية، التي تقال لنوع من أنـواع السلاح كان السكيثيـون يستعملونه في قتالهم، وكذلك النساء الأمازونيات على عهدة هيرودوتس في تأريخه، كما جاء في أحـد المعاجم اليونانية. وفي موسوعة يونانية أخرى، إن هذه الكلمة كانت تقال لنوع من الأسلحة كان الآسيويون القدامى يستعملونه. وقد وردت الكلمة في كتابات المـؤرخ اليوناني القديم كزينوفون. إنما يعتقد بعضـ الباحثـين أن هذا السـلاح أشبه بالفأس الصغـيرة، في حين يرى آخـرون أنه فأس مقوسة. لكن هذا سيدعونـا أيضاً إلى الشك في أرومة sagaris اليونانيـة. وذلـك أن الكلمـة باللاتينية تقال لأحـد أنهار آسيا الصغرى. علـى أننا نجد في المعاجم العربية أن من معاني (شجر)، فضلاً عن مدلولها النباتي، تنازع، تخاصـم. وتشاجروا بالسلاح، تطاعنوا. ورمـاح شواجر: مختلفة الطعـن. والشجير السيف. فـإلامَ نخلص من هذا؟ هل (الشجرة معربة، أم ماذا؟).

وأنـا لاحظت أن كلمة (سمكة) قـد تكون مستعارة أيضاً. هذه المرة من اللاتينية piscis (تلفظ piskis). ذلك أن لفظة (سمكة) لا وجود لها في اللغات الساميّة. والسمكة في اللغات السامية يقال لها (نون).

ومـن بـين الأصوات اللفظيـة التـي استهوتني، وكتبـت عنها ثلاثة فصـول: التهليلـة، أو الزغرودة، والولولـة. كانعكاسـ لحالتي الفرح والحـزن. وكيف تطورت هاتان الظاهرتـان إلى موسيقى القداس الذي يعتـبر واحداً من أهم الأشـكال في الموسيقى الغربيـة. وكمعنيّ باللغة، انطلقت من التقسيم على الجذرين هلَّ، وهلل في اللغات السامية، ومن لفظـة ألالو الأكدية، وألالا السومرية. وهاتـان اللفظتان هما المقابلتان

لصوت الزغرودة عند الشعوب العربية. كان عنوان الفصل الأول: «من تهليلة عشتار ومناحتها إلى ولولة الباخوسيات إلى هللويا القداس»؛ وعنوان الفصل الثاني: «الندابات من مناحة عشتار البابلية إلى ولولة الباخوسيات اليونانيات»؛ أما عنوان الفصل الثالث فهو: «تهليلة عشتار والموسيقى المرافقة لها وجدت طريقها إلى هللويا القداس المسيحي». وأنا لا أستطيع هنا أن أقدم إيجازاً لهذا الموضوع الغني بأبعاده اللغوية والتأريخية والموسيقية، سوى أنني أحيل القارئ إلى كتاب (الموسيقى بين الشرق والغرب)، إصدار دار الجمل، مع أنني أخشى أن يكون نافداً.

على أنني أود أن اشير هنا إلى كلمة (سير) SIR السومرية التي تطلق على الترنيمة أو الترتيلة أو الإنشاد. وذكرت أن مقابلتها في الأكدية (صيرخو)، وفي العربية (صرخ)، وهي ليست سوى صرخة تموز... الخ. لكنني أود أن أضيف هنا أنني أميل إلى الاعتقاد بأن SIR السومرية هذه ربما كانت أصل كلمة (الشعر) العربية. فنحن نستعمل الاسم (الشعر)، ولا نستعمل الفعل (شعر) بمعنى قال الشعر. هذه تستعمل في القاموس. ومن المستغرب أن كلمة الشعر لا تبدو أنها مشتقة من فعل من نفس المادة. وهذا يدعوني إلى الاعتقاد – عن غير يقين – بأن كلمة الشعر ربما جاءت من SIR السومرية. أنا أعلم أن اشتقاق الكلمات يمكن أن يكون مضللاً، لذلك كنت أعتقد أن التعامل مع الألفاظ المتشابهة هو كالمشي على البيض. لكنك لا تتردد مثلاً في إرجاع كلمة (قنديل) إلى candle.

في كل الأحوال، لما كانت الرواية مشروعاً مؤجلاً عندي، لأسباب أجهلها، فأنا أشعر أنني أستطيع أن أكتب مواضيع كأنها كانت تنتظر

منــي أن أكتبها. وهــذا كان ممكناً جداً في أكثر من حقل، بالنظر لثقافتي الواسعــة واهتماماتــي المتعــددة. واللغة كانــت أكثر المواضيــع طواعية لي. وكذلــك الرياضيــات، والفيزياء. وأنا استدرجــت إلى الفيزياء لأن موضوع ميكانيك الكم كان يستفزني بشدة، لاسيما في مبدأ اللاحتمية الــذي قــال به فيرنر هايزنــبرغ، ونيلزبــور، منذ العشرينــات، ولا تزال المؤسســة العلمية الرسمية تتشبث به. لكننــي سأعود إلى هذا الموضوع بمزيد من التفاصيل (المهمة جداً).

أعود إلى موضوع اللغة. أنا كنت أجد سعادة في تعاملي مع موضوع اللغة، وبنفــس المقدار كنت أشعر بالحرج في كتاباتي النظرية عن اللغة، لأنني لســت متخصصاً في هذا الموضوع. وهــذا الأحساس دعاني في الأخــير إلى الكف عن الكتابــة في اللغة. وهذا عندما توصلت إلى قناعة بأن الوطن الأول للأقــوام الهندية الأوروبية هو شمال وادي الرافدين، إذا آمنــا بأن انتشارهم كان لأسباب زراعيــة، وأن موطن زراعة الحنطة كان هــو الوطن الأول لهــذه الأقوام. وتوقفت هنــا لأن مزاعمي هذه لــن تجد مــن يقتنع بها، ما دمت أنا متطفلٌ على عــالم اللغة وكانت هذه فرصــة لأنصرف إلى الفيزياء وموضوع ميكانيك الكم. وكانت حصيلة اهتماماتــي العلميــة هــذه، أن أنجــز كتابــين، أولهما بعنــوان: (الثورة العلميــة الحديثــة وما بعدهــا) ؛ والثاني بعنــوان: (تأمــلات في الفيزياء الحديثــة). وسأعــود إلى هذا الموضوع فيما بعــد. وكتبت في الموسيقى مواضيع شيقة، جمعتها في واحد من أحب الكتب إليّ، أعني به (أسرار الموسيقى)، الذي اختاره في طبعة ثانية، في مشروع (الكتاب للجميع)، الصديق فخري كريم.

لكننــي فوجئت ذات يوم من أيام أيــار سنة ٢٠١٣ برسالة إلكترونية

مـن ابنتي زينب تفيد بأن «معظـم البريطانيين تحدروا من فلاحين ذكور تركـوا العراق وسوريـا قبل عشرة آلاف سنة». وذلـك في ضوء دراسة جينية. وهذا يعني أننا أقارب مع الأوروبيين، فبعد دراسة الـ DNA لأكثر مـن ألفي رجل، أكد الباحثـون أن لديهم أدلة دامغة علـى أن أربعة من خمسـة أوروبيين في وسعهـم أن يترسموا جذورهم إلى الشرق الأدنى. وقـد نشرت هذه التفاصيل في جريدة (الحيـاة)، في ١٤ أيار، ٢٠١٣.

وهذا يؤكد أن كتاباتي اللغوية لم تكن احتطاباً في ليل.

## الفصل السابع

كان لانهيار النظام الاشتراكي وقع فاجع علينا، نحن المؤمنون بالاشتراكية. وقد فقدت منظمة التحرير الفلسطينية رعاية الدولة المجرية بعد تغيير النظام فيها. وبقدر تعلق الأمر بي لا أذكر متى قطعت عني معونة منظمة التحرير الفلسطينية. لعلها انتهت بعد هذه الاحداث بمدة غير طويلة. وتعين عليّ أن أبحث عن مورد مالي حتى لو كان شحيحاً. وقد بقيت أقيم أودي من مدخراتي، وأنتظر مكآفات مجلة الكرمل الفصلية التي صرت أكاتبها منذ عام ١٩٨٧، وكانت ٥٠٠ دولار عن كل مساهمة. وفيما بعد، في ١٩٩١، اتصل بي محرر صفحة آفاق في جريدة (الحياة)، السيد أحمد أصفهاني لأساهم في الكتابة إلى صفحتهم، بعد أن قرأ كتاباتي في مجلة الكرمل. لكنني لم أجزع كثيراً لأن مدخراتي كانت تبلغ ١٨ ألف دولار، وتكاليف الحياة في المجر لم تكن باهظة. ولحسن حظي أنني استطعت أن أحصل على إقامة طويلة الأمد. لكن المستقبل أصبح غامضاً.

في تلـك الأيام، في خريف ١٩٨٩ وصلتنـي دعوة من وكيل وزارة الثقافة والإعلام، نوري المرسومي، الذي كان تلميذي يوماً ما، لحضور مهرجان المربد. كان المرسومي يتصل بصديقنا ماجد علاوي في بغداد، وأحب أن يغتنم فرصة انعقاد المهرجان لأزور أهلي. وقد اخبر الصديق ماجـد صديقنا نوري بذلـك. وأحيطت زوجتي علمـاً بهذه الدعوة. فوضعـوني امام الأمر الواقـع، بعد أن أكـدوا أن المدعوين إلى مهرجان المربـد يعاملـون معاملة خاصة. وأنـا كتبت فيما بعد عـن هذه الدعوة وملابساتهـا في مجلة (المدى). وأرى أن أنقـل لأصدقائي القراء ما جاء في هـذا المقال الطويل ليقفوا علـى أخبار تلك الدعوة، التي لم أستجب إليهـا بسهولة، بسبب تعرضي إلى ضغط «الرفاق» في الخارج المعارض لهذه الدعوة.

الطريق الطويل إلى متسلّق الجهنمية في بغداد

«ومجالسة أهل بغداد تورث الفتك واللباقة والنظافة»

أخبار البلدان، لابن الفقيه

«عزيزي الأخ علي

أطيب تحية

منذ أيام حضر إلى لندن الأخ (...). والأستاذ (...). واستلمت منهما دعوة رسمية لكـم للمشاركة في مهرجان المربد في تشرين الثاني القادم (١٩٨٩). إن الدعوة معي، وبواسطتها يمكنك دخول بغداد والخروج منهـا بضمان الوزارة دون حاجة لمراجعة أي جهة رسمية.. هكذا كان الأمر بالنسبة لكثيرين ممن لم تكن عندهم أصلاً رغبة بالزيارة.

«إذا كنت مستعداً للزيارة، بموجب هذه الدعوة، فسأرسل الدعوة لك، لأنهم لا يرغبون في توجيه دعوة لشخص يرفض تلبيتها.. الأمر متروك لكم.. وأرجو الاتصال بي هاتفياً أو تكتب لي. هذا ولكم خالص الود والمحبة»

أخوكم (...).

كان الأخ (...). المشار إليه في مستهل الرسالة، وهو مسؤول كبير في وزارة الثقافة، أحد تلامذتي في الخمسينات. اتصل، في مسعى آخر، بصديق لي مقيم في بغداد، وأكد رغبته في أن يسدي إلي هذا المعروف: زيارة بغداد، ولقاء العائلة، في هذه المناسبة. وتلقيت، أيضاً، أكثر من رسالة من بغداد، إحداها من ابنتي زينب التي كبرت الآن ودخلت الجامعة، تقول في رسالتها: «... إن لم يكن لنا مكان في قلبك يا أبتي، فتعال من اجل البلبل[1] ومتسلق الجهنمية وأشجار النارنج، التي كنت تحن إليها في رسائلك».

كانت رسائل عائلية أخرى تضرب على مثل هذا (العتاب الموجع). لكن رسالة زينب أصابت مرماها في الصميم. ذكّرتني جيداً بانني أب على أية حال، بمعنى أن لي واجبات تجاه من بت مسؤولاً عنها، شئت أم أبيت، هي وشقيقتها الصغرى رباب.

ومر الشريط بأكمله أمام المخيلة، المعذبة، الحائرة، المترددة... شريط من ذكريات لم تكن يومها هانئة تماماً، لكنها كانت مفعمة بالحب

---

[1]. كانت في حديقتنا أكثر من شجرة تين، وكان هذا البلبل يزور حديقتنا في موسم نضج ثمارها. ويوقظني عند الفجر بصوته العذب. وكنت أتسابق معه في جني أنضج الثمار وأحلاها.

والأمـل، مع أنني لم أكـن ذلك الأب المثالي، بحكـم كوني دودة كتب لم أتخـلَّ عن عادتي هذه حتى بعد الـزواج. لكنني مع ذلك كنت أحد الأركان الأساسيـة للعائلة، وبغيابي تركت فراغاً كبيراً. وقد مرت عشر سنوات بالتمام والكمال على هذا الغياب، القسري، «اللامسؤول» في نظر العائلة، في أثنائها جرت مياه كثيرة – ودماء – تحت جسور بغداد. فلم يكن من «الشهامة» أن أتركهم وحدهم يصارعون القدر.

ثـم إن بغـداد في القلـب، مثلما كانـت اسبانيا يوماً مـا[٢]... بغداد الطفولة، والصبا، والاكتهال... بغداد التي كانت نصفها تقريباً مزرعة لأجـدادي المباشريـن. وصحيح أن هذه «القطيعة» مـن أرض الأجداد تقلصـت على مـر الأجيال. الا أن بغـداد التأريـخ والذكريات والحلم بقيت في القلب.

«وحـدّث أحمـد بن حميد بن جبلـة، قال: حدثنـي أبي عن جدي جبلة، قـال: كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائهـا مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة. فلما أخذها المنصور، عوّضهـم منها عوضاً رضوا به؛ فأخذ جدي من ذلك حصته»[٣].

عام ١٩٨٤ شددت رحـالي إلى لندن للقاء عمي أحمد، المغترب هو الآخـر، وكانت لـه شقة في جنوب غربي لنـدن، في شارع Cromwall Gardens. أمضيـت بصحبته أياماً هانئة. وكانت زوجته (ام نبيل) تقدم لنـا ما لـذّ من الطعام، معـدّاً على الطريقتـين العراقيـة والأوربية. لكن

٢. عنوان كتاب عن الحرب الأهلية الإسبانية.

٣. (اخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٨، مخطوطة)

أحاديثنا عـن أيام زمان كانت أجمل ذكريات خلفها هذا اللقاء... كان في ذهنـي عدد من الأسئلة حرصت علـى أن أطرحها على العم قبل أن يتوفاه الأجـل. سألته في البدء عن منطقتنا، أو بستاننا (الشوكية)، وعن تأريخها.

«البستـان؟» قال عمي، ونادى بصوت عـال «أم نبيل، يا أم نبيل... هاتِ سند البستان المؤطر».

أحضـرت أم نبيل سنداً مؤطراً محفوظاً خلف زجاجة، ومدوناً بالخط النسخي بالحبر الأسود، وكان أثر القدم بادياً عليه (دوّن في عام ١٧٦٤ م). جاء فيه (وانا انقله على هناته وعلاّته) :

«السبب لتحرير هـذا الكتاب هو أنه قد حضر الرجل السيد منصور السيـد حسـين وباع مما هـو ملكه وتحـت تصرفه وهي قطعـة البستان المنتقلـة اليه بالشراء الشرعي من حسين بن عبد السيد وصالح بن مهدي (...). بحسـب منطوقة الحجة الشرعية التـي في يده من حاكم الشرع الشريـف طوبى له وحسن مآب لناقلين (كـذا) هذا السند الشرعي عبد الحسـين ابن الحاج عبد الرحمـن الشوك واخيه حسـن ابن الحاج عبد الرحمن الشوك هـذه القطعة البستان المذكورة بحدودها المعلومة، حد الأول إلى ملـك امـين بن درويش علـى أخيهم، والحد الثـاني إلى ملك المشترين عبد الحسين وحسن والحد الثالث إلى الدجلة العظمى، والحد الرابـع إلى طرق المسعـودي، بمبلغ قدره وبيانه مئتـي ذهب زر محبوب رايـج في بغـداد دراهـم معدودة، لا مؤجلة ولا موعـودة. وقبض البايع السيـد منصور من يد المشترين عبد الحسن وحسن هذا المذكور بالتمام والكمال، وأذن لهم أن يتصرفا في قطعة البستان هذه المشتملة على نخل وأشجـار وفسلان كتصرف سائر الملاكين في أملاكهم، وذوي الحقوق

في حقوقهم من غير مانع شرعــي بحضور جماعة من المسلمين، تحريراً في اليوم العاشر من شهر رمضان المبارك لسنة ثمان وثمانين من بعد المئة والألــف. أقر بما فيه الوصل السيد منصــور ابن السيد حسين... شهود عيان (مع اختامهم) وعددهم ١٢ شاهداً».

تلــك هي، إذن، حدود بستاننا القديمة: بين الكريمات شمالاً، وجسر السنك (حاليــاً) جنوباً، وبين الدجلة العظمى شرقــاً وطرق المسعودي غربــاً (وهــو غير المسعــودي صاحب مــروج الذهب، على مــا يبدو، وكانــت والدتي تحدثنا عن أرض المسعودي هذه، وتقول: أن بها سباع كانــت تقيم، ولا يقربهــا أحد من أهــالي بغداد). ولا بــدّ أن الصالحية الحاليــة سميت باسم صالح بــن مهدي الذي انتقلــت ملكية إرضه إلى أجــدادي شراءً، كما جاء في هذا السند الشرعي. أما العملة الذهبية «زَرْ محبــوب»، فكان لدى السيــد عبد الهادي الصراف، الــذي تصاهر مع عمــي أحمد، مقدار منها أهــداه إلى المتحف العراقي. وقد عثرت – في سيــاق اهتماماتي اللغويــة – على كلمة «زَرْ» في نصــ فينيقي يرقى إلى القــرن الثالث أو الثاني قبل الميــلاد وردت فيه كلمة (زر) zr اسماً لعملة صغــيرة، أو لعلــه كان اختصاراً لاسم هــذه العملــة. ولا أذكر أن هذه العملة كانت مستعملة في العهود الإسلامية (في حدود علمي)، فكيف ظهرت قبل أكثر من مئتي سنة؟

«وقال محمــد بن موسى بن الفرات الكاتــب: سمعت جدي يقول: كنت في ديواني يوماً فدخل إليّ رجل من دهاقين بادوريا، له قدر، فرأيته مخــرّق الطيلســان؛ فقلت: من خرق طيلسانك؟ فقــال: خرق والله في زحمــة الناس وتضاغطهم في موضع طالما طردت فيه الظباء والأرانب.

قلت: وأين هو؟ قال: باب الكرخ»[٤]. وسألت عمي: كيف تقلصت كل هذه الأرض الواسعة التي كانت تعود لأجدادنا إلى رقعة (الشوكية) فقط؟ فحدثني عن أكبر صفقة عقدها أبوه، وهو جدي المباشر، في أوائل هذا القرن، قائلاً: بإيعاز من الحكومة العثمانية طلب المسؤولون في بغداد من أبي أن يبيع للألماني (يقصد الحكومة الألمانية) شريطاً من أرضه في سياق مشروع إنشاء خط سكك حديد برلين - بغداد. وتم البيع في السراي، وكان المبلغ عشرة آلاف ليرة ذهبية. ولم يكن يومذاك ثمة مصارف، فوزع أبي على البالغين من إخوتي بنادق وأكياساً، وتوجهوا على ظهور الخيل إلى السراي، فحمل كل منهم كيساً من هذه الليرات الذهبية، ثم عادت الكوكبة بأحمالها إلى الشوكية.

وفيما بعد أكد لي سلمان شكر، الذي تربطه بنا علاقة حميمة، هذه الرواية التي رواها له المرحوم والده، وقال إن جماعة من اللصوص كانت تترصد الكوكبة، لكنها تراجعت بعد أن تبين لها أن المعركة لن تكون في صالحها.

وعلى الأرض التي انتقلت ملكيتها إلى «الألماني» بُني القصران المعروفان بقصري السكك، اللذان يقعان على جانبي شارع كرادة مريم، على مبعدة يسيرة من دار الإذاعة العراقية، باتجاه كرادة مريم. وبقي هذان القصران قائمين حتى السبعينات على ما أظن. وقد أقام في أحدهما (الأيسر، اذا كانت وجهتك صوب كرادة مريم) الأمير عبد الإله في عهد الملك غازي؛ وكنا نحييه في طريق ذهابنا إلى مدرسة المنصور الابتدائية المقابلة لدار الإذاعة.

---

٤. اخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٩، مخطوطة.

«قــال: رأيــت عند باب قطيعــة (إقطاعيــة) الربيع قبــل بنايتها كرْماً ومعصرة، وهو المكان الذي بُني فيه خان الطيالسة والحوانيت التي يباع فيها الكاغد الخراساني»[٥].

قلت لعمي: «كنا نسمي حيّنا (البستان)، مع أنه لم يكن مزروعاً بغير النخيل».

قــال: «ما يبقى من كل بستان هو النخل. لكــن أرضنا كانت عامرة بــكل أصناف الــزروع، من حبوب، وخضرة، وفاكهــة. كانت سيقان الدخــن تعلو قامة إنســان. وبينها اختفى عمك المرحــوم الحاج سلمان بعد أن هرّبه عمك المرحوم حسن من الطابور المتوجه إلى سفر برلك».

وأخــبرني عمي بأن والد جدي هو الذي أدخل اللالنكَي (الماندرين) إلى العراق، بعد أن زرعه في بستاننا ؛ وأن جدي هو الذي أدخل زراعة الطماطم ؛ وعمي – جاسم – أدخل زراعة البطاطا.

يستفاد مــن هذا إن صحت رواية العــم، أن «النومي» كان موجوداً في العــراق قبل اللالنكَــي. ومعلوم أن النارنج كان، هــو والأترجّ، أقدم أصنــاف الحمضيات في العــراق والعالم العربي، لأنهمــا كانا معروفين منذ أيــام العباسيين. ولا بدّ أن «النارنج» فارسيــة الأصل، ومنها جاءت كلمــة orange كما هو معلوم. أما البرتقــال فلعله عُرف في العراق منذ احتــكاك البرتغاليين بجنوب الجزيرة العربية والخليج، وذلك من القرينة اللغويــة (برتقال = برتغال). ومن المعلوم أن الموطن الاصلي لليمونيات أو الحمضيات هو الصين.

---

٥. مخطوطة ابن الفقيه.

«فأما مفاخرة القوم بالديار والمقاصير وسائر الأغذية والتدابير، أو مما ببغداد من سائر الفواكه والثمار وغرايب النخل والأشجار، فظن ما شئت أن تظنه. وعُدَّ ما شئت أن تعده، تجده موجوداً غير مفقود، وقريباً غير بعيد. زعم لي مهرويه باغبان السلطان أنه يعرف بمدينة السلام نيفاً وسبعين نوعاً من التفاح. ثم عدها، فتبسم أخوه شهريار، ثم قال: وكذا وكذا، زيادة على ما قال أخوه بنحو اربعمئة نوع وتسعة أنواع وما ظنك ببلد من جميع ما فيه من غرايب الأشجار وأجناس النخيل والبقول والمزارع والثمار، ينبت الأترج والنارنج، كما ينبت الزعفران والأقحوان وكما ينبت الفستق واللوز والزعرور والموز والشاهلبوط والجوز والغبيراء والجلوز والسدر والحبة الخضرا واللفاح والبندق والبلوط والمقل والبستان والهليون والريباس والفوَّة و... ما لا يحصى ولا يلحق من جميع الاشياء..»[٦].

سألت عمي: «وماذا عن (السنّ) عند جرف الشط، تحت الملهى في الصالحية. اعني الاساسات من الطابوق الفرشي، التي كنا نقف عليها – في ايام الصيهود – عندما كنا نسبح في صغرنا. اصحيح انه من بقايا قصر هارون الرشيد؟»

قال: «تقصد اليوسفية؟»

قلت: «أي يوسفية؟ هل هناك يوسفيتان؟»

قال: «أكثر..».

هنا رنّ الجرس، ودخل ضيف أثقل من ستين كابوساً، فانقطع

٦. مخطوطة ابن الفقيه، ص ٩٤.

الحديث، وكان ذلك آخر عهدي بعمي الذي توفي بعد ذلك بعام واحد.

اتصلت بصاحبي في لندن وأبلغته بموافقتي على تلبية الدعوة. وانتظرت أياماً إلى أن تسلمت تذكرة السفر على الخطوط الجوية العراقية عن طريق بلغراد (من بودابست). بعد أن أمضيت ليلة في بلغراد، توجهت إلى مطارها، وهناك رحب بي موظفو الخطوط الجوية العراقية.

كانت إجراءات التفتيش الأمنية العراقية مشددة. بعد أن سلمنا حقائبنا التي خضعت للتفتيش الشعاعي، ومررنا عبر الجهاز الكاشف، قادونا إلى الطائرة لنتعرف مرة أخرى على حقائبنا قبل إدخالها إلى الطائرة. ومن مؤخرة الطائرة دخلنا لنخضع لتفتيش آخر، نحن وما نحمله من حقائب صغيرة. لكنني أخبرت المسؤول الأمني، الذي كان يفتح الحقائب ويجس ويعس الجيوب والصدور ومواضع أخرى من الجسد، بأنني مدعو لمهرجان المربد، فأعفاني من التفتيش.

كانت طائرة البوينغ فارهة باذخة، والمضيفات يستقبلننا بابتسامتهن العراقية المألوفة وهن يقدمن لنا الحامض حلو، واللّهجة العراقية تعيد إلى ذهنك ألف ذكرى وذكرى.

لم تكن الطائرة ممتلئة. كنت بمفردي أشغل مقعداً بين آخرين فارغين... هذه «الخلوة» تركتني نهباً لمشاعر شتى.. ترى كيف سأجد بغداد بعد هذه السنوات العشر من الغربة؟

«وذكر أحمد بن الحارث الخراز أن بغداد صُورت لملك الروم بأرباضها وأسواقها وشوارعها وبساتينها وأنهارها من جميع جانبيها الشرقي والغربي. قال: فكان كثيراً ما يُحضر الصورة ويتأملها

ويستحسن شارع باب الميدان. ويتعجب من حسنه وحسن القصور التي فيه. ويزداد استحسانه لشارع الزلادين وسويقة نصر بن مالك إلى الثلاثة الأبواب والقصور التي في هذا الشارع. وكذلك أيضاً كان يستحسن الأسواق من الخضرية إلى قنطرة بردان. وكان يقول: قد كان يجب على ملك العرب أن يجعل داره في هذا الشارع، ويجعل إصبعه على شارع الزلادين. وكان إذا شرب دعا بالصورة فيشرب على هذه الشوارع التي ذكرناها لحسن أبنيتها وقصورها»[٧].

ولقد قيل إن بغداد شهدت تغيراً كبيراً في عقد الثمانينات، رغم هموم الحرب. وإذن؟

«ما لون بغداد وما طعمها

ما صحو بغداد وما نومها

ما شمسها، ما الناس ما نجمها

سبحانك – اللّهم – جلّ اسمها» صلاح نيازي

في المظان العربية إن لفظة «بغداد» فارسية الأصل. ويذكر المقدسي، وابن رسته، عدة تفاسير للاسم منها: عطية الله (أو الصنم). ويرجح الباحثون الغربيون المعاصرون هذا الأصل الفارسي (لاحظ Salmon، Strange، هيرتسفيلد، الخ)، في حين يرجح آخرون الأصل الآرامي، الذي يعني «بيت أو حظيرة الضأن» (يوسف غنيمة، وانستاس الكرملي في لغة العرب). لاحظ إشارة الطبري إلى سوق البقر على مشارف بغداد... لكن هناك وثيقة رسمية من أيام حمورابي (في حدود ١٨٠٠

٧. مخطوطة ابن الفقيه، ص ٨٤.

ق. م). تشير إلى ذكر مدينة بغداداو Bagdadu، الأمر الذي يعني أن الاسم كان مستعملاً قبل هذا الملك، وبلا شك قبل أي نفوذ فارسي. وفي اللغة السومرية تُستعمل للفظتي (باغ)، و (خُو) نفس العلامة، أي أن (بغدادو) تقرأ (خُداداو) أيضاً. وهناك حجر حدود من أيام الملك الكاشي (البابلي) نازيما روتّاش (١٣٤١-١٣١٦ ق. م) يتطرق إلى ذكر مدينة Pilari على ضفة نهر شارّي في منطقة Bagdadi. وفي التلمود يرد ذكر Bagdatha أكثر من مرة. وهناك حجر حدود آخر يرقى إلى عهد الملك البابلي Mardukapaliddin (١٢٠٨-١١٩٥ ق. م) يتطرق إلى ذكر بغداد Baghdad. وفي القرن الثامن ق. م. أصبحت بغداد مستوطنة آرامية.

المنصور أطلق على مدينته اسم مدينة السلام، تذكرة بالفردوس (القرآن الكريم، سورة ١٢٧ : ١؛ ٢٦ : ١٠). كان ذلك الاسم الرسمي على الوثائق، والنقود، والأوزان، الخ. واستعملت صيغ أخرى من التسميات مثل بُغدان، مدينة أبي جعفر، مدينة المنصور، مدينة الخلفاء، الزوراء. ويبدو أن الزوراء اسم قديم. كما يشير الفخري. ويؤكد المؤرخون العرب أن المنصور بنى مدينته حيث كان هناك عدد من المستوطنات السابقة للإسلام، أهمها قرية (بغداد)، على الضفة الغربية من دجلة إلى الشمال من الصراة. ويشير البعض إلى بادرويا، ويذكرون سوقها السنوي. وهذا إنما يقدم تفسيراً لماذا أصبح الكرخ فيما بعد حيّاً للتجار؟ ولفظة (الكرخ) آرامية من (كرخا)، وتعني (مدينة محصنة). أخذت من اسمها قرية أقدم تنسبها المصادر الفارسية إلى شاهبور الثاني (٣٠٩-٣٧٩ م) (عن المستوفي، الطبري، الخطيب، الخ).

ويقول كسينوفون: إن الفرس الإخمينيين كانوا يملكون متنزهات

واسعة (أراضٍ لصيد الطرائد وللنزهة) في منطقة بغداد. ويشير الكتّاب العرب إلى اثنين من هذه المتنزهات. وقرب مصب نهر عيسى كان يوجد قصر ساساني (قصر سابور)، حيث أقام المنصور هناك فيما بعد جسراً. وفي الجانب الشرقي، كان سوق الثلاثاء ومقبرة الخيزران موجودين قبل الإسلام. وكان هناك أديرة في المنطقة ترقى إلى ما قبل الإسلام، مثل دير مارفاثيون (الدير العتيق)، حيث بُني قصر الخلد، ودير بستان القس، ودير الجاثليق، الذي دُفن بالقرب منه الشيخ معروف الكرخي (هذا الحديث عن تأريخ بغداد واسمها مصدره الموسوعة الإسلامية).

«قال سليمان بن مجالد: ووجّه المنصور في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، فأحضروا. وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة (كلمة أو أكثر غير واضحة) فجمعهم وتقدم اليهم ان يشرفوا على البناء. وكان فيمن أحضر الحجاج بن أرطاة وابو حنيفة. ثم امر بخط المدينة وحفر الأساسات وضرب اللبن وطبخ الآجرّ. فبدأ بذلك وكان أول ابتدائه في عملها سنة خمس وأربعين وماية. وكان المنصور أراد أبا حنيفة أن يتولى له شيئاً من أمرها فأبى، وأداره على القضاء فأبى أيضاً، فحلف المنصور ان لا بدّ له من أن يتولاه، فحلف أبو حنيفة أن لايفعل، فولاّه عدّ اللبِن، وأخذ الرجال بالعمل. وإنما فعل المنصور ذلك ليخرج من يمينه، فكان أبو حنيفة يتولى ذلك حتى فرغ من استتمام الحايط الذي يلي الخندق. وكان الفراغ منه سنة تسع وأربعين وماية. وكان أبو حنيفة أول من عدّ اللبِن بالقصب.»[٨].

«قال إسحاق بن ابراهيم الموصلي (المغني والموسيقي العباسي

٨. اخبار البلدان، لابن الفقيه، ص٦٠، مخطوطة.

المعروف): لما أراد المنصور بناء مدينته، شاور أصحابه في ذلك. وكان في من شاورهم خالد بن برمك، فأشار عليه ببنائها. فلما عمل منها صدراً صالحاً احتاج إلى الآجرّ. فعزم على نقض ايوان كسرى الذي بالمداين، فلم يقل شيئاً. فقال له: لم لا تتكلم يا خالد وتشير بما عندك؟ قال: لا أرى ذلك، يا أمير المؤمنين. قال: لأنه علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر والوافد (؟) من الملوك على عظم شأن أربابه وعن سلطانهم، وان الاسلام قهرهم وأزالهم عنه، وأيضاً فان فيه مسجداً لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه. قال: هيهات، يا خالد، ابيت الاّ التعصب لأصحابك والميل إليهم. وأمر بنقضه، ونقضِ ما حوله من الأبنية. قال: فنقض شيء من ذلك وحُمل آجرّه إلى بغداد. فوجدوا النفقة على هدمه وحمله ومؤونته أكثر مما ينفق على الآجرّ الجديد إذا عُمل، فرُفع ذلك إلى المنصور، فامر بتركه وأحضر خالداً فعرّفه الخبر، وقال: ما عندك في هذا؟ فقال: قد كنت أشرت على أمير المؤمنين ألاّ تعرض لشيء من نقضه، فلم يفعل. فأما الآن، وقد ابتدأ بذلك، فما أرى أن يكف عنه حتى يلحقه بقواعده، لئلا يُقال إنه عجز عن هدم ما بناه غيره. والهدم أيسر من البناء. فتبسم المنصور، وأمر بترك ذلك»[٩].

بعد عودتي إلى بودابست ببضعة شهور – وأنا إنما أستطرد هنا استطراداً تأريخياً أيضاً – كان ذلك في عام ١٩٩٠، وقفت على دراسة جديدة صادرة من جامعة بيركلي – كاليفورنيا (وهي نفس الجامعة التي درست فيها قبل أربعين عاماً)، بعنوان (مسح ميداني لمدينة أكد) بقلم كريستفوول – رومانا، يحاول البرهنة من خلالها، في ضوء معطيات تأريخية ودراسة مسحية، على أن مدينة أكد القديمة التي يقترن ذكرها

٩. أخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٤، مخطوطة.

بسرجون الأكدي الشهير، وحفيده نرام – سن، والتي لم يحدد موقعها تمامـاً حتى ظهور هـذه الدراسة: استنـاداً إلى E. A. Speiser يرجع لفظ مدينة أكد Agade إلى Aga-de. من أصل حوري (وهم، الحوريون، قوم غربـاء أقاموا في شمال العراق وسوريا) أو لُولّوبي Lullubia، وذاك على غـرار Arak-di، Lub–di، Tai–di ». لكن كاتب الدراسة، كريستفول– رومانا يتساءل: هل يُستبعد الاشتقاق السومري من الفعل الشاذ a–dé «يصب الماء» في a-ga-dé «سأصب ماء»؟

وبعد دراسة تأريخية وجغرافية ومسحية توصل الكاتب إلى أن موقع مدينة أكد هو «تل محمد» في منطقة بغداد الجديدة. ويأسف لعدم إمكان إجـراء التنقيبات الحفرية في المنطقة، بأمل دعـم رأيه آثارياً، لأن المنطقة مأهولـة بالسكان. ويقول: «في ضوء دراستـي يتضح أن مدينتي بغداد وأكـد متقاربتان، الأمر الذي يدعونا للتسـاؤل، هل كانت بغداد إحياء (بعثـاً) لمدينة أكد؟ ثم إن الشبه بـين اسميهما يدعو للدهشة، وغموض اسـم بغداد يؤكد هذه العلاقة. ومـع أن الاسم خُدادو الذي عرف منذ العصر البابلي القديم ينبغي أن يُقرأ بغدادو Bagdadu (وخُداداو تقع بين Sippar ودجلـة)، فـإن إقدم ذكر لبغداد جـاء في التلمود البابلي، الذي كتب قبـل القرن الخامسـ الميـلادي، وبصيغـة Bagdatha. وقد اشار المؤرخـون العـرب القدامـى إلى أن الاسم كان موجـوداً قبل المنصور، وكانت بغداد تسمى بالصيغ الآتية: بغداد، بَغدان، مغداد، مَغدان. ومن بـين هذه التسميات يبدو أن المقطع الوحيـد المحدد هو agda، وهو ما يمكن أن يقابل لفظة Agade التي لا نعرف شيئاً عن أصل معناها». وهو تخريج قد يبدو مقبولاً، لكن لا يمكن القطع به، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البـاء في أول كلمـة (بغداد) قد يكون اختصـاراً لكلمة «بيت» التي

كانت تلحق بأسماء بعض المـدن الآرامية، أو ذات التسميات الآرامية، مثل (بعقوبة)، (بعشيقة).. الخ.

«تفضل عيني» قالت المضيفـة وهي تقدم لي وجبة عشاء ساخنة، مع بقـلاوة، كعُقبى... المسافات تطوى، والظلام دامس عبر نافذة الطائرة الدائرية الصغيرة. والهدوء يغـري على الاسترسال في التفكير والتأمل. تـرى ما هي آفاق هذه الزيارة التي خلفت ردود أفعال متضاربة، ما بين تعـال ولا تذهب. انهالت علـيّ من كلا الجانبين: مـن الداخل تجلدني لـترددي الـذي لا تجد لـه معنى، ومن الخـارج تسوطنـي لمواقفي على حضور المهرجان. لكن نداء «تعال» كانت له الاستجابة الأقوى.

نصف الساعة الأخيرة أزجيتها بالقراءة في كتاب فزعت اليه هرباً من أفـكاري، عنوانه «غضب (الآلهة) أثينا». رحـت أقرأ فيه تفاصيل عن اوديسيوس: عن جذر اسمه، وعن هويته الغامضة إلى حدٍّ ما، وخوذته التـي ورثهـا عن جـده اللص أوتوليكوس الـذي سرقها مـن شخص فينيقـي... كنت يومذاك أكتب كلمة عـن هوميروس، نشرت فيما بعد في مجلة (الكرمل).

أعلـن ملاحو الطائـرة أن الهبوط سيتم بعد خمسـ دقائق. تجمدت حواسـي تماماً، و لم يعد ذهني يتقبل شيئـاً. طويت الكتاب ووضعته في الحقيبـة الصغيرة... لا بدّ ان ابنتـي رباب، التي تركتها وعمرها أقل من عـام، أكثر المستقبلين لهفة لاستقبالي، لترى كيف هـو شكل أبيها، مع أنهـم أروها صوري التي لم تكن مطابقة لمـا ترسمه المخيلة. قبل عامين دمرتني رسالتها:

«رسالة من رباب إلى بابا

أبـي العزيز أتمنى ان تكون هذه الرسالة أول رسالة أكتبها لك وأنا في الصـف الرابع الابتدائي إن شاء الله رسائل كثـيرة لاتُعد ولا تُحصى وأنا الآن كأني أتكلـم مع أبي وهو الذي أراه كل يوم وأتمنى أن تأتي الحمامة البيضـاء وتأخذني على ظهرها وآتي لك يـا أبي العزيز والحبيب وأتكلم عـن أحلامي وأقبلـك أنا الآن أعـرف الخياطة وأيضـاً التطريز والاتمل والحياكة يا أبي وهذه الرسالة أود أن تكون معبرة عن مشاعري

من اللقاء في الرسالة الجديدة

وشكراً

التوقيع رباب»

نبضات القلب تتسارع، وقاطرةٌ في الأذن.. الخارطة الضوئية لبغداد مـن الجو مذهلـة. فسيفسـاء مذهل في لاتناسقـه المتناسـق... وبدأت معالم الابنية والشوارع تبين. ثـم دخلنا جو المطار. لحظات القلق ترقباً لارتطام عجلات الطائرة بمدرج المطار مرت بدون أن نشعر بها تقريباً. الطيـارون العراقيـون يتمتعون بسمعة ملاحية حسنـة. صفق الركاب. حواسي مستوفزة تماماً.

لـدى ترجلنا من الطائرة في خرطـوم الجناح المخصص لها، حاولت أن أبدو طبيعياً... خطوات... خطوات... خطوات، ثم الحزام الدوّار لتسلم الحقائب. لم نتأخر كثيراً... هناك نصف عشيرة بانتظاري. لكن بصري لم يقع على أي من أفراد عائلتي (زوجتي وابنتيّ).

«الأستاذ علي الشوك؟»

«نعم».

«أنا (...). من دائرة المراسم في وزارة الثقافة والإعلام، تفضل معي رجاء».

تبعته وأنـا أحمل معطفي الثخين وقبعتي اللبـاد وحقيبة صغيرة بيد، وأسحـب حقيبتي الكبيرة بيد أخرى. لم يساعـدني. إباء الموظف المعتز بمركـزه. كان شديـد الأناقة؛ وجهاً لا أعرفه، في حـين تعرّف هو عليّ فوراً، من بين جميع الركاب.

«أعطني جوازك، رجاء».

عند ضابط التأشيرات انحنى وهمس له بشيء. تم تأشير الجواز بثوان. اجتزنا الحاجز. كان المطار جديداً وحديثاً في كل شيء.

«هل تحب أن أوصلك إلى البيت، أم تفضل أن تذهب بصحبة الأهل؟ أرى انهم عشيرة بانتظارك».

«شكراً، سأذهب مع العائلة».

«الأستـاذ (...). سيكون بانتظارك غداً في الحادية عشرة صباحاً في قاعة الرشيد».

«طيب، شكراً، مع السلامة».

إنهـم يلوّحون ويبتسمـون. تانك شقيقتاي بالسـواد، وذاك شقيقي يرتـدي رباطاً اسـود أيضاً، والصديق نـوري السعدي، لشـد ما يبدو أنحـف وأكثر شيباً.. والعديل، والعديل الآخـر، وآخرون. يا إلهي أين عائلتي؟ حتـى زينب لم أتعرف عليها أول الأمر. أمـا رباب؟... يقيناً، إنها تلك الصبية الحلوة، النحيفة، الرشيقة، التي تقف إلى جانب زينب،

نعـم زينب الشابة الآن، والأكثر امتلاء مما كنـت أتصور. لكن أمهما لم تكن حاضـرة... والابتسامات تشع، والمسافـة تتقلص. توجهت نحو زينب ورباب:

«هل أنت رباب؟»

«إي، بابا»

«اية سعادة هذه... وأين ماما؟»

«بالبيت».

رافقتني إلى البيـت كوكبة من السيارات. كنت أنا وابنتاي في سيارة الصديق نوري السعـدي. لست أدري كيف نبت لي ألف لسان. كنت أتكلـم بلا توقف، أنا الصمـوت، على مألوف العـادة. وكان الصديق وابنتاي في حالة ذهول.

وصلنـا منزلنا بعـد الواحدة صباحـاً. افترق عنا مـن افترق، ودخل معـي المقربون. وكالعـادة، دخلنا البيت من بـاب المطبخ، عبر الكراج المكشـوف. كان البيت كله منوّراً حتى الحديقـة... وعند باب المطبخ كانت واقفـة، بقامتها الشامخة ولكن المرتبكة. هجمت عليها لأحتويها بذراعي وأقبلها، فصّدت عني. لكنني طوقتها بيديّ بقوة وبإصرار.

عنـد ذاك أجهشت زوجتي باسمة بالبـكاء، وراح شموخها، الذي يذكر بشموخ نخلة، يختض بانفعال، وتنثال الدموع على خديها، وانا اقبل شفتيها، ووجنتيها، ورأسها.

دلفنـا إلى غرفة الجلوس. ثمة تغيـيرات في مرافق المنزل. ألغيتْ غرفة

الطعـام كركن مخصص للطعام فقـط (عند قدوم الضيـوف). وألحقت بغرفـة الاستقبال لتكونـا معاً غرفـة جلوس واحدة كبـيرة، شطر منها على الطراز الشرقي. والشطر الآخر على الطراز الغربي. وكانت لوحة فرانز مارك «الغزالة الحمراء» ما تزال في موضعها. وكذلك لوحة ضياء العـزاوي «تنامين في جسدي». إنما أضيفت سجادة صغيرة عليها آيات قرآنية.. وطلبت الإذن من المحتفين بي أن أطوف في بقية مرافق البيت.

رافقتنـي رباب في طوافي. كانت سيـدة صغيرة بكل معنى الكلمة. بأناقتهـا ورقتهـا ورصانتها. إنهـا الآن (١٩٨٩) في الصـف السادس الابتدائـي. «بابا، هـل تحـب أن أريـك الكومبيوتـر؟»، «كومبيوتر؟ بالطبع». «إي بابا، اشترته أمـي لزينب، وأنا أيضاً أستعمله. أعمل عليه برامـج». كان موضوعاً فيما كنا نسميه الصالون، على المنضدة المضلعة ذات السطـح المرمري التي انتقلت إليّ من أثاث والدتي، وهي من بقايا «جهـاز» عرس امـي المرحومة (توفيـت هي وأبي في غيابـي). أصبح الصالون الآن غرفة لزينب. كنت أقرأ وأكتب وأستمع إلى الموسيقى فيه. ثم قادتنـي رباب إلى غرفتهـا، وأشارت إلى سرير آخـر أضيف حديثاً، وقالـت: «هـذا سريرك، ستنـام هنا في غرفتـي»، «آها، ممتـاز، لكنني سأثيرك بشخيري». «ميخالف بابا».

ماذا كنت أريد أن أرى أيضاً؟ هناك بعض «الكلمات» أريد أن أرجع إلى معانيهـا المفصلة في قاموس تـاج العروس، ومواضيع أخرى أبحث عنهـا في كتبي التي تركتها في الوطن. لكن، ليس الآن أوانها!... المهم أنني ألقيت نظرة على مكتباتـي الموزعة في الصالون، والمجاز، وفوق، في البيتونة أيضاً.

«نريد أن نشرب نخب عودتك» قال الصديق نوري السعدي. «فما رأيك؟».

«بالطبع».

كان الصديق قد أحضر إلى البيت عدداً من قناني الوسكي من صنف Old Parr، بمناسبة قدومي، أُحضرت واحدة منها، وفتحها، وصب لزوجتي ولي وله. وأحضرت المزة أيضاً، أكثر من صنف، بما في ذلك كبة حلب، من الأكلات المفضلة لدي، وهي من إعداد حماتي، أم زوجتي.

كانت رباب جالسة لصقي وأنا ألامس شعرها الكستنائي الذي رتبت تسريحته بيدها بكل أناقة (بعد قليل، واذْ أعربت عن إعجابي بجمال شعرها، ذهبت إلى غرفتها ورتبت تسريحته بطريقة أخرى)... وتحدثتْ كيف كانت تهرع مع أمها وجدتها وزينب إلى المجاز الداخلي ليحتمين من الغارات تحت الدرج، وذلك حسب التعليمات، وكيف تحطم زجاج النوافذ في الجهة الأخرى عند سقوط صاروخ في ذلك الاتجاه؛ وفي هذه الجهة أيضاً، حيث نجلس، عندما سقط صاروخ باتجاه القيادة القومية. وكانت جدتها حاضرة أيضاً معنا، فرددت: «يُمة، يُمة، يُمة»، وهي تحرك يديها مثل عجائز قصة (زوربا) ؛ واستلمتْ الحديث، وهي تلفظ كل فاءٍ باءً لخلو فمها من الأسنان.. وكان الصديق نوري يبتسم. ظل، هكذا تقريباً، يبتسم طيلة الوقت. وزوجتي تقرب لي وله صحون المزة. وزينب تتطلع بشيء من ذهول. وانا أنقّل بصري بين الوجوه، والأثاث؛ متفقداً كل شيء. بما في ذلك منافض السكاير ونقشة التُّول على مائدة الطعام... لكنهم كتموا عني عدم حضور

أخي كامل لاستقبالي في المطار، أو في البيت. و لم اسأل عنه لانني كنت في حمّى[١٠].

عندمـا حان وقـت النوم ودعنـا الصديق، ووعدني بـأن يوافيني إلى البيـت في النهـار التالي قبيـل الحادية عشـرة، ليقلني بسيارتـه إلى قاعة الرشيد. وأويت إلى فراشـي. لكن صندوق الدنيا كان يدور في رأسي. وجفـاني النوم تماماً. لم أذق طعم الكرى طيلة الليلة (أو ما تبقى منها في واقـع الحال).. ثم انتبهت إلى رباب تحمل مخدتها وتذهب كالسائرة في نومها إلى غرفة أمها.

عند انبـلاج الفجر غسلت وجهي وتلفّعـت بالمبذل لأتفقد الحديقة مـن البـاب الخلفـي، وأنا أحـاذر أن أحـدث صوتاً يكدر نـوم من في البيـت.. لدى خروجي من الباب نفرتْ قطـة كانت ملتفة على نفسها فـوق سخان الماء الغازي التماساً للـدفء. وواجهتني حبال الغسيل في نفسـ موضعهـا، يتدلى منها عـدد هائل من القراصـات بألوان شتى.. لكـن ماذا حلّ بشجرة التـين ؛ إنها لم تعد زاهيـة بخضرتها كما كانت بالأمـس. وذكرتني شجرة السدر بأولاد الجـيران الذين كانوا ينغصون قيلولتنـا في موسم نضج ثمارها. وهذا لـوح البقدونس والنعناع الذي يزود البيت بهذه الخضرة.. وقد كبرت شجرة الأكاسيا، وتلك الأخرى التي يسمونها في العراق شجرة (الفلفل)؟ أما نبتة الياسمين المعرشة على نافـذة الغرفة التي تنام فيها زوجتي فقد تهدلت أغصانها وصارت تعيق المرور على الممشى المحاذي للبناء.

---

١٠. كان أخي الأصغر، كامل، من الضحايا غير المباشرة للحرب مع إيران. توفي بالسكتة القلبية وهو يسوق سيارته، بعد أن أمضى سنوات الحرب في رعب حقيقي متخفياً عن أنظار الباحثين عن مجندين ليساقوا في منظمة الجيش الشعبي.

تركت الممشى وخففت الـوطء على المرج وسط الحديقة، حيث كنا نشوي الكباب أو الدجاج على المنقلة في ايام الصيف والخريف، ونُزجـي الليالي في الهـواء الطلق. ها هي شجـرة الرمان القميئة، لم تكبر كثيراً... ولوحُ الفريزيا والغلاديولاس والليلوم ليوم واحد، بلا أزهار. وهذه سجادة «مخلب القط» المفروشة على كامل حائط الجار، بـلا أزهار أيضاً، لأننا في أواخر الخريف. لكن متسلق الجهنمية كان يشهق بزهـره البنفسجي، والوردي، المندلق علـى السياج الأمامي للحديقـة. تمليت أوراقه والزهر بعبـادة. لقد تفرع كثيراً وغطى قبح سياجنا المبني من الطابـوق الكونكريتي.. واستعرضت خط نبتات الروز تحت النارنجات بمحـاذاة السياج الأمامي. ثم ينعطف بمحاذاة جدار الجار تحت متسلق مخلب القط. كانت هذه الشتلات من الروز تزوّد مزهرياتنا بأجمل أصناف الورد، طوال موسم إزهاره.

التقطـت النارنجات المتساقطـة من أشجارها التي تنـوء بثمارها، وعدت إلى داخل المنزل. كانت باسمة في المطبخ تضع إبريق الشاي على الموقد، وتعد مائدة الإفطـار. «صباح الخير». «صباح النور»: هل تفقدت شجرة التـين التي خبصتنا بها وبالبلبل؟» وأخبرتني بأن ربـاب استوحشت عندمـا استيقظت قبيل الفجـر ووجدت رجلاً نائماً في غرفتها. ثم عقبت باسمة: وإذن، ففي بيتنا رجل!».

تحلقنـا حول مائدة الإفطـار في المطبخ الواسـع المشرف بواجهته علـى الكراج المكشوف. وعلى المائـدة كان صمّون أبيض، وأسمر (للرجيـم)، ودبس، ومربى، وزبدة، وجبنة بيضاء، فقط (مع ان هذا الأخير كان هدية من شقيقة زوجتي بمناسبة قدومي). وجيء بقدحي الزجاجـي الكبير ذي العروة الذي كنت أشرب فيه الشاي، ورروعي

أن يكون شايي فطيراً وخفيفاً جداً (هكذا كان والدي يشرب الشاي أيضاً).

كانت زوجتي تتحدث عن شحة منتجات الألبان، والبيض على نحو خاص. وزينب تسألني إن كنت أستطيع مساعدتها في حل الغوزات «النهايات» في درس الرياضيات الجامعية، فاستشهدتُ ببيتين لمحمد حسين الشبيبي الشهيد، رواهما لي قريننا المرحوم ضياء مطر، وكان زميلاً له في التعليم، وهما:

إنّ الرياضيات الغوزة لا يهتدي لبي إلى حلها

إنْ حار بعض الناس في بعضها فإنني قد حرت في كلها!

لكنني، لدهشتي، استطعت أن أوضح لزينب غامض إحدى المسائل، مع أن هذا الموضوع كنت قد درسته قبل أربعين عاماً. (حالفني الحظ في أن أبدو أمام أفراد عائلتي نافعاً حتى في الرياضيات التي ضمرت تماماً تقريباً من ذاكرتي).

زمرّ الصديق نوري السعدي ليقلّني بسيارته إلى قاعة الرشيد. كان قد أحال نفسه على التقاعد منذ سنوات حتى من عيادته الخاصة، المجزية، ليتفرغ لهمومه وحديقة منزله، مع أنه لم يبلغ بعد منتصف الستينات.

كانت بغداد تبدو لي أقل ألفة من ذي قبل، لكنها أنظف من السابق وأكثر عصرية. وأنا أحسّني أشبه بسائح يطوف في مسالك يدب فيها بشر آخرون... سيارات كثيرة جداً... تاكسيات كثيرة جداً... أضواء مرور كثيرة جداً، وتعمل بدقة (لكن المخالفات بعيداً عنها كثيرة جداً).. وأنفاق، وجسور فوق الشوارع، ونصب جديد للجندي المجهول

مصمم من يدين هائلتين تحملان سيفين، وتحته كومة من خوذ برونزية.

يبدو أننــا وصلنا منطقتنا القديمة (كرادة مــريم). لكن معالمها تغيرت تمامــاً. امحــت طبوغرافيتها السابقــة التي كانت مرتعــاً – في الغربة – لذكرياتي ومخيلتي.

أمام فندق المنصور ميليا، أبطأت السيارة، ثم قامت بدورة على شكل حرف (يُو)، وتوقفت أمام بناية جديدة. ترجلت منها وودعت صاحبي بعد أن اتفقنا على أن أتلفن له ليعود بي إلى المنزل. إنه صديق من ذهب.

تلبثت لحظات أتطلع أمامي إلى واجهة فندق المنصور. هنا كان منزلنا القــديم، تماماً قــرب السياج الجنوبــي لحديقة الفنــدق، إن لم أك مخطئاً. تــرى هــل أن شجرة التوت، تلــك، هي نفس الشجــرة التي كانت في منزلنــا؟ وهذا جســر السنك الذي شيــد في غيابي... يبــدو أن الشيء الوحيــد المتبقي من مخلفــات المنطقة والذاكرة هو أشجــار اليوكالبتوس على رصيفي الشارع... تلفت حولي. لم يقع بصري على من أعرفه.

دخلت قاعة الرشيد ؛ التي اتخذت مقراً لاجتماعات مهرجان المربد. ثمــة عدد من الشباب من الجنســين، لم أتعرف على أي منهم. وثمة إلى جهة اليسار مكتــب يجلس خلفه موظف استعلامات. سألته عن موقع القاعة، فاشار بيده... حتى إذا تقدمت نحوها بخطوات ريّثة، واجهني مدخــل عريض لصالة، في مقدمتهــا – أو مؤخرتها بعبارة أدق – يقف أحدهم أمام الميكروفون، يلقي شعراً على مسامع الحضور. وهناك جهاز تصويــر تلفزيوني تقف خلفه سيدة في نحو الثلاثين من عمرها. تقدمتُ إلى وســط القاعة بأمل أن أجــد مضيفي، المسؤول الكبــير في الوزارة. التقيــت وجهاً لوجــه مع عبد الرحمن مجيد الربيعي. مــدّ إليّ يده قائلاً:

«أهــلاً، أستاذ علي». ولما أدركت أنه من غير اللائــق أن أظل أستعرض الجالسين بأمل أن يلمحني مضيفي الذي يعرفني أكثر مما أعرفه (لأنني لم ألتق به بعد أيام التلمذة)، اتخذت لي مقعداً قريباً من ممر الخروج.

بعــد أن انتهى المنشد من إلقاء قصيدتــه، وكانت من الشعر الحديث، وأظنه كان من تونس، تَمَّ تقديم الشاعر المصري حسن فتح الباب. عندما وقـف أمــام الميكروفون، قال: «سأحــاول أن ألقي عليكــم مقاطع من قصيــدة طويلة عن فلسطين». واستطالت المقاطــع... فقررت أن أترك القاعــة، لأننــي لا أطيق الجلوس كثــيراً على كرســي في صالة، حتى لو كان ذلــك في دار للاوبــرا. ثــم إنني اشتهيــت أن أدخــن سيكارة، في خــارج القاعة (أنــا أدخن بضع سيكارات في اليــوم!) حتى إذا أشعلت سيكارتــي، تقدمــت إليّ نفس السيــدة التي كانت تقــف خلف جهاز التصوير التلفزيوني. خاطبتني قائلة:

«أستاذ علي، مرحباً!»

«مرحباً»

«أنــا (...). تعرفت عليك مــن صورتك التــي أراني إياها صديقك الدكتور نوري السعدي. يسعدني أن أتعرف بك. هل تبحث عن احد؟»

«نعم»

«من؟»

ذكرت اسم مضيفي. قالت: ألم تره؟ انه جالس إلى جانب الوزير في الصف الأمامي.

قلت: سأبقى هنـا إذن، أدخن سيكارتي، وأنتظـر فترة استراحة. ثم عـادت (... ) إلى جهازهـا التلفزيـوني، راجية أن تتاح لنـا فرصة لقاء بحضور نوري السعدي.

في هـذه الأثنـاء لمحت لِمّة (=كفشـة) عبد الرزاق عبـد الواحد التي اشتعل فيها مزيد من الشيب. كان ظهره إليّ. صحت: «عبد؟»

التفـت إليّ كالمذعور، لكنه حـين وقع بصره عليّ نشـر ذراعيه بكل سعتهمـا ثم هجم عليّ يعانقني ويتأتئ بكلامـه الجْهوري، يسألني متى جئـت؟. قلت اللحظة. قال: «يا لها من صدفة. قبل أيام التقيت بمحمد سعيـد الصـكار في باريس، والآن ألتقـي بك على غير ميعـاد» مشيراً بذلك إلى أيام صحبتنا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات في مكتب الصـكار في شارع الجمهورية، حيث ولد مشـروع كتابي (الأطروحة الفنطازية).

قال: «ألم تلتق بأحد؟»

قلت: «لا».

قال: «من تريد؟»

ذكرت المسؤول في الوزارة، ويوسف الصائغ.

قال: «سأذهب لأخبرهما بوجودك».

بعـد لحظـات أطلّتْ قامـة يوسف الصائـغ القصيرة بعضـ الشيء، بشاربـه الأشيب الكث الذي يخفي الآن سناً مـن القواطع مقلوعة. تم العنـاق. والسؤال عن الأحوال. ثم اقـترح أن نتخذ لنا مقاعد في غرفة جانبيـة، بصفته المدير العام لمؤسسة السينمـا والمسرح التي تشرف على هذه الصالة أيضاً. وأكد بأن الأستاذ (... ) المسؤول، سيلتحق بنا بعد أن

يغادر الوزير القاعــة. وبالفعل، لم يمض وقت طويل حتى وافانا الأستاذ (... ) بحضــوره. وكان لقاءً ودياً جداً.. وجــئ بالقهوة أكثر من مرة. عربية مهيّلة. وعُرض عليّ أن أتسلم كوبونات الإقامة والطعام في فندق ميليا منصور. لكنني اعتذرت مفضلاً الإقامة بين الأهل.

التقيت بالعديد من الأدباء العراقيين في فندق ميليا منصور وفي أماكن أخرى، باستثناء المغتربين طبعاً. كانوا يعانقونني كشبح هبط من المريخ. وكان لقائــي بفؤاد التكــرلي مفاجأة سارة. دعــاني وزوجتي مرتين في شقته المستأجرة في الجادرية، فتعرفنا على زوجته الجديدة، السيدة حياة التونسية، التي تعرف إليها في باريس عندما كانت تقوم بترجمة (الرجع البعيد) إلى الفرنسية (كان زواجه الثاني هذا بعد وفاة زوجته الأولى بعدة سنوات). وكان من بين المدعويين الدكتور علي جواد الطاهر، ومهدي عيســى الصقر، والدكتــور عبد الإلــه أحمد، وفاضل ثامــر، ويوسف الصائــغ، مع زوجاتهم. واصطحبني في سيارتــه – التعبانة على الدوام – إلى مقــر مجلــة (آفاق عربية) حيث تعرفــت إلى رئيس تحريرها آنذاك. الدكتور محسن الموسوي، لأول مرة، وأهداني كتابه عن ألف ليلة وليلة. وكان في غرفتــه ذلك الجهاز التلفوني الكلاسيكي المذهب، الذي يذكر بتلفونــات القرن الماضي أو أوائــل القرن الحالي، وهو من مخلفات أهواء أو هوايــات شفيق الكمالي. وهناك أيضاً التقيت بعدد من الكتاب، مثل موسى كريدي.

وزرت المعرضــ الذي أقيم في الذكرى السنوية لوفاة الصديق الفنان خالــد الجادر الذي أمضيت معه أياماً حلوة في الرباط قبل وفاته بنصف عام. وهناك التقيت برشدي العامل. كان يستعين بعصا وحنو فتاة لعلها ابنته. استقبلني بصخب كعادته.

وزرت الدكتـور مهدي المخزومي في منزلـه. أية سعادة في لقاء هذا الشيـخ الجليل. سيـد العارفين بقواعد لغتنا، ومؤلـف الكتابين القيمين (الخليل بـن احمد) و (مدرسـة الكوفة). أما ذهنه فـكان على توقده، وكذلك ذاكرته اللغوية. دخـل في تفاصيل أذهلتني وأسكرتني. ودعته والدمعة تكاد تطفر من عيني. من يدري. قد يكون هذا آخر لقاء لي به.

مـرت الأيام: ولائم، ولقـاءات، وزيارات. زرت مـا تبقى من حينا القديم في كـرادة مريم. وقفت على المسنّاة قـرب شريعتنا الملغاة بعد أن جثـم عليها فنـدق ميليا منصـور، اتطلع إلى الدجلة العظمـى، فإذا هي قد جفـت مآقيها وتصيهدت. هنا كان بيت عمـي الذي استأجره عبد المحسن السعدون في العشرينات، ومنه كان يعبر كل يوم في بلم عليوي البلام إلى ذاك الصوب حيث مجلس الوزراء. (حدثني جارنا القديم السيد أوانيسـ أنه ركب ذات مرة متن البلـم بصحبته، وكان هو - اوانيس - يرتعشـ برداً، في عـز الشتاء. فلم يكن من رئيس الـوزراء عبد المحسن السعدون ألا أن يتبرع له بعباءته التي كان يتخذها معطفاً له). وتذكرت يوم شاهدنا صباح نوري السعيد يمرق بطيارته - في أواسط الأربعينات - من بين دعامتين من دعائم جسر مود (الأحرار فيما بعد)، في مغامرة فريدة من نوعها. وقيل..: والده منعه بعدها من قيادة الطائرة... وهناك تقع أساسات «السن»، قصر هارون الرشيد المزعوم. ومن هنا كنا نركب مـتن البلم لننحدر مع التيـار إلى «الجزرة» لنمضي بعضـ ليالي الصيف فيها ونشوي السمـك المسكوف. لكن أين خط «التكّيات» في منطقة الصـدر، أقصى حي كـرادة مريم، الذي كان يموّن بغـداد بثمر التوت. الـذي يروّج لـه الباعة كعنب بارد: «بـارد العنب، بـارد!» وماذا حلّ بالكسلـة يوم كانـت «أمّهات كراع» البغداديـات يحملن إلى (مريم ام

عظام) على رؤوسهن أو في عربات الخيل سلال الخبز والبيض المسلوق والكباب البارد وقدور الدولمة وسماورات الشاي. والدنابك، وحب الرقيّ وحب الشجر، وأفواههن لا تني تلوك (العلج البستج: العلك المستكي) بتظاهرة صاخبة، ليُمضين يوم الكسلة هناك. ولاحظوا جذور كلمة الكسلة، ومصطلح «أمهات كراع»... ولا بدّ أن مركز شرطة كرادة مريم كان هنا، يوم اعتقلت فيه، فور إدلائي بصوتي في آخر دورة انتخابية «حرة» شهدها العراق. وكان ذلك في عام ١٩٥٤. هل أروي لكم قصة اعتقالي المذهلة هذه، وإطلاق سراحي بعد نصف ساعة فقط من توقيفي، مع أنني هويت بكفي على وجه المفوض لأنه زجرني...

لكنني أريد أن أرى معالم بغداد الأخرى. زرت شارع أبي نواس، وافتقدت مقهى ياسين الذي كنت التقي فيه مع غانم حمدون، ويحيى جواد، وعبد الرزاق الحميري، وآخرين. وزرت شارع الرشيد، وحاولت أن أتفقد الشقة التي انعقد فيها أول اجتماع لهيئة تحرير مجلة (المثقف) بحضور عصام القاضي والدكتور مهدي مرتضى وخالد السلام وكاتب هذه السطور. وألقيت نظرة على سينما الزوراء التي شاهدت فيها فيلم المدرعة بوتمكن. وفي المقهى البرازيلية كنت أجالس أبناء جيلنا من المثقفين والكتاب من امثال عبد الملك نوري. وفي مقهى (شريف وحداد) كنت ألتقي مع محمود البريكان في العهد القاسمي. وفي سينما (ماذا؟) شاهدت فيلم تاراس بُولبا بصحبة الدكتور صلاح خالص؟ هل كان ذلك في العهد الملكي؟... كان الدكتور صلاح أول من كتب عن موضوع (الشكل والمضمون)، وذلك في العدد الأول من مجلة (الثقافة الجديدة) التي كانت حدثاً في وقتها (١٩٥٤؟) وفي

مطعم (أحمد سمينة) تناولت الطعام مع الدكتور صفاء الحافظ بعد أول انتخابـات لنقابة المعلمين. كانت الوجبـة بربع دينار، مطبوخة بالسمن الحيـواني «الحـر». وكان أحمـد سمينة ما يـزال معجباً بهتلـر!... إن للزمن المعلّب طعماً يورث حرقـة مستعذبة في المعدة... أما يزال سوق الهرج قائماً، يا ترى؟ اشتريت منـه أقدم أسطوانات عراقية ذات يوم.. ومـاذا عن مكتبة (المثنى) لصاحبها قاسم الرجـب؟ لا أزال نادماً لأنني استبهضـت سعر كتاب عن (مؤتمر الموسيقـى العربية المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٢)، كان سعـره خمسة دنانير، وهو مبلغ كبير يومذاك. لكن تلـك كانت النسخـة الوحيدة المتبقية. وكالعادة حـين تعود لشرائه بعد أيام تجده نافداً.

وكان لا بـد- أن أزور مكتبـة (بنّـاي) في مدخل شـارع السعدون. خـرج إلى الشارع ليستقبلنـي بعد أن لمحني من خلـف زجاج المحل. وكان حديثنا عن الكتب ذا شجون.

وقد أحزننـي أن أفتقد – حتى قبل اغترابي، في واقع الحال – أيّ أثر لكتـاب أجنبي (أعني باللغات الأجنبية). صحيـح أن هناك إصدارات عراقيـة جيدة في حقـول شتى، بما في ذلك ترجمـات جبرا لشكسبير، وبعض التراجـم والمؤلفات الأخـرى، بَيْدَ أنـك لا تجد كتابـاً واحداً باللغات الأجنبية. ربما باستثناء بعض القواميس والكتب العلمية، في كل مكتبات بغداد. ولا تعثر على أسطوانة واحدة لبيتهوفن أو سترافنسكي منـذ عشرين عاماً، بعد أن كانت هناك أكثر مـن مكتبة عامرة بالكتب، باللغتـين الانكليزيـة والفرنسية، وغيرهما من اللغـات العالمية الحية، بما في ذلـك الروسيـة، وأكثر من مكتبة عامـرة بالأسطوانـات الموسيقية، مثـل مكتبـة اوروزدي باك الممتـازة. وكذلـك مكتبـة كورونيت في

بنايــة مرجان. وكانت ثمة مكتبة في نهاية شــارع الرشيد، مقابل مخزن جقماجــي، عثرت فيها علــى أسطوانات نادرة، مثــل موسيقى شعوب أستراليا الأصليين.

كنــت أحسّني سائحاً في وطني، أحمل تعويــذة الحصانة المربدية مع أنني لم أكن بحاجة إليها. (فاتني أن أذكر أن الصديق سلمان شكر أخبرني عندمــا اتصلت به هاتفياً قبل ذهابــي إلى الوطن، وكان هو في زيارة إلى لندن، بأننــي سأُستقبل كملك، بفضل هذه التعويذة المربدية)... لكنني كنــت أشعر أنني أشبه بسائح حتــى في بيتي. وكان أفراد عائلتي تُمضهم وتُمرضهم هــذه الحقيقة، حقيقة أنني جئت زائراً، لا عائداً. إن أفدح ما في الأمر أنك تحس بــأن لك حضوراً نوستالجياً في وطنك. كل ما فيك بات ينتمي إلى عالم ماضٍ، فردوس مفقود. فهل أنت من أهل الكهف، أو بالأحــرى من أهل الكهف بالمقلــوب؟ «إن أكثر الجنات حقيقة هي تلك التي فقدناها» (مارسيل بروست).

كانت بغــداد عروساً رغــم كل شيء، بأحيائها الجديــدة والمجددة، وارصفتهــا النظيفــة، مع أنها كانــت تشكو من شح في المــواد الغذائية والاستهلاكية، (كان ذلــك قبل ما يسمى بحرب الخليج الثانية). وكان المواطنــون يتطلعون إلى آفاق جديدة بعد انتهاء الحرب مع ايران، وخيّل للجميع أن الوقت قــد حان للأم الجراح وممارسة حياة طبيعية – أو شبه طبيعيــة – من جديد، ومــا دروا أن الحريق لم يُخمد إلا ليندلع هذه المرة أعتى وأدهى، ليأتي على اليابس والأخضر، ويحل خراب وأي خراب:

مناحة على خراب مدينة أور

«يا أبانا نانّا [11]، لقد حلّ الخراب في تلك المدينة...

أشلاء أبنائها، وليس كسر الفخار تبعثرت شذر مذر في أحيائها ؛

أسوارها تهدمت ؛ أبناؤها ينوحون.

في مداخلها الفسيحة، حيث كانوا يتنزهون، ترامت جثث الموتى.

في شوارعها، حيث كانت تقام الأعياد، تبعثروا أشلاء.

في كل طرقاتها، حيث كانوا يتنزهون، ترامت جثث الموتى.

في أبهائها. حيث كانت تقام المهرجانات، تتكدس الجثث ركاماً.

أور - التي هلك ضعفاؤها وأقوياؤها من الجوع ؛

الأمهات والآباء، الذين لم يبرحوا منازلهم أتت عليهم النيران ؛

الأطفال راقدون في حضن أمهاتهم،

وقد جرفتهم المياه مثل السمك ؛

في المدينة، هُجرت الزوجة، وهُجر الابن،

وتبعثرت المقتنيات هنا وهناك.

يا نانّا، لقد حلّ الدمار باور، وتبعثر أبناؤها شذر مذر».

XXX

هنـاك شيء كثير مـن اللامعقول يجري في العـالم. فهل من المعقول أن يتكرس هذا اللامعقول؟... إذن لماذا خرج رامابثيكوس من الغابة؟

---

11. نانّـا هو الاله - القمـر في الديانة السومرية، ويقابله (سـين) في الديانة البابلية - الآشورية، وفي جنوب الجزيرة العربية.

# الفصل الثامن

كان الصديـق فـؤاد التكـرلي يمـر علـيّ معظـم الأيـام في الصبـاح ليصطحبني إلى دائرة يوسـف الصائغ (السينما والمسرح)، أو أي مكان آخـر، بسيارته المرسيدس القديمة. وأنا كنت الآن أواصل حياة «يائسة» في إطارهـا السياسـي، علـى الصعيديـن الوطني والعالمي، بعـد انهيار المنظومـة الاشتراكية. لم أعد أشعر بأن هنـاك أملاً في التغيير. لقد انتهى كل شيء. وبقي لي الأدب، كمبرر لوجودي.

ذات صباح اصطحبني فؤاد معه إلى مقر عمل يوسف الصائغ. وهناك لاشيء نشربه سوى الشاي الذي تعافه نفسي لأنه قوي ويظل يغلي على النار ساعات، ومفرط في حلاوته. لكن صحبة يوسف ومناكدات فؤاد لـه تورثان في النفـس بعض المسرة. ثم إني كنت طيلـة أيامي «العراقية» تلك اعيش مع هوميروس، الذي بدأت أكتب عنه دراسة... ثـم دخلت ابتسام عبدالله في صحبة مخرج سينمائي مصري معروف(نسيت اسمه). وتم التعـارف من جديـد بيني وبينها بواسطة فـؤاد. هي كانت جميلة،

ولديهـا اعتداد في نفسهـا، وهي جمـة التهذيب، وفي تصـوري أنها ليسـت ملتزمة سياسياً، مع أنها أقرب إليهم (أعني البعث أو القوميين). ولعلها تشعر بارتياح إلى بعدها عن اليسار من غير ما نفور منه.

قالـت على حين فجـأة: «أي كيان هذا، لقد تهـاوى فجأة كبناء من كارتون».

لم يكـن هـذا الـكلام موجهـاً إلى أحد. لكننـي شعرت أنـه طعنني في الصميـم. لمـاذا خذلنا الاتحـاد السوفييتي بهذا الشـكل المهين. اهو غورباتشوف، أم أن المسألة أعمق من ذلك؟

أربعـون عاماً – بقدر تعلق الأمر بي – من الإيمان بالاشتراكية تذهب سـدى؟ أين هو الخلـل؟ كنت منكمشاً على نفسـي (في دخيلتي)، فأنا مـدان رغماً عنـي، لأنني كنت أؤمن بهذا الفكر الـذي تداعى. هل أنا جديـر بالاحترام؟ أنا أعلم أنني أكثر من ذلك، أكثر من هذا الفكر الذي تداعـى. أنا إنسان محترم، لي رصيـد اجتماعي وأخلاقي محترم، وكاتب محـترم. لكن الفكر الذي أتكئ عليه تهـاوى. وهذا الإحساس لا يشعر بـه فؤاد، لأنـه كان وجودي النزعـة. ولايشعر به يوسـف الصائغ لأنه طلـق الشيوعية منذ أن انهار في دائرة الأمـن، وكتب صفحة كاملة في جريدتهم يتبرأ فيها من اليسار. أما أنا فلا أزال أؤمن بالأفكار الاشتراكية، مع أنها انهارت؟ والغريب هو أنني ازددت الآن إيماناً بها، مع أنني كنت ضعيف الثقة في مقاومتها على البقاء.

أنـا لم أحب ستالين يوماً. واكتشفت أن لينين يحتقر المثقف، ويعتبره برغيـاً في ماكنـة الحزب. ما قولنا، إذن، بتولستـوي؟ كما اكتشفت أن ماركـس لم يكن نبياً، وقد أنجب ابناً مـن خادمتهم. المجلس وحده كان

موضع إعجابي ؛ وربما بوخارين أيضاً. كما أن اشتراكية لينين وستالين كانت معطوبة في رأيي. فلماذا آمنت بالاشتراكية، وازددت ايماناً بها الآن؟ هل ذلك لأنني أمقت الرأسمالية؟ كلا، أنا لا امقت الرأسمالية. فلماذا؟ هل العيب فيّ أنا؟ بمعنى أنني أخطأت حين جعلت من نفسي كائناً سياسياً؟ هل كان ينبغي أن أترفع عن السياسة، ولا أحفل بكلام ابتسام عبد الله؟

لكن الواقع هو أنني ابتعدت عن السياسة منذ شباط ١٩٦٣. وهذا جعل غانم يسخر مني، أو يغمزني. لماذا لم أبتعد عن السياسة قبل ذلك؟ ألأنني خدعت بلينين الذي يحث على النضال؟ لكنني لم أكن أصلح للنضال، وهو لايصلح لي.

هذا لا أهمية له. الشيء الذي يصعب هضمه هو لماذا انهار نظام دام سبعين عاماً، وجعل الملايين من الناس تؤمن بقضيته؟ في ايران توفرت الفرصة لوصول اليسار إلى الحكم، ربما في ١٩٥٢. وفي العراق توفرت مثل هذه الفرصة في ١٩٥٩. وفي فرنسا، وإيطاليا توفرت مثل هذه الفرصة بعد الحرب العالمية الثانية. ثم تبين أن ذلك كله كان حلماً خائباً بعد انهيار الاشتراكية في أكبر بلد في العالم.

الأفكار تتزاحم في رأسي: السياسة في العراق ؛ «جئنا في قطار أمريكي» (كان قائل هذا القول زميلي في الاعدادية المركزية) ؛ غورباتشوف... غورباتشوف، هل كان عميلاً للغرب؟ ومن يكون يلتسن؟ أم أن الاتحاد السوفييتي كان معطوباً ومنخوباً؟ في دار حسين التكمجي، بحضور محمود صبري، وغانم حمدون وآخرين، انفرد بي عادل حبة، وروى لي كيف أن رفيقة من حزب تودة انتقدت صناعة الأحذية في الاتحاد السوفييتي، لأن الناس لم تستطع ارتداءها. فوصل

خبرهـا إلى الأمن. واعتقلت، وتعرضت للتعذيب. ثم اغتصبها لافرانتي بيريا. لم أرد أن أصدق هذا الخبر لسنوات. ثم قلت مع نفسي: هل يمكن أن يكـذب عادل حبة، أو أن الرفيقة كانت تكذب؟ وتوصلت إلى قناعة بأنهمـا لم يكذبـا. وتحدثت عن هـذه الحادثة فيما بعـد في رواية (فرس الـبراري). فهل أسأت صنيعـاً؟ ذلك أن هذا الحـادث أن صح لا ينبغي أن يشطب إيجابيات النظـام... لكن وزير داخلية ستالين، هل يمكن أن يغتصب شيوعية؟

أعـود إلى ميخائيـل غورباتشـوف. نحـن استبشرنا بأفـكاره، التي كانت تبشر بالإصـلاح، وبقينا نتطلع إلى أبعاد أطروحته حول ما سماه الغلازنوست (الانفتاح)، والبيروسترويكا (إعادة البناء). ثم اتضح أنها أكذوبة فارغة.

شخصيـة غورباتشـوف اجتذبتني أول الأمر، علـى مدى عامين أو ثلاثة مـن حكمه. لقد بدا لي شخصية شيوعية متحررة وذكية وواعدة. نحـن اعتدنا أن نجد الاتحاد السوفييتي بلداً شامخـاً في سياسته، وأملاً لنا أمام جبروت العـالم الامبريالي الذي يتحكـم في مصائرنا. لكن عظمة الاتحاد السوفييتي اهتزت عندنا بعد موت ستالين، وانكشاف استبداديته الرهيبة. ولا أريد أن أتحدث عن لينين بالرغم من أنه كان أكثر ديمقراطية مـن ستالـين بكثير. علـى الاقل هو لم يلجـأ إلى تصفية رفاقـه الآخرين الذيـن خالفوه الرأي... أريد أن أقـول: إن نظام الحكم السوفييتي كان لا ديمقراطيـاً، باستثنـاء فترة حكم لينين، وربما بضـع سنوات من حكم ستالين. لكن أكبر ثغرة في النظام السوفييتي هي أنه زرع سياسة الخوف بـين السكان برمتهم. وهذا ما اكده لي غائـب طعمة فرمان في زيارتي الاتحاد السوفييتي ربما في ٧٦ أو ٧٧.

لذلك بدت إصلاحـات غورباتشوف واعدة، بما في ذلك خلق جو مـن الديمقراطية. لكن هـذه الإصلاحات كانت مضللـة على ما يبدو، وتبطن شراً. وسأستشهد برأي ايريك هوبسبوم في سياسة غورباتشوف. أكـد هوبسبوم أن سياسة غورباتشوف وزملائه الأصلاحيين سرعان ما اتضح إخفاقها الذريع داخل الاتحاد السوفييتي. فلربما كان هو وزملاؤه الإصلاحيون على قدر من التهور... وإن أفضل شيء للاتحاد السوفييتي وشعوبه هو الاستمرار في التراجع البطيء، مع الأمل بتحسن الاوضاع تدريجيـاً تحت حكم إصلاحي أقل طموحـاً وأكثر واقعية. وهذا ما كنا نتوقعـه نحن الذيـن شهدنا الحياة السائرة نحـو التحسن في المجر. وأنا أعتقـد أن شيوعيي ألمانيـا الشرقية حققوا إنجازات جيـدة، صار الألمان الشرقيون يحنون إليها بعد انهيار النظام، كما عكس لنا برنامج تلفزيوني عرضتـه قناة BBC. وأنا لا أضيف صوتي إلى منتقدي بناء جدار برلين، لأن دولـة ألمانيا الشرقيـة اضطرت اليه بعد أن أرهقهـا تهريب البضائع الشرقية لأنها أرخص. وأنا هنا أسجل تحفظي على انتقاد المفكر اليساري هوبسبوم سياسة الجدار:

قـال طـارق علي في مقـال له بعنـوان (اللانظـام العالمـي الجديد): «العديـد من الناس في أوروبا الشرقية يمارسون إحساساً بالنوستالجيا إلى المجتمعات التي كانت قائمة قبل سقوط الاتحاد السوفييتي. إن الأنظمة الشيوعيـة التي حكمت المنظومـة السوفييتية بعـد وصول خروشوف يمكـن اعتبارها دكتاتوريـات اجتماعيـة: أنظمة ضعيفـة بالأساس مع تركيبـة سياسيـة استبدادية، لكـن مع تركيبـة اقتصادية قدمـت للناس ديمقراطيـة اجتماعية على غـرار بريطانيا والسويد إلى هذا الحد أو ذاك. في استفتـاء جرى في كانون الثاني ٢٠١٥، اكـد ٨٢ في المئة من الذين

شملهـم هذا الاستفتاء في ألمانيا الشرقيـة السابقة، أن الحياة كانت أفضل قبل التوحيد. وعندما سئلوا عن الأسباب، أكدوا أنه كان هناك إحساس أكبر بالجماعة، وتسهيلات أكثر، و لم تكن النقود هاجساً مهيمناً، والحياة الثقافيـة كانت أفضل، و لم يعاملوا كمواطنين من الدرجة الثانية، كما هو وضعهم الآن».

أعتقـد أن وضـع البشـر الذين كانـوا يؤمنـون بالشيوعيـة، وما زال بعضهم، غريب جداً في الإطـار السايكولوجي. هناك أحزاب بكاملها تخلت عن قضيتها. لكن ما هو وضع الأفراد الذين تشربت حياتهم بهذا المبدأ؟ إنهم لا يريدون، أو لا يستطيعون أن يتخلوا عن مبدأهم. فماذا؟

هناك إحساس بالغدر. أنا كنـت أشعر أننا غُدرنا في آمالنا وتطلعاتنا. فكيـف تم ذلك بين عشية وضحاها، وكما عـبرت عنه ابتسام عبد الله، كأنـه بنـاء من كارتون تهاوى علـى حين فجأة. هـذا الإحساس سيبقى منغصـاً لي ولكل الرفاق الآخرين. وهـل سيبقى هناك طعم للحياة، بعد انهيار الحلم؟

أنا كنت يومذاك فاقداً بوصلة حياتي. كنت في زيارة غريبة إلى وطني، بعـد أن اضطررت إلى هجرانه، وبعد أن شعرت أنني لم أعد منتمياً اليه، بالرغم من أن لي عائلة فيه لا تريدني أن أتخلى عنها. لكنني لن يكون لي موطئ قـدم راسخ في هذا الوطن. فقد فقدت عملي فيه لأنني لم أرد أن أكـون امتثالياً. وأنا أمتعض أشـد الامتعاض من الفكر الذي يتبناه حكام (أو حاكـم) هذا البلد. فكيف سأستطيع أن أهضم الحياة فيه؟ لكن ما هي فرصـي في الحياة، وماذا سيكـون وضعي - في العراق - المجهولة آفاقه - لـن يكون لي عمل. وصحيح ان واجبـي العائلي يحتم عليّ أن أرتبط بالعائلة التي تتعلق بي. وفي الخارج تراجعت الفرص التي كانت تجعلني

أواصـل حياتي بكرامة. فماذا أفعل؟ لكن الذي حسم هذا التردد هو أن لـديّ إقامـة في بلد أوروبي، رغم أنه لم يعد يوفـر لي فرصة العمل. ومع ذلك أنا كنت زائراً وليس عائداً. لكن ماذا ينتظرني من مصير؟

هنـا شعرت بأنني موزع بـين «أن تكون أو لا تكون». وشعرت أنني سأبقى أقاوم الخذلانات، والصعوبات، ككاتب. وهذا سيعني أن وطني سيكون قلمي في المقام الأول، وسيصبح هو بوصلتي في الحياة. أنا كنت كاتبـاً قبل الآن، لكنني لم أمارس الكتابـة كاحتراف. كما أنني لم أحقق بعد ما أريد أن أكتبه. فأمامي طريق ما يزال طويلاً.

لكننـي تعرضت إلى صدمة لم أكن أتوقعها. فعشية عودتي من زيارتي التـي مددتها إلى شهرين لقيت معارضة شديدة لسفري من لدن زوجتي باسمـة والصديق نوري. لكأنهما كانا متفاهمـين على هذا الموقف منذ مجيئـي، أو منـذ توجيـه الدعوة لزيارتـي. كنا في لقاء في بيـت الصديق ماجـد علاوي. وكانـت الجلسة ودية جداً كالعـادة. وبدأ ماجد بتقديم الويسكـي، وزوجته خالدة بتقديم المـزة (كان من ضمنها كباب مشوي اشـتراه ماجد من محل كبـاب بالساطور في شـارع ١٤ رمضان). كان ماجد قد أصبح يملك دخلاً محترماً الآن.

وفوجئـت بقول نوري: «نحن لن نسمح لك بـأن تغادرنا». ما أشد مـا ينطوي عليـه هذا الكلام من حب. لكن ما أشـد ما ينطوي عليه من إحراج أيضاً. فأنا أحبهم، ولا أريد أن أغادرهم، لكنني لم أجئ لكي أقبر نفسي في العراق. فكيف أوضح الأمر؟

قلـت للصديـق نـوري: «أنـا لا أريد فراقكـم، لكن مـكاني لم يعد العراق».

«أين؟»

«الكتاب».

«وماذا في ذلك؟ أنت تستطيع أن تكتب هنا».

«لا».

«لكنك تكتب عن هوميروس، وتستطيع أن تجد مصادرك حتى في المتحف العراقي».

«آه، يا إلهي، لكنهم تدخلوا في ما اكتب، ألا تذكر ذلك؟»

إلا أنه قال: «لكن فؤاد التكرلي هنا، و لم يتعرضوا به مع أنه أوجعهم في (الرجع البعيد)».

قلت له: «هذه حالة استثنائية».

«اسمع، أنت لا تحبنا».

«طبعاً، هذا غير صحيح. أنا أستطيع أن أكتب خارج العراق بحرية أكبر».

«أكبر بكم؟ أنت لا زلت مرتبطاً بالعراق بعائلتك. ثم ما هي آفاق عملك في الخارج، وكيف ستعيش بعد انهيار المعسكر الاشتراكي الذي كان يؤويك؟».

كان هذا سؤالاً محرجاً. فأنا لا أعرف ما هي آفاق حياتي في الخارج. لكنني كنت وفرت ثمانية عشر ألف دولار لمثل هذا اليوم. وفي وسعي ان أحصل على مقابل لكتاباتي في مجلة (الكرمل). لكن المجلة تصدر كل ثلاثة أشهر. أي أن المردود ضئيل. لكن هناك سبباً آخر لرغبتي في

البقاء خارج العراق لا أستطيع أن أبوح به. وهو على علم به. لكن هذا الموضوع لم يكن قابلاً للنقاش. وفي كل الأحوال أنا لم أقم بهذه الزيارة لكي أعود إلى العراق. العراق انتهى بالنسبة لي.

بدأت أشعر أنني كنت محشوراً في زاوية، وأن نوري يزداد «ضراوة» في نقاشه، لأنه أخذ يشعر أنني صرت أبتعد عنه. وهذا غير صحيح. الصحيح هو أنني أفكر في مستقبلي. ومستقبلي لن يكون في العراق. أما هو، نوري، فلابث، وليست لديه أية رغبة في العيش في الخارج. هو يعتقد ويستطيع، أن يعيش في جزيرة في العراق. وهناك الفارق بين «عملنا»، هو طبيب، وأنا أصبحت كاتباً بعد أن كنت مدرساً. وهذا لا أستطيع أن أجاهر به.

أخذ يشدد الخناق عليّ، لأنه مدرك أنه سيخسر أعز صديق له. أنا كنت بالنسبة له أقرب من زوجة ومن حبيبة. كنت أشكل معه «فريقاً» يطرد كل هموم الواقع. هو لم يكن يشعر بعزلة، لأنه كان يمضي كل لياليه في بيتنا. بيته أصبح بيتنا. وأن أتركهم يعني أنه سيصبح في عزلة «تامة»، لأن أحداً غيري لن يسد الفراغ الذي أتركه.

أما أنا فوضعي مختلف. وقد ظلت هناء تتساءل عن سر هذا الانسجام الكبير بيننا مع الفارق بين شخصيتينا، وفي الواقع أن هناك اختلافاً بين شخصيتينا. لكن الانفتاح في المشاعر بيننا هو سر هذا الانسجام الهائل بيننا.

كانت تلك الليلة أسوأ ليلة أمضيتها في العراق؛ وقد توترت العلاقة فيما بيني وبين نوري إلى حدٍّ كبير. كان الآخرون يتابعون هذا النقاش بصمت. ولم تجد زوجتي حاجة إلى الكلام، ما دام نوري يعبر عن لسان

حالهـا خير تعبير. و لم يتدخل في النقاش غيرنا. أنا كنت أدرك أن ماجد عـلاوي لم يكن يؤيد نـوري في محاصرته إياي. وقد عبر لي عن رأيه بعد أكثر من عشر سنوات عندما التقينا في بيت أخيه (ابراهيم) في لندن.

قلت لنوري: «أنت لا يحق لك أن تحاصرني بنقاشك. أنا لم أكن أريد أن أقوم بهذه الزيارة لولا إلحاحك، وتوسلات ابنتيّ. أنا غاسل يديّ من العـراق. ولا أدري كيف تحملتم أنتم الحرب مع ايران التي دامت ثماني سنـوات. العراق مطلوب منـه أن يخوض حروباً. وهو مقبل الآن على حرب جديدة».

«من قال لك؟ ومع من؟»

«لا أدري مـع من. لكننـي قرأت في مجلة (نيوتايمـس) السوفييتية أن حرباً جديدة ستقع، وسيكون العراق أحد أطرافها. أنا لا أريد أن أعيش في بلد تفرض فيه عليّ سياسته المجنونة أو المشبوهة. أنا أرفض ذلك».

«هذا رجم في الغيب. الحرب مع ايران كانت غلطة أو خدعة. فلماذا تتكرر حتى مع لاعبين جدد؟»

«المشكلة، يا عزيزي، هي أنني لا أريد أن أعيش في بلد يحكمه رجل مشبوه، ويتصرف بمصائرنا كما يشاء، أو كما يشاء موجهوه».

«هـذا ليس جديـداً. وأنت تتصـرف بأنانيـة، ولا تحفـل بعائلتك، وبأصدقائك».

قلت: «أنا بودي أن أقنعك بأن العراق محترق، وأن تتصرف في ضوء ذلك. وبودي أن أسحب عائلتي معي، لكن ذلك غير ممكن الآن، بالنسبة لظـروف العائلة (مدارس البنات، الخ)، وبالنسبـة لي. وأنا لم أفكر من

قبل في ترك العراق لو لم يضغط عليّ. ويومذاك لا يمكن اعتباري انانياً، لأنني لم أرد أن أحترق. أما الآن فمن قال ان الوضع تغير. أنا لا أستطيع أن أعيش في العراق بعد الآن. هل هذا أنانية؟»

«نعم، وأنا أناشدك بأن تبقى معنا، فليس هناك حريق في الافق».

«هل نحن نختلف الآن في نظرتنا السياسية؟»

«هذا ليس مهماً. المحزن هو أنك تغيرت».

«أنا لا أستطيع أن أعيش في بلد يحكمه بلطجي».

«هل تريد أن تهيننا كلنا لأننا لا نريد أن نتخلى عن بلدنا مهما كانت الظروف؟»

«أنت فقدت هدوءك، نوري، لا تتقول عليّ».

«اسمع، يا صديقي، أنت تفكر في نفسك فقط».

«يؤسفني أن أكرر القول إنني كاتب».

«لكنهم دعوك لزيارتهم بهذه الصفة. فهم يحترمونك».

«هذا صحيح جزئياً، وأنت تعلم ظروف دعوتي».

«ولماذا ترددت بعد كل تطميناتي ولهفتي؟ أنت لم تعد أنت».

شعرت أن الحديث بيننا كالحديث بين طرشان. هو يريدني أن أبقى ؛ وأنا لا أريد أن أبقى. كنت أريد أن ينتهي هذا الحوار لانه أصبح لا معنى لـه بعد أن أكدت رغبتي عدم البقاء في العراق. لكن نوري كان يريد أن يقنعني بالبقاء، وقد ساءه جداً موقفي الرافض. كان متسلطاً في تلك

الجلسة، ويشعر كالمجروح. وهذا الجرح جاءه من أقرب صديق له.

قال: «يبقى ألمي شديداً لأنك ترددت في زيارتنا بعد كل التطمينات التي قدمتها لك. هذا يعني أننا لم نعد نعني شيئاً بالنسبة لك».

«هذا غير صحيح، يا عزيزي، أنا تعرضت لضغوط شديدة لكي أمتنع عن تلبية دعوة المربد، باعتبارها دعوة من حكم أقل ما يقال فيه أنه معادٍ للشعب. والآن أنت تريدني أن أبقى في العراق. فماذا سيقول عني المثقفون الديمقراطيون؟ ألن أحترق ببقائي في العراق. ألا تفكر في سمعتي؟»

«ماذا، هل تريد أن تحول الكرة إلى ملعبي؟ لماذا تترك الآخرين يتحكمون في مصيرك؟»

«هل أنت جاد؟ هؤلاء ليسوا آخرين، بل مثقفين نتحرك في فلكهم».

قال: «فأنت تريد أن تتذرع بالمثقفين لكي تبتعد عنا؟»

«أنا ابتعدت عنكم عندما تركت العراق، لكي لا أحترق. وسأبتعد عنكم الآن أيضاً، لكي لا أحترق أيضاً».

«طيب، أنا لا أريد لك أن تحترق».

# الفصل التاسع

كنت في تلك الأثناء أفكر في كتابة دراسة عن هوميروس. ففي سياق قراءاتي عن الأساطير اليونانية، وقراءتي الإلياذة والأوذيسة، توفرت لدي معلومات عن الحضارة اليونانية القديمة، ومعلومات عن الأدب والتاريخ المقارن مع شعوب منطقتنا. وأصبحت أسماء أسطورية يونانية، مثل آخيل، وسيزيف، ودايونيسوس، وهرقل، الخ، ضمن اهتماماتي. وأصبح هوميروس أحد أهم الأشخاص الذين كانوا يشغلون بالي. وفي اثناء زيارتي العراق كنت منصرفاً إلى هوميروس وعالمه. وكنت أذهب كل يوم تقريباً إلى بيت نوري السعدي لأراجع الموسوعة البريطانية. لكنني أنجزت كتابة الدراسة عن (هوميروس) عندما عدت من بغداد إلى بودابست. وأنا لا أزال أعتز كثيراً بهذه الدراسة التي غطت خمسين صفحة، ونشرتها أول الأمر في مجلة الكرمل - على ما أظن - ثم في كتاب (التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب). في هذه الدراسة ناقشت فكرة الملحمة الهومرية وجذورها، أعني بذلك فكرة اختطاف

اميرة جميلة (هيلن)، وسوابقهـا التأريخية. وتطرقت إلى وجود بعض النقـاط المشتركة بـين ملحمة جلجامشـ والإليـاذة والأوذيسة؛ وإلى وجـود متوازيات مـع قصة الأوذيسـة كمغامرة بحريـة؛ وإلى قصص البطولـة الملحمية (منذ سيرة سرجون الأكـدي ٢٣٤٠ – ٢٢٨٤ ق. م). ؛ والى وجـود متوازيـات مـع قصة حصـان طـروادة، التي ترمز إلى الخديعـة العسكرية. ثـم ناقشت معظم الأسمـاء المهمة الواردة في ملحمتـي هوميروس، وسأكتفي هنا بذكـر بعضها، مثل الدانيين الذين كان هوميروس يقصد بهم اليونانيين؛ وآخيل؛ وطروادة، ودايونيسوس نفسـه، أو يوليسيز؛ والمتاهة Labyrinth؛ وهيلـن بطلة الإلياذة وزوجة منيلاوس، أخـي اغامنـون، التـي اختطفهـا باريس ابن بريـام ملك طـروادة؛ وكلمة الإليـاذة Iliad المشتقة مـن Ilias اليونانية، وقد أشرت إلى أن المعاجم الغربيـة تحاول تجنب ذكر كلمة (إيل) السامية التي تقال للإله. كما ناقشت اسم (هوميروس) نفسه بشيء من الإسهاب.

كنـت أجد لـذة في قراءاتـي الأسطورية واللغويـة. وكانت قراءاتي مكثفة، لكنها حسنة الاختيار. فقد وقع اختياري واختيار آخرين على كتب لا تقـدر بثمن. الجار الراحل، الدكتور فـوزي رشيد أعارني كل الأجزاء المطبوعة يومذاك من معجـم شيكاغو للآشوريات. وهذا قدم لي معجماً عن اللغتين السومرية والأكدية. والمستشرق التشيكي عرفني علـى كتاب المقارنة بين ست مجموعات لغوية لأيليتش سڤيتيش، الذي لم يكـن يقدر بثمن، رغم أنني لم أحصل سـوى على الجزء الأول منه. ووجـدت فائدة كبيرة في كتاب (الأساطـير اليونانية) لروبرت غريفز. كمـا وجدت متعة وفائدة في قراءة كتابه الآخر (الإلهة البيضاء)، الذي عـثرت عليه في لندن في أثنـاء زيارتي لها عام ١٩٨٠. وهنا علمت أن

الإلهـة البيضاء تدعـى Albina (ألبينا). ومنها سميـت بريطانيا القديمة Albina. ومنها جاء اسم لبنان أيضاً. وانا رجعت بذلك إلى كلمة (لبن) التـي من بين معانيها البياض، في اللغـات السامية – الحامية، واللغات الهنديـة الأوروبيـة. وقد كتبـت كلمة جميلـة عن الموضـوع بعنوان (البحث عن الإلهة البيضاء).

ومـن الكتب التي قدمت لي خدمة كبيرة، كتاب Hellenosemitica، الـذي قدمتـه لي الصديقة (غ)، كمـا ذكرت سابقاً؛ وكتـاب سوفيتي مترجـم إلى العربية، بعنوان (الجديد حول الشرق القديم)، الذي أرسلته إليّ بمحض اختيارها الصديقة هناء. لقد قدم لي كتاب (هيللينوساميتيكا) لمايكل أستور التشيكي معلومـات قيمة عن الجذور السامية للكثير من الكلمـات والأسماء اليونانية. أما الكتـاب الثاني (الجديد حول الشرق القـديم)، فقد قـدم لي معلومـات قيمة أيضـاً عن الفرضيـات القديمة والجديدة عن موطن الأجداد الهندو – أوروبيين.

وأود أن أشير إلى كتاباتي اللغوية التي بدأت أنشرها في مجلة (الكرمل) التـي كان يشرف عليها محمود درويش. بـدأت هذه الكتابات بدراسة مطولـة عن الجذور المشتركة بـين اللغات الساميـة – الحامية واللغات الهنديـة – الأوروبية. وبعـد ذلك صرت ارسـل إلى الكرمل دراسات تحت عنـوان (اهتمامات ميثولوجية واستطـرادات لغوية)، وأعتقد أن هذه الدراسات حققـت لي سمعة طيبة بين المثقفين. وأعترف بأن هذه الدراسـات كانت شيقة جـداً، وغنية في مادتها. وقد نشرتها في كتاب تحت عنـوان (جولة في أقاليم اللغة والأسطـورة)، طبع طبعتين في دار المـدى. وأنا أعتبر هذا الكتـاب من بين أجمل كتاباتـي. تشتمل مواد الكتاب علـى المواضيع الآتيـة: رموز الخصب في الأسطـورة واللغة؛

والأشجار في عالمي الأسطورة واللغة؛ ومفردات رعوية؛ والطبيعة بين الأسطورة واللغة؛ وشيء عن الزمن.

لا أريـد أن أفضل موضوعاً على آخر. لكنني سأتوقف عند موضوع (الأشجار). كلنا مغرمون بالأشجار، على ما أحسب. أما أنا فقد ازداد تعلقـي بها، وحبي، بعد أن شاركت في ترجمة رواية (الدون الهادئ)، التي كانت الأشجار من بين أحـب استطرادات ميخائيل شولوخوف، هي واسماء الأعشاب، والطيور، الخ. (لا أزال أذكر نبات الأرقطيون، الـذي لم أكن اعرفه، لكنني طربـت لاسمه). جاء في نهاية الجزء الثاني، بعـد مقتل ميشـا ودفنه: «وفي غضـون أسبوعين نما علـى الرابية نبات الشيـح والأرقطيـون، وراحت سيقـان الشوفان الـبري تتراقص فوقه، وأزهـر اللفت على جانبيـه بصفرة بهيجة، وارتفعـت سيقان البرسيم، وفاح الهواء بالسعتر والشبرم والندوة العسلية».

وفي أوروبا (الخضراء) وقعت في غرام الأشجار. في طريق ذهابي من بيتـي في بودابست إلى مركز المدينة أصـادف أشجاراً متنوعة حرصت علـى أن أعـرف أسماءهـا. ففـي فضاء مجمعنـا السكنـي كانت هناك شجـرة جوز، وصف من اشجار البنـدق، وفي الطريق المنحدر، كانت هنـاك أشجار زيزفون، وكستناء بريـة، وقيقب، وبتولا، وتنوب فضي، ودر دار، وسفرجـل، ولـوز، ودلـب، الخ. وأصبحت هـذه الأشجار صديقاتي.

وكتبـت الدراسة عـن الأشجار في عالمـي الأسطـورة واللغة بحب وتلذذ. فقد استهللت الكلمة بالرقية البابلية الآتية: «يا كوكرو، كوكرو، كوكرو، أنت أنجبت في الجبال المقدسة الطاهرة صغاراً من بغي مقدسة، بذور صنوبر من عذراء». ويا إلهي ما أظرف الكاتب البابلي هذا.

انا لي علاقة حميمة بالنخل، إنني من بيت الشوك، مالكي البساتين، وقد ولدت في الكرادة. النخلة لم ينل اسمها إعجابي، لأن الخاء حرف ثقيل. لكنني أحببت اسمها في اللغات السامية، تمار. وأحببت اسم (تمارا)، الذي يطلق على الروسيات والقفقاسيات، ثم اقتبسه منهم بعض المثقفين العرب، مع أنه بضاعتنا تُرد الينا.

بدأت دراستي بالحديث عن النخلة، بصفتها إلهة ولادة، كما كانت في مصر، وبابل، والجزيرة العربية، وفينيقيا. وفي القرآن عن مريم ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾. ولعل اصل كلمة (تامار) من كلمة (مارّاتو) الأكدية. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن كلمة (نخلة) العربية جاءت من (خولاميتو) الأكدية. وأن كلمة (التمر) العربية، وكذلك (الثمر) من كلمة (تمار). والتمر بالسومرية (زو – لوم – ما) ؛ وبالأكدية suluppu. فهل السلاف العربية جاءت منها؟ والنخلة بالسومرية GISHIMMAR. وتسمى النخلة باليونانية فينقس Phoenix. وتقال هذه الكلمة للعنقاء أيضاً. كما تعني هذه الكلمة أرجوان. وإنما سميت العنقاء فينقس لأنها، كما تقول الأسطورة تتوالد على نخلة.

حديث النخلة طويل، وسأكتفي بهذا القدر عنها لأنتقل إلى علاقتي بالنخلة، وبعد ذلك إلى شجرة التفاح. النخلة في رأيي شجرة شاذة عن بقية الشجر، وذلك ربما لأنها شجرة صحراوية. جذعها ليس خشباً طبيعياً؛ وأوراقها ليست أوراقاً طبيعية. لذلك أنا أحس بنوع من الخلل في تكوينها. كنت أشعر منذ صغري بهذا الخلل في تكوينها.

أنا لا خبرة لي في علم النبات. لكنني أعتقد أن سلبيات تكوين النخلة هي إيجابيات. لأنها بجذعها غير الصلد استطاعت أن تقاوم الجفاف والحرارة. إن أي شجرة أخرى لا تقاوم جفاف الصحراء. وهي قاومت

لأنهـا لم تبق شجـرة كسائر الأشجـار. وهناك شيء آخـر، إنها بحكم طولهـا تحدب على بقيـة الأشجار وتحميها من لهيـب الشمس. لذلك تزرع الحمضيات مثلاً تحت أشجار النخيل.

ثـم إن التمر هو أعظـم هدية تقدمهـا النخلة لابـن الصحراء ولكل الناس. ويقال إن هناك أكـثر من ٤٥٠ نوعاً من التمـور. وسأذكر هنا بعض أنواع مـن التمـر العراقي، مثـل: الدقل، والمكتـوم، والبرحي، والتـبرزل، والخستاوي، والبربـن، والأشرسي، والـبريم، والخضراوي، والأزرق – الأزرق. ومـن بين أكثر التمـور شيوعاً في المنطقة الوسطى الزهدي. لكنني وجـدت التمر السكري ألذ أنواع التمور قاطبة، وهو تمر سعودي على ما أظن. وكان في أرض آل الشوك صف من السكريات جاء بفسائلها جدي من الحجاز. نحن كنا نحمل لهذه السكريات نظرة خاصـة تختلـف عن بقية أشجـار النخيل في أرضنـا. ولا أدري ما هو مصيرها بعد أن بني فندق ميليا منصور في أرضنا.

في دراستي عن الأشجار تحدثت أيضـاً عن الصفصاف، والصنوبر، والبلوط، والزيتون، والكرْم، والتفاح، والرمان، الخ.

ومـن بين الأشجار المثمرة أحببت البرتقـال، والتفاح، والكرز. كان منظـر ثمار البرتقـال على أشجـاره يأسرني في بساتـين بعقوبة. ولزهر البرتقـال، الأبيض، قبل أن يتحـول إلى ثمرة رائحة مذهلة وذات شذى فريـد مـن نوعه. وأنا واثق مـن أن البرتقال لو عـرف في القديم لاحتل موقعـاً لامعـاً في عالم الأسطـورة. لكن التفاح احتل هـذا الموقع بدله. ويبدو أن معظم الفاكهة جاءتنا من الصين، وفي مقدمتها الحمضيات.

لكـن التفاحة ربما كانت أجمـل أنواع الفاكهة شـكلاً. هي متفردة

في جماليتها بواسطة رصعتيها من أسفل ومن أعلى. هاتان الرصعتان لا نكاد نجد لهما مثيلاً في أية فاكهة أخرى. وهنا سرٌّ جمالي آخر في التفاحة. فنحن اذا قطعنا التفاحة جانبياً، فسنجد في داخلها نجمة خماسية الشكل؛ وهذه كان ينظر إليها كرمز سحري. وإذا قطعناها عمودياً فسيوحي لنا لبُها بأنطباع جنسي. وربما لأجل هذا اقترن التفاح بالحب والجنس. فقد ورد ذكر التفاح في الأشعار التي تتغنى بمفاتن الإلهة السومرية إنانّا. وفي إحدى هذه القصائد إشارة إلى ان اتكاء إنانّا إلى شجرة تفاح يجعلها مشتهاة. وفي قصيدة أخرى تُظهر إنانّا مفاتنها العارية لحبيبها تموز تلقاء شجرة تفاح. وفي رُقيّة حب آشورية تُسدى نصيحة إلى خاطب ود العروس بتلاوة تعويذة على تفاحة أو رمانة (كان الرمان فاكهة حب أيضاً، وكذلك السفرجل).

وفي نشيد الأنشاد (في التوراة) جاء: «كالتفاحة في أشجار الغابة، كذلك حبيبي بين البنين. وفي ظله اشتهيت الجلوس؛ وثمره حلو في حلقي». وفي موضع آخر: «أنعشوني بالتفاح، فقد أسقمني الحب».

وفي الأساطير اليونانية إن التفاحة كانت تقدم هدية كرمز للاعتراف بالحب. وقيل إن الجواري في أيام العباسيين كُن طالما يهدين التفاح إلى من يكلفون بهن، أو يتعلقن هن بهم. وكن يتركن عليه أثراً أو آثار بأسنانهن، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة.

وقيل إن جارية صبية مضيئة الوجه مرّت بأبي نواس، فمازحته ساعة. وكان هو يومذاك صبياً أيضاً، مليح الوجه. ثم رمت الصبية المراح إليه بتفاحة معضضة. فقال على البديهة من أبيات: «ليس ذاك العض من عيب لها / إنما ذاك سؤال للقبل».

كنت أريد أن أكتب عن موطن التفاح الأصلي: من أين جاء التفاح؟. لكنني سألجأ إلى الإيجاز، إنني في سباق مع الزمن، وصراع مع الكآبة. فالزمن، بمعنى، الذاكرة، والكآبة، يعرقلان مهمتي في الكتابة. وأنا أريد أن أتحدث عن أسفاري، التي جعلتني على تماس مع الحياة، والآخرين، ووفرت لي فرصاً ثمينة للكتابة. ومن أغنى هذه الفرص لقائي بالصديقة (غ)، التي تحدثت عنها في الصفحات السابقة. لكن (غ) أتاحت لي فرصاً للسفر إلى بلدان أخرى، لولاها لم تتوفر لي، بحكم العراقيل التي اتعرض إليها بواسطة جوازي العراقي الهزيل. ففي البدء استطاعت أن تهيّئ لي فرصة زيارة اليونان وجزيرة كريت، بحكم علاقاتها اليونانية. وقد استفدت من سفرة كريت في رواية «الأوبرا والكلب»، التي سأعود إلى الحديث عنها. وأنزلتني شهراً كاملاً في بلدة في بريطانيا في عام ١٩٨٦. ثم استطعت السفر بواسطتها إلى بلجيكا غير مرة كانت أولها في ١٩٩١. وفي بروكسل أيضاً أنزلتني في شقة فاخرة في شارع شومان، أو لعله شارع لويز. وهنا أتيح لي أن ألتقي لأول مرة بكامل شياع. فقد كان الصديق (سابقاً!) غانم حمدون على علم بحركتي، وقال لي: «هناك شاب عراقي مثقف يقيم في بلدة لوڤان، سيسعده أن يتعرف اليك». واتفقنا على موعد أمام مكتبة الدراسات الفلسفية واللاهوتية في جامعة لوڤان. وبعد اللقاء جال بي كامل في أروقة المكتبة. ثم انتقلنا إلى مكتبة كان يؤمها مثقفون. وفي ركن من أركان المقهى بدأ كامل يمطرني بسيل من كلامه السريع. فذكرني بعالم الفيزياء الدانماركي نيلز بور، الذي قال عنه برتراند راسل: إنه كان يتكلم بسرعة كان راسل يعجز عن متابعتها.

وكان طبيعيـاً أن يتحـدث كامل عن قضايا الفكـر والفلسفة. فهو درس الفلسفة في معاهد أكاديميـة. وكان يتقن الفرنسية، والإيطالية، والإنكليزيـة، والفلمنكية، إلى جانـب العربية. وتحدث عن فلسفة ما بعد الحداثة، التي كانت رائجة يومذاك. وذكر أسماء لم أسمع بها من قبل، مثل بودريار، وليوتارد، ولاكان، الخ. فقلت ما أحوجنا إلى مثل هذا الشاب، الذي يستطيع أن يسد الثغرة الفلسفية عندنا.

ولسـوف تتوطد العلاقة بيني وبين كامـل شياع. وسأقرأ له، ويقرأ لي، وقـد كتب عن روايتي (الأوبرا والكلب) كلمة جميلة. ثم فجعنا بحـادث اغتيالـه في ٢٠٠٨. وكتبت عنه كلمة في جريـدة (الحياة) بعنوان (مسدس كاتم الصوت). وفيما بعد كتبت رواية قصيرة بعنوان (موعد مع الموت) مستوحاة من حادث اغتياله.

في تلك الزيارة (الى بلجيكا) عثرت على كتاب بعنوان (Inanna)، فـكان لقطـة بالنسبة لي. والتمست مـن الصديقـة (غ) تصويره بآلة الاستنساخ. وعدت به إلى بودابست لأشرع بترجمته على الفور.

أنا كنت قد فرغـت حديثاً من كتابة دراسة عن هوميروس. وكنت مشغـول البـال بشخصية هيلـن التي كانـت البطلة الخلفيـة لملحمة الأوديسـة، ملحمـة عن امرأة. فكيف كانت هيلـن؟ لا أظن أن امرأة أخرى في تاريخ الأدب كانت في مضاهاتها.... جان دارك؟ هيلويز؟ هيلداغارد أوف بنغن؟ الولادة بنـت المستكفي؟ السومريون أعطونا إنانّا، ويعني اسمها (سيدة السماء). وهي تصور كحزمة قصب، وهذا أيضاً من معاني اسم هيلن.

لكـن إنانّا أصبحت عشتار بالأكدية، وعشتارت بالكنعانية. وهذا

ربما يذكرنا بأفروديت. فأفروديت هي عشتار، لأن إنانّا = عشتار هي إلهة الحب والحرب.

أنا لا أريد أن أكون معجباً بأولاء البطلات الأسطوريات، حتى بإنانّا. لكـن الكتاب الشعري عنهـا أثار فضولي في قيمتـه التقنية، بالرغم من سذاجتـه الأدبيـة المفرطة. أنـا أعجبت كثيراً بتعـدد الأصوات في هذه الإضمامـة من الشعـر. الشعر كان هنـا ذا أصوات متعـددة، رغم أنه بدائـي، أو يمثل مرحلة طفوليـة من الشعر. وفي هـذا كان متفوقاً على الشعر العربي الكلاسيكي الذي كان ذا صوت واحد.

في قصيـدة (الغزل بـين إنانّا وتموز)، هناك صوت أوتـو شقيق إنانّا؛ وصـوت إنانّا، وصوت تمـوز (الراعـي) ؛ وصـوت Ningal، أم إنانّا؛ وصـوت ننشوبور خادمة إنانّا. والقصيـدة في معظمها حوار بين تموز وإنانّا.

وفي قصيـدة (مـن الأعلى العظيـم إلى الأسفل العظيـم)، هناك عدة أصـوات أيضاً: صوت إنانّا؛ وصوت خادمتها ننشوبور؛ وصوت Neti حارس بوابـة العالم الأسفل، وصوت أريشكيغـال إلهة العالم الأسفل؛ وصـوت الأب انليـل؛ وصـوت الأب نانّـا؛ وصـوت الأب آنكـي؛ وصوت الكورغورا؛ وصوت الغالاتور؛ وصوت الغالا عفاريت العالم الأسفـل؛ وصوت تموز. وهذه الأصوات تأخـذ طابعاً أشبه بالحوار في تمثيليـة. وهـذا قد يدعو إلى الاعتقـاد في نشوء التمثيـل في سومر. وقد قـرأت دراسة للدكتور فوزي رشيـد في ١٩٨٩ بعنوان (المسرح عراقي الأصل) وجدتها جديرة بالتأمل. أنا لم أعد احفل باللّهاث وراء إنجازاتنا التأريخيـة ولمن كان السبق في هذا الإنجاز الحضاري أو ذاك. فالحضارة الآن هـي نتاج الغرب، ثم لا ننسى انهـم ونحن أقرباء منذ عشرة آلاف

سنــة حيث ابتعد الأوربيون عنا بحثاً عــن مواطئ قدم جديدة في رحلة الحنطة من منطقتنا إلى الغرب (والشرق)، مع أن الشرق اقتات على الرز.

لكــن مقولة الجــذور السومرية للمسرح – قبل اليونــان – قد تكون صحيحــة. وربما كان نــزول إنانّا إلى العالم الأسفــل أول عمل مسرحي في التاريــخ. ومما يدعو الدكتور فوزي رشيــد الاعتقاد بممارسة التمثيل في سومــر، وجود كلمة للممثل، ومثلهــا للممثلة في اللغة البابلية وهما «موميلــو»، و «موميلتو». كما نلاحظ أن المصدر البابلي الذي اشتقت منه كلمتا الممثل والممثلة، هو «ميلولو»، ويعني «يلعب». ولعله ليس من بــاب المصادفة أن اللغات الأوروبية تستعمــل الفعل «يلعب» في عملية التمثيل.

هــذا كان استطراداً جانبياً. فموضوعنــا هو الشعر الذي قيل في حق إنانّــا. ولعله كان أقدم شعر. لهذا سنجــده شعراً ينطوي على الكثير من السذاجــة. وهنــاك عنصر التكرار فيــه. لكن فيه مصداقيــة في المشاعر كبــيرة، وحريــة مطلقة في التعبير عن هذه المشاعر. إنــه شعور عارٍ، إذا جاز لي القــول. وأنا سأذهب إلى القول إن إنانّا نفسها ربما كانت عارية أحياناً من أي رداء. في مستهل قصيدة (إنانّا وإله الحكمة) جاء:

«وضعت إنانّا تاج البرية على رأسها
مضت إلى حضيرة الغنم، إلى الراعي
أسندت ظهرها إلى شجرة التفاح
عندما أسندت ظهرها إلى شجرة التفاح، خلب عضوها الأبصار،
وإذ انتشت بعضوها الذي يخلب الأبصار، ازدادت
الفتاة إنانّا زهواً بنفسها».

ولاحظت أن هذه الأشعار ليس فيها محظور في الجنس. وهذا جعلني أتردد في ترجمتها، لأنها قد تسبّب إشكالاً لدار النشر، وحرجاً لكثير من القراء. لكنني تغلبت على ترددي، لأن الامتناع عن ترجمة شعر بريء كل البراءة في التعبير عن المشاعر، سيحرمنا من الاطلاع على آدابنا والوقوف على سايكولوجية تلك المجتمعات التي نعتز بكونها واضعة اللبنات الأولى لكل مقومات الحضارة. مع ذلك، قال لي الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي بعد أن أهديته نسخة من الكتاب: «أهذا كتاب يستطيع إنسان أن يضعه في بيته؟». لكن كتاب (الأغاني) لأبي فرج لم يكن أقل من هذا الكتاب حياء. وأنا الآن لا أملك سوى نسخة واحدة فقط من هذا الكتاب. ولا أدري كم يملك منه الناشر (صاحب دار الجمل). وقد أخبرني قبل بضع سنوات بأنه يفكر في طبع الكتاب طبعة ثانية من أجل أن تتيسر قراءته الآن لدى الشعب العراقي، الذي كان محروماً منه، لكنه تردد، على ما يبدو، لأنه لم يجد الظرف مناسباً في العراق الآن لتوزيع مثل هذا الكتاب.

الكتاب صدر في ١٩٩٢ عن دار الجمل بعنوان (من روائع الشعر السومري). وكان في ودي أن أنقل إحدى قصائده في كتابي هذا، لكنني قد أقنع الناشر، السيد خالد المعالي، بإعادة طبعه. فأنا لديّ قناعة بأن هذا الكتاب سيجد رواجاً بين القراء العراقيين ليقفوا على نماذج لم تنشر من شعر مواطنيهم القدامى.

ويتعين عليّ أن أعترف بأن الأدب السومري تألق بعملين أدبيين متميزين، هما ملحمة جلجامش، وهذه الإضمامة الجميلة من الشعر عن إنانّا. وأنا هنا لست بصدد الحديث عن ملحمة جلجامش التي تعتبر من مفاخر الأدب القديم. لكنني أود أن أتوقف أكثر الآن قليلاً عند

الحديث عـن إنانّا. بالنسبة لي، أنا أضيف إنانّـا إلى الشخصيات الأدبية النسائيـة اللواتـي استأثـرن بحبي واهتمامـي، مثل ماتيلـد بطلة رواية (الأحمـر والأسود) ؛ وآنّا كارانينا؛ واليزابيث بنيت بطلة رواية (كبرياء وهـوى). في كل الأدب القـديم لم أجدني منجذبـاً إلى شخصية نسائية مثل إنانّـا. هناك شخصيات نسائيـة متألقة في عـالم الأساطير اليونانية والرومانية، لكنهنّ كنّ «مصقولات» أكثر، وذلك لأنهنّ كنّ أكثر تحضراً مـن إنانّا، بحكم عامل التطور. لكـن «بدائية». إنانّا لها سحرها الكبير علينـا في براءتها وسذاجتها وحريتها المطلقة. مع إنانّا لم يكن هناك تابو أو محظور. وهذا ربما كان صادماً لنا. لكنه هو الحقيقة الصادقة.

في (شجـرة الخـلاف)، جلجامش هـو شقيقها، وسندهـا، وهازم العفاريـت الذين يقلقون راحتهـا. وفي (الغزل بين إنانّا وتموز) نجد إنانّا أقـوى شخصية من تموز، بالرغم من أنها تجـد لذتها معه، وتتعاطى معه فنون الحب بكل المشاعـر الأرضية أو البشرية. وفي (إنانّا وإله الحكمة) تُعامـل إنانّا بتوقـير ومحبة من إله الحكمة آنكي، الـذي يمنحها كل فنون المعرفة والحياة. وأنا استمتعت بهذه القصيدة كثيراً، وسأنقل مقاطع منها. وتبارك إنانّا في التراتيل السبع التي ترفع إليها. لكنها تذل في نزولها إلى العـالم الأسفل. ولا تعاد إلى العالم الأعلى إلّا بعـد أن تقدم بديلاً عنها. وهـذا يعني أن هاجس المـوت كان أكبر منغص لـدى السومريين، لأن المـوت لا يعني عندهم توقف الحياة، بل حيـاة شقية في أسفل الأرض، كأن يكون الطين طعام الموتى.

أريد أن أنهي حديثي عن هذه المجموعة الشعرية المكرسة كلها لإنانّا، بأقتباس بعض ما جاء في قصيدة (إنانّا وإله الحكمة):

تتحـرك إنانّـا في زورقها مـن أوروك إلى أريـدو، لتستلم مـن أبيها

آنكـي شعائر الأرض والسمـاء، بعد أن تعرض مفاتـن أنوثتها لتخلب الأبصار(!) وحين يعلم آنكي بخبرها، يرسل خادمه إيسيمود ليستقبلها ويقدم لها كعكـة معمولة بالزبدة، وماءً بـارداً لينعشها، وجعة. ولدى وصولها يشرب آنكـي الجعة معها سوية بقدحيهما البرونزيين المترعين، إلى ان يتعتـع آنكـي الشراب. ثم يقول آنكـي، أصالة عن نفسي! ونيابة عن مزاري المقدس!

سأمنح ابنتي إنانّا

الكهنوتية العليا! ألالوهية!

التاج الرفيع الخالد! عرش الملكية!

إنانّا أجابت: أتسلمها!

ثم يرفع آنكي كأسه ويتقارع مع إنانّا النخب مرة ثانية!

«أصالة عن نفسي! ونيابة عن مزاري المقدس!

سأمنح ابنتي إنانّا

الحقيقة!

الهبوط إلى العالم الأسفل! الصعود من العالم الأسفل!

فن عمل الحب! تقبيل (....). (كلمة جنسية)

إنانّا أجابت:

أتسلمها

وهكذا يرفع آنكي كأسه لإنانّا أربع عشرة مرة.

ثم تقف إنانّا أمام أبيها، وتعبّر عن امتنانها لشرائع الحكمة التي منحها أبوها. وتذكر ثمانين أعطية منحها أبوها آنكي، سنذكر بعضها:

أعطاني الصولجان السامي

أعطاني العصا

أعطاني الخنجر والسيف

أعطاني الرداء الأسود

أعطاني الرداء الملون

أعطاني إسدال الشعر

أعطاني عقص الشعر

أعطاني الراية

أعطاني الكنانة

أعطاني فن عمل الحب

أعطاني تقبيل (....). (كلمة جنسية)

أعطاني فن البغاء

أعطاني فن النجاح

أعطاني الحظيرة التي توفر الطعام

أعطاني تكويم الجمر

أعطاني الخوف

أعطاني الذعر

أعطاني الفزع

أعطاني إضرام النار

أعطاني إطفاء النار

أعطاني تأجيج المشاحنات

أعطاني المشورة

أعطاني تهدئة الخاطر

أعطاني إصدار الأحكام

أعطاني صنع القرار

......

لكـن آنكي يسأل خادمه إيسيمود بعد أن توشك الفتاة أن تذهب إلى أوروك محملـة بكل شعائر الأرض والسماء؛ أيـن هي تلك الأعطيات، ويؤكد إيسيمود أنه اعطاها لابنته.

فيطلـب آنكي من إيسيمـود أن يأخذ معه مخلوقـات الاينكوم لتعود بـزوورق السمـاء إلى اريـدو. لقد تراجع عـن كلمته. وهـذا يثير سخط ابنته إنانّا. وتستنجـد بخادمتها أو وزيرتها المخلصة ننشوبور لتسترجع الشرائـع من المخلوقات التي أخذتهـا. وبعد كر وفر تستعاد الشرائع إلى إنانّا! آخ إنه شعر رائع في سذاجته.

# الفصل العاشر

طلبت من أخي أمين أن يأخذني – في سيارته – إلى حيث كان شارعنا الذي كنا نسميه شارع الشوكية، وهو غير شارع الشواكة الذي لا علاقة لنا به. لقد أزيل شارعنا من الوجود بعد بناء فندق ميليا منصور. لكنني وقفت على السدة أمام دجلة الذي أصبح أكبر من ساقية بقليل. وسرنا باتجاه جسر السنك، الذي أقيم في فترة غيابي. وواصلنا السير باتجاه كرادة مريم، إلى بيت عبد المجيد القصاب الذي كان رئيساً لمجلس النواب العراقي في أيام العهد الملكي. و لم أستطع أن أحدد موقع مدرستي الابتدائية التي أمضيت فيها السنوات الثلاث الأولى..... كما لم نستطع أن نواصل السير إلى ما أصبح الآن يدعى بالمنطقة الخضراء.

كان شارعنا يهمني بلوعة. كان شارعنا هذا جزءاً من الأرض الواسعة التي كان يملكها أجدادي، والتي تمتد من الصالحية إلى أرض المسعودي غرباً، والى أسفل من شارعنا جنوباً، لا أدري كم هي المساحة بالضبط.

لكنني سمعت من عمي أحمد (الشوك) قبل وفاته في منتصف الثمانينات بعام أن أرضنا كانت تشمل كل المنطقة التي تقع فيها بناية المتحف العراقي، ومطار المثنى، وقصر النهاية، وقصر الزهور، وكل الأراضي التي سيطرت عليها العائلة المالكة؛ وكل منشآت السكك ودوائرها. وأكد عمي أنه بقي يراجع دائرة الطابو عشرين عاماً لكي يحصل على سند التملك لأراضينا في الحارثية والقادسية، ثم اكتشف أن الأوراق انتزعت من السجلات. ولا بدّ أن ذلك تم بإيعاز من العائلة المالكة التي صادرت الأرض. وهذا ممكن لأن العائلة المالكة لم تكن تملك شبراً من أرض العراق، فهي قدمت من الحجاز.

وأخبرني عمي في ذلك اللقاء (في لندن) أن أباه الحاج أمين الشوك، أي جدي، هو الذي أدخل زراعة الطماطم إلى العراق، وكذلك زراعة الماندارين؛ وأن عمي الحاج جاسم أدخل زراعة البطاطا.

لكنني سأنحرف بقصتنا، وأنتقل إلى باب الشيخ، ثم أعود إلى الكرادة، وإلى شارعنا بالذات. ذكرت نضال ابنة أحمد الشوك الصغرى ان احد معارفها أخبرها أنه عثر على كتاب مؤلفه مسّاح بريطاني في ١٨٥٣، فيه خارطة لبغداد يرد فيها اسم شارع أو ربما زقاق في باب الشيخ باسم الشوك. وحدثتني ابنة عمي الأخرى – التي ترفض أن أذكر اسمها – أن جدي كان يسكن في بيت في زقاق في باب الشيخ في جانب الرصافة. وبعد أن توفيت زوجته الثالثة (كان يتزوج تباعاً)، طلب يد ابنة المشرف على إدارة أملاكه، وكانت فاتنة جداً، على ما قيل، ولها عينان ملونتان. وقيل إنها اشترطت للاقتران بجدي أن يبني لها قصراً في مكان «فرح». وهكذا بنى جدي لعروسه الفاتنة (جدتي) قصراً في بستانه في كرادة مريم يطل على نهر دجلة

مباشـرة. وفي هذا البيت ولـدت أنا في عام ١٩٢٩ . قالت لي أمي إنني جئـت إلى الدنيـا في خامس يـوم دورة السنة. وهذا يعنـي أن ولادتي كانت في ١٩٢٩/٣/٢٥.

وسأشـير إلى ثلاثة قصور بنيت قريبـة من بيت جدي، بعد أن اشترى أصحابهـا الأرض من جدي. هي قصـر خضوري، وقصر حييـم، وقصر ستيفان الأرمني ابن قنصل روسيا القيصرية في بغداد في العهد العثماني، وهـذا يقدم تفسيراً أيضاً لعثورنا علـى نقود روسية قيصرية وعثمانية في بيت جدي.

ثـم أصبح قصرا خضوري وحييم مقـراً للقيادة البريطانية بعد دخول بريطانيـا بغـداد في الحـرب العالميـة الأولى. وبعد انتقـال الإنكليز من هذين القصرين إلى سفارتهم التي بنوها في الكريمات، أقام عبد المحسن السعدون في قصر خضوري. وأظن أنه انتحر هناك.

سأستميح القراء العذر لأنني أتقافز هنا وهناك فوق الأحداث. فنحن جئنـا من تركيا قبـل أكثر من ثلاثمئة عام. ثم أقمنـا في باب الشيخ قبل أكـثر من مئة عام، لكننا كنا نملك نصف جانب الكرخ منذ سنة ١٧٧٤ كما جاء في الوثيقة. فنحـن أبناء البستان أيضاً. وهذا يتضح من علاقتنا بالمزروعـات (الطمـاطم، والماندارين، والبطاطـا). وكنا نسمي شارعنا «البستـان» حتى بعـد أن بنيت على جانبيه البيـوت. وبعد بيت جدي المطل على نهر دجلة. كان أبي أول من بنى بيتاً في «البستان»، وكذلك عمـي جمال (بنى بيتين متجاورين). ثم بنى أعمامي الآخرون بيوتهم. كان ذلك منذ الثلاثينات.

ونحن كنا نحنّ إلى أرض السكك، بكل منشآتها، ودوائرها، لاسيما

قصر الكرنل وحدائقه الفسيحة، الذي أقام فيه نوري السعيد بعد رحيل الكرنـل الذي كان مديـراً عاماً للسكك. وبقيـت في ذاكرتنا قصة بيع الأرض للألماني على حد قول أعمامي، قبل الحرب العالمية الأولى. وهي قصـة تذكرنا بقصص الكاوبويز في إطـار ما كان الناس يتداولونها. روى لي الموسيقـي سلمان شكر، وكان هو مـن سكنة حي الشواكة أنه سمـع من أبيه قصة بيع أراضي السكك للألماني. فقد تسلم جدي فرماناً من الباب العالي مـن اسطنبول، يقضي باستمـلاك أرض لتكون قاعدة لمحطـات سكك حديد في بغداد، ضمن مشروع خط برلين بغداد، ولا بـدّ من اقتطاع جزء من أراضي جدي لهـذا الغرض، طبعاً بعد تعويض مـالي لجدي يقدره الموظفـون العاملون في السـراي. وباع جدي تلك الأرضـ.بمبلغ لم يكـن زهيـداً. وبالطبع سمـع القاصي والـداني بخبر هـذه الصفقة. وشحذ بعض المتعطلين واللصوصـ أسلحتهم لاستلاب أكياسـ الليرات الذهبية التي سيعود بها أبنـاء الشوك من السراي. لكن جـدي كان لديـه جيش مـن الأبنـاء الأشـداء الذين يجيـدون ركوب الخيـل، ويحسنون القتال. فذهبـوا إلى السراي على صهوات جيادهم، مدججين ببنادقهم، واستلموا المال. وعادوا ليجدوا عدداً من اللصوص متربصين لهم. لكن اللصوص عـادوا خائبين بعد أن أدركوا أن المعركة لـن تكون في صالحهم. (وأنا رويت خبر هـذه الحادثة بتفصيل أكثر في رواية «أحاديث يوم الأحد»).

ويتنـدر أعمامي بقصة أخيهـم حسن الذي اختطـف أخاهم الآخر سلمان مـن الطابور الذاهـب إلى سفر برلك، والعودة بـه على صهوة جـواده إلى بستاننـا ليخفيه في مزرعـة الدخن التي تعلـو سيقانها قامة إنسان.

أعـود إلى شارعنـا الذي لم يعد له وجود الآن. أنـا عشت فيه أربعين عامـاً باستثنـاء سنـوات السفـر إلى بيروت وأمـيركا. وسأشـير فيه إلى «البقجـة» التي تقع في نهايتـه. وقد بناها في الثلاثينـات عمي عباس. والكلمـة من أصل فارسي أو تركي، وتعنـي بستاناً صغيراً. وكانت في واقع الحال مشتملاً مع حديقة زرعت فيها مختلف الأشجار المثمرة. هي لم تُبنَ للسكن، بل للسهر فيها في بعض الليالي عندما كانت تدعى إليها راقصـات ومغنيات. وأنا شاهدت فيها راقصـات عندما كنت صغيراً. وكـن يمثلن عالماً غريباً بالنسبـة لنا، بأجسادهن شبـه العارية، وترعيش أجسادهـن. وكان عمـي عباس يدعـو أصدقـاءه من الـوزراء وكبار الموظفين للسهر في هذه البقجة ومشاهدة الراقصات.

ولم يكـن الرقص «الشرقـي» يستهويني حتى فيمـا بعد عندما كنت أشاهـده في السينمـا (المصريـة). أنـا لم أعجب بـأي مـن الراقصات المصريـات. لكنني غيرت رأيي عندما شاهدت راقصة لبنانية في كاباريه أوبـيرج ببغداد في الستينات. لقـد أدار رأسي رقص هذه الراقصة بفنها وليس بترعيش صدرهـا أو مؤخرتها. وحفزني علـى كتابة صفحات «متألقة» عن الرقص في روايتي (فرس البراري).

وفيمـا بعد أعطى عمـي عباس البقجة لابنه عبـود لتكون معتكفاً له لدراسـة الحقوق. فقـد كان عبود الشوك أول جامعي مـن آل الشوك. وتعين مدير ناحية في ١٩٤١، وتقدم في الوظيفة إلى أن أصبح متصرفاً. وكان صديقـاً لعبد الكريم قاسم، ربما بحكم عملهما في لواء ديالى، يوم كان عبود متصرفاً للواء.

وعندمـا احتـل الإنكليز العـراق مرة ثانيـة بعد حـرب رشيد عالي

الكيلاني في ١٩٤١، أقامـوا معسكرهم في أرضنا، واستأجروا البقجة وبيت عمي محمد كمقر للقيادة العسكرية.

وبعـد نهاية الحرب ترك الجيش البريطـاني منطقتنا. واستأجر البقجة مثقـف يهودي علمنـا فيما بعد أنه من جماعة الرفيـق فهد. فقد اعتقل مـع الرفاق فهد، وزكي بسيم، وحسين الشبيبي. وأعدموا في ١٩٤٩. علمت أن هذا الرفيق هو يهودا صديق.

وأنا لم أكن في العراق بين السنوات ١٩٤٧ - ١٩٥٢. لكنني أذكر أننـي كنت أشاهد يهودا صديـق، لأن مسكنه لم يكن بعيـداً عن بيتنا. وحدثتني ابنة عمي أنه كان يعطيها شوكولاته عندما يشاهدها تلعب في الشارع (شارعنا).

وحدثنـي ضياء مطر أنه كان يبيت مع حسـين الشبيبي في بيت أخيه غـير الشقيق جليـل الشوك عندما ينزلان إلى بغـداد. وعلمت أن جليل بكى عندما سمع بحادث شنق الرفيق حسين.

وقبـل أن أنتهي من الحديث عن شارعنـا أود أن أتوقف عند الحديث عـن أحمد الشوك (عمي)، لأنه مـن الشخصيات العراقية المهمة، لكنه تعرض إلى الإهمال والملاحقة في عهد صدام حسين، ومات في المنفى (في المغـرب). وأنا كنت أحب أن أكتب روايـة عنه، لأن حياته كانت غنية جـداً في أحداثها وارتباطاتها أو تداعياتهـا، لكنني أحجمت لئلا يوجـه إليّ اللوم من أهله. ففـي الرواية أنت لا تتعفف عن كتابة المباذل. ومع ذلك، سأتطرق إلى ذكر وقائع ستبدو مثيرة للفضول.

كان أحمـد الشوك مديد القامة، وسيماً، وذا عينين ملونتين، ورثهما مـن أمه. كان يملك قـوة شخصية فرضها حتى علـى الكبار من أقاربه.

وكان يحيل التراب إلى ذهب. لذلك أصبح من أثرى أثرياء العراق بسرعة نسبية. وهو عرف كيف يعيش حياته، بخصوص مسراته التي كان يمارسها حتى آخر يوم من حياته. ولا يتورع عن الإعلان عنها لنا، وهي مما يندرج في باب الإسرار (لا أستطيع أن أذكر نماذج منها). وأنا أشبهه بالشاعر العربي عمر بن أبي ربيعة، باستثناء موهبة الشعر، لاسيما بوسامته المعروفة، وغرام أمه به قبل غيرها من النساء. وكان هو آخر أبنائها، وكان مدلل أبيه أيضاً، جدنا الحاج أمين الشوك، صاحب الأطيان والثروة الواسعة. كانت أمه تلبسه أفخر اللباس، ويضع أبوه على رأسه الفينة (الطربوش)، ويصطحبه معه إلى مقهى البيروتي، ملتقى وجهاء بغداد. وكانت أمه ترافقه إلى الباب لتمسد على كتفه وتودعه بكلمتي «محصّن، ابني». وعندما أدركت الوفاة جدي، أمسك بيد عمي جمال وهو على فراش الموت، وقال له: «سأترك أخاك الصغير أحمد أمانة بيدك». ولم ينس عمي هذه المناشدة. ففي شبابه باع عمي أحمد حصته من الأملاك إلى أبي، وسافر إلى ايران. وهناك بدد كل ما يملك على فاتنات طهران وفناناتها. وبعد أن ضيع كل ما يملك، أرسل خبراً إلى أخيه جمال بأن يهرع اليه ليعود به إلى بغداد، لأنه لم يعد يملك أجور السفر.

(سأنتقل الآن إلى صعيد آخر من هذه القصة، ثم أعود إليها).

أنا هنا سأتحدث عن (دگة عاكف) [١٢]: عندما حاصر الجيش البريطاني البصرة في الحرب العالمية الأولى، فرّ الجنود العراقيون، واختبأوا في بساتين الحلة. وقد كونوا كتائب من بينهم لحراسة الفارين

١٢. دگة عاكف (بالجيم المصرية) تعني فعلة عاكف.

إلى الحلـة. فأوفـد والي بغداد العثمـاني رسولاً إلى الحـاج شريف، والد عبد الـرزاق زوج خالتي شفيقـة، يطلب منه إلقـاء القبض على الجنود الفاريـن وإرسالهم إلى بغـداد. كان الحاج شريف صاحب الكلمة العليا في الحلة. فأجـاب رسول الوالي أنه ليس لديه عسكر، وقال له: «أرسل إليّ عسكراً، وعند ذاك سأنفذ الأمر».

أرسل الوالي عسكراً إلى الحلة، مع وفد اتصل بالحاج شريف، وطلب منه تزويد الجيش بالطعام.

وبمـا أن الحـاج شريـف «يحكـم» أو «يملك» الحلة، فقـد طلب من سـكان الحلة وفلاحيها أن يوفروا طعاماً للجنـود. وهكذا جمع كل ما لـدى الناس من خبز ولبن، وزبد، وحليـب، وقيمر، وتمر، وقدم طعاماً للجنود.

بعـد ذلك طلب من الحاج شريف أن يمد جسراً فوق نهر الحلة، ليعبر عليه الجنود إلى الضفة الثانية.

كان الانتقال بين ضفتي النهر تلك الأيام يتم بواسطة القفف. فجمع أهـل الحلة جميع القفف المتيسرة، وخلعوا أبـواب الدكاكين والبيوت، واستطاعـوا أن يبنوا منها جسراً. فعبر الجنود، ووصلوا إلى الضفة الثانية من النهر.

كان قائـد هذه الحملة يدعى عاكف. عندمـا انتهى الجيش من عبور النهـر، التفت عاكف، وقال للحاج شريف: «أنـت استطعت أن تطعم فرقـة بكاملهـا، وأن تبني جسـراً في فترة وجيزة. لكنـك اعتذرت عن إلقـاء القبض على الجنود الفارين من المعركة. لهذا حكمنا عليك وعلى أعضاء المجلس البلدي لمدينة الحلة بالإعدام شنقاً حتى الموت».

ومن حسن الحظ أن ابنه، عبد الرزاق شريف، كان في النجف يومذاك، في صحبة جميع نساء آل شريف، عند قريبهم عبد المحسن شلاش، فنجا هو من الإعدام، والنساء من السبي.

بعد ذلك أضرم الجيش العثماني النار في أسواق الحلة وبيوتها. وأخذ من وجد من النساء سبايا إلى استانبول. وقد مات أغلبهن في الطريق. وبقيت النار تشتعل في مخازن الحبوب في سوق الحلة أياماً طويلة. وتوجد الآن تلّة صغيرة في مدينة الحلة أنشئت عليها حديقة تذكّر بالجنائن المعلقة، في مكان التلة التي تخلفت من حريق سوق الحبوب.

أما عبد الرزاق شريف فقد عاد من النجف مع بعض رجاله، وحملوا جثة أبيه الحاج شريف مع جثة زوج أخت عبد الرزاق. وعادوا بالجثمانين إلى النجف لدفنهما في مقبرة العائلة.

هذه الحادثة دفعت عبد الرزاق شريف للتعاون مع الجيش البريطاني. ثم مُنح بعد سنوات هدية من ملك الإمبراطورية البريطانية، هي علبة سكاير ذهبية مرصعة بالماس. ثم انتخب عبد الرزاق شريف نائباً عن الحلة في أول مجلس نيابي. وكان عندما يكون في بغداد لحضور جلسات مجلس النواب، يقيم في منزل عمي جمال زوج خالتي نعيمة، شقيقة الخالة شفيقة زوجة عبد الرزاق شريف. وعندما تزوجت خالتي نعيمة، أهدى لها عبد الرزاق شريف علبة السكاير الذهبية. وعلم بخبرها عمي أحمد فأرادها له، و لم يرفض شقيقه العم جمال له طلباً، وأعطاه العلبة الثمينة، المهداة من قبل ملك بريطانيا. لكن عمي جمال أخبر زوجته أن تطلب أي شيء آخر بدلها. واشترى لها علبة سكاير فضية مشغولة بالمينا.... ثم أن عمي أحمد أهدى العلبة الذهبية إلى الفنانة عفيفة اسكندر!

في يومياتي هذه سأتوقف عند الحديث عن أحمد الشوك، لأنه كان شخصية غامضة جداً، ومات ميتة غامضة، بعد أن عاش حياة مرفهة جداً. لكن ثروته طمع فيها خيرالله طلفاح وسيطر على ما كان في وسعه نهبه منها بوسائل غير شريفة، بما في ذلك اللجوء إلى اعتقال الرجل.

كنت أنا من بين من نالوا ودّه واعتزازه. ففور عودتي من أميركا زارني للتهنئة. وعندما تزوجت أهدى زوجتي سواراً ذهبياً فاخراً مرصعاً باللؤلؤ. وفي لندن أحب أن أكون في صحبته، وأعطاني مبلغاً من المال. وأحب أن أرافقه إلى المغرب ليعرفني بصديقه الكاتب ورئيس الديوان الملكي السيد أحمد بن سوسه، الذي أحب عمي أن أهديه كتاب (الأطروحة الفنطازية). ودعانا لتناول طعام الفطور في منزله، وكان فطوراً لم أتناول مثله في حياتي.

في زيارتي بريطانيا في عام ١٩٨٤، أقمت في شقته القريبة من محطة Gloster Road. أمضيت أياماً جميلة في صحبته وصحبة زوجته أم نبيل. كانت هي صاحبة ذوق في طبخها الذي يجمع بين المطبخ الشرقي والغربي. وفي بعض الأحيان كان العم يحمل الينا بيده الهامبرغر أو fish and chips. وكان يدخل معي في أحاديث شيقة عن أيامهم.

وذات يوم قال لي: «هل تحب أن أعرفك على الشخص الذي كسر رقبة عبد الكريم قاسم؟»

قلت له: «ماذا تقصد؟»

قال: «أنتم لا تعلمون شيئاً عن قضايا السياسة».

قلت له: «أوضح، أبا نبيل».

قال: «هل تذكر شخصاً اسمه علي كمال؟»

«نعم، أذكر هذا الاسم، كان مدير شرطة في الصالحية».

«أحسنت، وقد استأجر بيت عمك محمد يوماً ما».

«لا أذكر ذلك بالضبط، لعل ذلك تم عندما كنت خارج العراق».

«هذا ممكن، وإلا لكنت تذكرت النادرة عن قصته مع النشالين. فبعد أن انتقل إلى بيت عمك محمد، ربما بعد رحيل الإنكليز الذين كانت قيادة معسكرهم في بيت عمك، كانت ابنته الصغيرة واقفة أمام الباب وهي ترتدي الأساور والحجول الذهبية، كعادة الأكراد. ومرّ نشال لم يعلم أن علي كمال انتقل إلى هذا البيت، وسرق كل مجوهرات الصغيرة. وعندما علمت أمها بخبر السرقة، أخذت تندب حظها، واتصلت بزوجها لتحيطه علماً بموضوع السرقة. فماذا قال لها علي كمال: «لا تبالي، يا حبيبتي، فنحن لدينا قائمة بكل النشالة في بغداد». وبعد ساعات أعيدت المجوهرات اليهم!»

ثم قال: «لكنني سأصحبك إلى بيته هنا في لندن لتناول طعام الغداء عندهم، فهو صديق مقرب جداً إليّ، ثم نستمع إلى قصته مع عبد الكريم قاسم».

كان علي كمال طاعناً في السن، وكانت زوجته أصغر منه. وقد أعدت لنا وجبة لذيذة. هؤلاء الأغنياء يعطون للطعام نكهة أخرى. إنه نفس الطعام الذي نعده نحن، سوى أنه يبدو شيئاً آخر. لكنني كنت متلهفاً إلى حديث علي كمال. أنا هنا أمام محاكمة لثورة ١٤ تموز. محاكمة قاسية وساخرة. وأنا على أية حال لست من المتحمسين لها.

فهي كانت ثورة رعاعية وفيهـا الكثير من الهمجية. وهذا لأن الضباط كانوا مفجريها.

قـال علي كمال: «هل تعتقـدون أن هذه الثورة قـام بها العراقيون؟ هـراء، نحن لا نملك زمام أمورنا بأيدينـا. الإنكليز هم الذين كانوا وراء قيـام ثورة ١٤ تموز في العراق، انتقاماً من ولي العهد عبد الإله، ونوري السعيد، لأنهما تقربا إلى الأمريكان».

إلا أنني قلت له: «لكن هذه الثورة أنهت الوجود العسكري البريطاني في الحبانية وفي الشعيبة، إلى جانب إنهاء حلف بغداد».

«ثم ماذا، قال علي كمال. هذا لذر الرماد في العيون».

أنا لم أكن أريد أن أدافع عن أي شيء. وفي واقع الحال كنت متعاطفاً مع كل رجالات العهد الملكـي، الذين أذلتهم الثورة، وعاملت بعضهم بوحشية.

سألته: «هل اعتقلت؟ أستاذ علي؟»

«هه، يسألني هل اعتقلت؟ ومن لم يعتقل؟»

ثـم روى حكايته مع عبد الكـريم قاسم. قال: إنـه أرسل من المعتقل خبراً إلى عبد الكريم قاسم بأنه يود مقابلته لأمر مهم بشأن وثائق سياسية لديه. فأرسل عبد الكـريم قاسم من يصطحبه لمقابلته في مقره في وزارة الدفاع. لكنه طلب أن يسمح له بجلب الوثائق من المكان الذي يخفيها فيه، فسمح له بذلك. ورافقوه إلى مقر عبد الكريم قاسم. وهناك استقبله قاسم وتحدث معه بطريقته الوعظية حول أهداف الثورة. ثم قدم له علي كمـال الوثائق عن الكويت. فتلقفها عبد الكـريم قاسم وأوعز بإطلاق سراحه فوراً.

فقلت له: «هل كسرت رقبة عبد الكريم قاسم بهذه الوثائق؟»

فلوح بيده مستنكراً، وقال: «أنا ما دخلي في الموضوع؟»[١٣]

في تلك الزيارة فاتحني العم بأن أعمل معه، فقلت له إنني لا أصلح لأي عمل عدا الكتابة.

وسألني: «ما هي الكتابة؟»

قلت له: «الكتابة هي الحب».

قال: «ماذا تقصد؟»

قلت له: «هل احببت امرأة حباً كبيراً؟»

«نعم، وأهديتها أحسن هدية».

قلت له: «الكتابة هي مثل المرأة التي أحببتها حباً كبيراً. هذا عندما تكتب شيئاً جميلاً».

«وكيف تكتب شيئاً جميلاً؟»

قلت له: «هذا هو بيت القصيد. الكتابة الجميلة لا تأتيك بيسر. الكتابة الجميلة قد تأتيك بعد أن تمزق أوراقاً وأوراقاً. وأنا لم أحقق حلمي بعد، مع أنني كتبت كتاباً لا مثيل له، هو الذي أعطيت نسخة منه إلى السيد أحمد بن سوسة..... سأقول لك أيها العم، إنني التقيت هنا بامرأة جميلة جداً. وتبادلت معها العناوين. وأنا لا أعلم هل سأنال إعجابها. فإذا نلت إعجابها وأحبتني، فسأشعر أنني قد أستطيع أن أكتب ما يحقق طموحي».

---

١٣. كتبت بعد ذلك بعدة سنوات في روايتي (فرس البراري) عن لعبة الكويت القذرة.

«أين هي هذه المرأة؟ هل نستطيع الوصول إليها؟ أنا مستعد لأن أقدم لك ما تشاء لأجل الوصول إليها».

ضحكت، وقلت له: «المال لا يوصلنا إليها، عمي».

«فماذا؟»

«الكتابة».

«انت تعود إلى موضوع الكتابة. هل هي أغلى من المرأة؟»

«نعم».

«فأنت لديك رأسمال مجزٍ».

«لكنني لم أتمكن منها تماماً بعد. أنا أنجزت كتابين فقط حتى الآن. و لم أجرب كتابة الرواية بعد».

«ما هي الرواية؟»

لا أذكر بماذا أجبته. في حدود علمي أنه لم يقرأ كتاباً في عمره، مع أنه يقرأ ويكتب. وأنا كنت برماً من نفسي، لأنني لم أكد أكتب شيئاً منذ أكثر من عشر سنوات، سوى كتيب صغير عن الموسيقى الإلكترونية. فهل انتهيت؟ كنت أحمل معي كتابي الأطروحة الفنطازية والدادائية، مع هذا الكتيب الصغير. لكن ثم ماذا؟

و لم أكسر هذا الصمت الطويل إلّا في عام ١٩٨٧، عندما بدأت بالكتابة إلى مجلة الكرمل، وبقيت أرفدها بالدراسات إلى أن توقفت عن الصدور. وكنت حينها منصرفاً إلى عالم اللغة. وأصبح لي باع في هذا الموضوع.

# الفصل الحادي عشر

كان الصديق عبد الرزاق الحميري يدعوني لزيارته في ڤيينا، هو وزوجته طبيبة الأسنان البلغارية. وعندما كنا عائدين إلى بيتهم مساءً من مطعم، في زيارتي الأولى، مررنا أمام دار الأوبرا التي كانت على قيد خطوات من بيتهم، شاهدت طابوراً من الناس واقفاً أمام شباك تذاكر مغلق. وكان الوقت متأخراً نسبياً في الليل. فسألت صديقي عن ذلك، فأخبرني بأن هؤلاء المنتظرين في الطابور سيبيتون الليلة بكاملها، ليكونوا سباقين في شراء تذاكر صباح اليوم التالي. فدهشت، وعلى الفور التمعت في ذهني فكرة كتابة رواية حول الموضوع.

لم أكن على عجلة من أمري. فقد أصبحت الآن غارقاً في عالم الكتابة، بعد أن امتنعت عليّ سنوات. كنت أريد أن أكتب في اللغة (والأسطورة)، وفي الموسيقى، وفي عالم الفلك، وفي الحياة، وعن قراءاتي. لكنني كنت أريد أن أبدأ بكتابة عمل قصصي مرهف. عمل قصصي أشبه بأغنية، وليس عن معصوب العينين، الذي ينتظر دوره.

فما زلت أفكر في محاولات صغيرة، لكنها متألقة، مثل (الحب الأول)، و(قصة رجـل مجهول)، و(رسالة مـن امرأة مجهولـة). وإذن، فلأكتب عمـلاً موسيقياً، من وحـي الأوبرا في ڤيينا. ودونت علـى ورقة أسماء كل الشـوارع والمحلات في الطريق من بيت صديقـي عبد الرزاق إلى دار الأوبـرا، وما بعد ذلك. وهذا سيكفينـي في ڤيينا، مع أنني سأجعل المنطلـق هـو ڤيينـا. وبـدأت تتلملم في ذهنـي شخصيات هـذا العمل الروائي، الذي سيكون قصيراً، كتمرين. البطلة ستكون عازفة بيانو من أب فلسطينـي (زميلي أسـد محمد قاسم)، والأم نمساويـة، طبيبة أسنان (فيها شيء من دليانا، زوجة عبد الرزاق). أما عبد الرزاق فلن يكون له حضور في هذا العمل. وهناك فكرة، ستصبح هي محور الرواية: البحث عن حلقـة مفقودة. والواقع أن هناك أكثر مـن حلقة مفقودة، إحداها، هـي محاولة الوصول إلى الملحن الأندلسي لأشعار ملك اشبيلية الفونسو الحكيم. هذه الأشعار تدعى لاس كانتيغاس دي سانتا ماريا (اغاني سانتا ماريا). والحلقة المفقودة الثانية هي البحث عن الجذور الأندلسية لأغاني قصة أوكاسـان ونيكوليت القروسطية. والحلقـة المفقودة الأخرى هي البحث عن مصير أغنية عن (الجواري الثلاث) خرجت من قصر هارون الرشيد، ووصلت اسبانيا والبرتغال.

أنـا لم أرد أن أثقل هذه الرواية بالبحـث الأكاديمي أو غير الأكاديمي. لكن تلـك الحلقات المفقودة مثيرة للفضول. وعلـى أية حال أنا تلقيت ثنـاء لفكرة الرواية القائمة على الحلقـة أو الحلقات المفقودة من السيدة رشيـدة تركـي، زوجـة فـؤاد التكـرلي، في رسالة في عشـر صفحات أرسلتها إليّ بعد أن أرسلتُ المخطوطة في ١٩٩٨ إلى فؤاد التكرلي، بعد أن طمرتها خمس سنـوات. ثم شجعني فؤاد التكرلي على نشرها. وأنا

لم أكـن في حاجة إلى هـذه التزكية. بعد أن ازددت ثقـة الآن بأن رواية (الأوبـرا والكلب) رواية جميلة جداً، ولعلها أفضل عمل روائي كتبته. رسالة رشيدة تركي أكدت أيضاً: «نقاط أساسية سأكتفي بالإشارة إليها لأن البريد لن يرحمنـي، وربما يهمني أن تعرف انني كتبت ٤٠ صفحة عن هذه الرواية.....».

لماذا كتبـت رشيدة ٤٠ صفحة عن هذه الروايـة إن لم تكن أعجبت بها. نعـم، لقد أعجبت بهـا، وقارنتها برواية (موسيقيـة) لكونديرا، وأخرى تبحث عن حلقة مفقودة لإمبرتو ايكو.

وكتـب عنها كامل شيـاع كلمة عذبة في مجلـة (الوسط) جاء فيها: «يسّر لي القصر النسبـي للرواية (١٦٦ صفحة) تكـرار قراءتها لعدة مرات خلال الشهور الماضية. ومـا كنت سأستسيغ ذلك لولا قدرتها علـى فرض نفسها علـيّ كقـاريء انشدّ لعالمهـا واستساغـه حبكة وتفاصيل. إن التمكن من ايجاد لغة مشتركة مع القارئ (الذي هو في هذه الحالة كاتب السطور) هـو برأيي المعيار الأول لجودة الرواية. أما المعيـار الثاني، فيتمثل في قـدرة الرواية على أن تعيش بعد قراءتها حياة ثانيـة في ذهـن قارئها، مبقية في نفسه أثراً يتماهـى معه ويغريه بارتياد مسالـك جديدة لسـبر عالم الإنسان في حقيقتـه الوهمية أو في وهمه الحقيقي. تجربة كهذه حصلت لي مع «الأوبرا والكلب». فقد انطبعت في ذاكرتي ملامح شخصيتهـا الرئيسية على وجه الخصوص، لدرجة حسبـت أنني قابلتها وتعرفت عليها مرة في زمن ما عاد يهمني التمييز بين واقعيته وخياله....».

وتراوحـت الانطباعـات الأخـرى، المكتوبة وغـير المكتوبة، بين الإعجاب والتعالي عليها. الصديق عبد الرزاق الحميري أعرب لي عن

عـدم إعجابه بالنص، واعتبره محاولة فاشلـة. وثمة كاتب سوري لعله مبتـدىء كتب عنها بلغة متطاولة. وكتبـت عنها فاطمة المحسن بقدر غـير قليل من التعالي والأستاذية، هي التي تخلت عن كتابة القصة بعد أن شعرت أنها ليست ابنة بجدتها في هذا الباب.

والحـق أننا يجب أن نعتبر كتابة الروايـة مهمة صعبة، وربما مجازفة. لذلـك لم أبدأ أنـا بكتابة أول عمل قصصي لي إلا بعـد ممارسة الكتابة بخمسين عاماً. لكنني كتبت عشر روايات بعد ذلك التأخير.

مـاذا قالـت فاطمة عني وعـن الرواية؟ إن هذا الطمـوح دغدغ كل الكتـاب الذين يرون في كتابة الرواية تحقيقاً لحلم كبير. بقدر تعلق الأمر بـي إنني كتبت الرواية لأنني كنت أشعر أنني روائي في طبيعتي حتى لو تأخـر تحقيق هـذه الرغبة. وفاطمة لا يحق لها علـى الإطلاق أن تتعالى علـى النص. هـي تعالت عليّ حـين اعتبرتني غير مؤهل لهـذه المهمة، مهمة كتابـة الرواية. وتعالت على النص، وتجاهلـت قيمته وجمالياته. قالــت: «ليس هناك أهمية لكل أحـداث الرواية، فالحدث مجرد ديكور يؤطر الرواية، وهو في أحيان على درجة من الضعف، مثل الشخصيات المكملة في الرواية. الشخصية الوحيدة المقنعة هي البطلة...... الخ».

هذا ليس نقداً، بل رشقـاً بالحجارة. سأشير هنا إلى ناقد «كبير»، هو سانـت بيف في تعامله مع روايـة (الأحمر والأسـود)، مفخرة الأدب الفرنسي.

قـال سانت بيـف: «إن فشل بيل [ستندال] ينجم عـن كونه جاء إلى هذا الضرب من التأليف مـن خلال كتاباته النقدية فقط إلى جانب عدد من الأفكار المسبقة الثابتة حول الموضوع. لم تنعم عليه الطبيعة بالموهبة

الغنية، الخصبة التي تتطلبهــا الكتابة القصصية..... الخ، هل نضحك، أم نبتئس لأن هذا صدر عن كاتب «كبير»؟

آه، مــا أشــد بؤس النقــد الأعمى. فاطمة لم تجد شيئــاً جميلاً في كل الروايــة. الرواية كلها شيء بائس. حتى البطلة، الفنانة، المثقفة، الرقيقة، الملمــة بمعلومــات موسيقيــة غنية، والمهم جــداً إنها كانــت تذوب رقة وحساسية وجمالاً. جردتها من أية ميزة إيجابية، مع أنها سحرت كامل شيــا ع. ومقابــل استهانة فاطمة بكل ما جــاء في الرواية، كتب الروائي محمود سعيد تحت اسم مصطفى علي نعمان: «أعطى المؤلف حيزاً مهماً في الروايــة للمــكان. كل الأمكنــة حيّة، تتحرك، تتفاعــل مع القارئ، ســواء كان المكان اليونــان أو ڤيينا أو المغرب، علــى شاطيء البحر، في المقهى، أمام دار الأوبرا، في السيارة. وأعطى قدراً من الانتباه إلى أبطاله فرسمهــا بضربات رشيقة مــن فرشته، لكنها دقيقة علــى رغم سرعتها. فقد كانت الشخصيــات الثانوية واضحة بينة لا غموض فيها وبخاصة الأبويــن والدكتور سالم وصديقــه ناصر. أما فاطمــة الغرنوقية فكانت متألقة كمعظم فتيات المغرب الشقيق والحبيب».

أنــا لا أنســى أن فاطمــة كاتبــة بارعة جــداً في كتاباتهــا الموضوعية الأخــرى، لاسيمــا في كتابيهــا الجميلين عن تمثلات الحداثــة في الثقافة العراقيــة. لكن هذا لا يشفع لها استهانتهــا بعمل روائي أحرق الكاتب أعصابــه في كتابته عن حب وعناية. وبهذه المناسبــة إنني أناشد الناشر، الصديق فخري كريم، أن يعيد طبع الرواية لتكون متيسرة لمن لم يقرأها.

ذكرت أن مشهد الطابور حفزني على كتابة هذا العمل. لكن الرواية كانــت أكثر من ذلك بكثير. وهــي في الأساس مبنية على عقدة البحث عــن حلقة أو حلقــات مفقودة، كما ذكرت. وأنا كنــت أريد أن أكتب

عــن امرأة. وقد ابتكرت هذه الرواية من المخيلة، لكن المشرّبة بلمسات مــن الواقع. فأصبحت امــرأة من لحم ودم، أعني مــن مشاعر(فرضت حضورها بقوة في ذاكــرة كامل شياع). وأنا تعلقت بها أيضاً وأورثتها اهتماماتي الموسيقية والبحثية، لكنني منحتها الحرية في التصرف كأنثى، ربما بشيء من التحفظ، لأن البحث كان هاجسها الأول.

كنت في تلك الأيام غارقاً حتى الهامة في موسيقى القرون الوسطى، وتتبع البدايات في الأشــكال الموسيقية (الغربية)، كالمتتالية، والسوناتا، الـخ. وتوقفت طويلاً عنـد (النوبـة) في الموسيقى العربيـة. كما كنت أتسلى كثيراً في قراءة أخبار الحلقات المفقودة في الموسيقى. مثل من هو الملحن العربـي المجهول لاشعار سانتا ماريا لألفونسو الحكيم، وما هي قصة (اوكاسان ونيكوليت) ذات الأصل البيزنطي- العربي؟ وأين حلّ الدهر بالأغنيــة التي خرجت من قصر هارون الرشيد، وتلاقفها الناس؟ والأهم من هذا هل ترجع أصول المتتالية في الموسيقى الغربية إلى النوبة؟

وفي تلــك الأيام بالذات بدأت أفكر في كتابـة رواية، بعد أن نشأت لي علاقـة مع أكثر من امــرأة، وهذا يعني أننــي أصبحت لديّ تجربة مع النســاء. وفي وسعي أن أكتب عن امرأة رقيقة، وفنانة، موسيقية، تعزف على البيانو.

فمن هــم أبطال وبطلات روايــة الأوبرا والكلـب؟ ياسمين، البطلة الرئيسية، التــي هي في إطار أبنة زميلي أسد محمد قاسم، لكنني رحلتها إلى امـرأة أخرى أعرفها جيـداً وأستطيع أن أجعل منهــا البطلة المناسبة للعمــل.بما تتمتع به مــن مواصفات ومؤهـلات. وأمها طبيبـة الأسنان النمساويـة، التي استعرتها من زوجة عبد الرزاق الحميري. وأبوها أسد محمد قاسم الشاعـر الفلسطيني صاحب المغامـرات العجيبة مع النساء

(لقد صدرت الرواية قبل وفاته، وقرأها فسرّ بها). أما شخصية العازف سالم صبري فهو منير الله ويردي العازف على آلة الكلارينيت. وأما ناصر ابراهيم فهو الفنان خالد الجادر. وأما فاطمة المغربية، فهي الآنسة (ل. و). التي عرفني إليها خالد الجادر. وأما هيرمان، زوج ياسمين، فشخصية مختلقة بالكامل.

والحق أن بطلي الرواية الأساسيين هما ياسمين، والموسيقى. فالموسيقى هي اللحن الرئيسي للأوبرا والكلب، لكن دخولها في النص لم يكن شيئاً مقحماً بالمرة، بل كان عنصراً حيوياً جداً وأساسياً.

تأخرت في كتابة هذه الرواية، على صغرها، أكثر من أية رواية أخرى، ومن أي عمل أدبي لي، لأنني كنت «مبتدئاً» في كتابة الرواية، وكنت أريد أن تكون المحاولة في المستوى اللائق بي. كنت أريد أن يكون موضوع الرواية مهماً ومشوقاً، بالرغم من أنها كانت «رواية السرد الصعب»، كما قال مصطفى علي نعمان. وكنت أريد أن أجعل البطلة الرئيسية نابضة بالحياة. وشخصية لا تُنسى، ليس بالضرورة في مواصفات متميزة، أو خارقة، كشخصية ماتيلد، بطلة (الأحمر والأسود)، بل شخصية تدخل إلى القلب، حتى في ضعفها. وأنا أعتقد أن ياسمين كانت كذلك. ولم يكن مهماً - في هذا العمل - أن يكون أي رجل، أو بطل، متألقاً مثلها، لأن هذه الرواية هي رواية ياسمين. فهناك ثلاثة أبطال لهم علاقة بالبطلة، ويسهمون في بناء هيكل الرواية، لكنني أشعر بانحياز أكثر إلى شخصية زوجها هيرمان (الذي انفصلت عنه)، ربما لأنه كان شخصية لا تختلف عنها كثيراً في اهتماماته وفي مزاجيته. ثم إنه سدّ في الرواية ثغرة الحب، التي كانت ستحسب على الرواية لو غابت. رواية بطلتها فتاة وبلا حب؟ واعترف أيضاً بأن

الشخصية المثيرة للفضول في هذه الرواية، كانت شخصية الفتاة المغربية فاطمة، التي كانت تتصرف على نحو غير مألوف تماماً، لكن بما يترك انطباعاً جميلاً لدى القارئ. واعترف بأنني لم أختلق هذه الشخصية من عندي، بل هي فتاة حقيقية عرّفني إليها خالد الجادر عندما كان في المغرب. واعترف بأن «فاطمة» كانت أغرب امرأة تعرفت إليها في حياتي. ويؤسفني أن الصلة بها انقطعت بعد زيارتي المغرب (الثالثة). و لم تحصل بينها وبيني علاقة عاطفية. وهي كانت، ربما كما أشرت، من أقارب العائلة المالكة في المغرب، وأخوها كان يشغل مركزاً مهماً في الجهاز الأمني في المغرب، وكل ما جاء عنها في الرواية كان شيئاً حقيقياً.

بقي أن أعترف بأن ياسمين كانت شخصية مختلقة في كل الرواية، عدا حضورها في كريت. في كريت كانت شخصية من لحم ودم، شخصية حقيقية. أما قبل ذلك، وبعد ذلك، فقد كانت بنت المخيلة. لكنها بنت مخيلة من لحم ودم، إذا جاز لي أن أقول. ذلك لأنني أحببت ياسمين وهي شخصية حقيقية ومختلقة، وبقيت في عيني شخصية حقيقية في كافة تجلياتها.

الحلقات المفقودة في رواية (الأوبرا والكلب) شغلت بالي كثيراً، ولأجل ذلك سافرت إلى المغرب مرتين نيابة عن البطلة في مهمة البحث عن هذه الحلقات المفقودة. ولعل أكثرها احتمالاً للعثور عليها هي محاولة الوصول إلى اللحن الموازي للحن (أوكاسان ونيكوليت) البيزنطي العربي، الذي تحدث عنه هنري جورج فارمر، المستشرق البريطاني ذو الاهتمامات الموسيقية الإسلامية. وأنا كنت آمل أن أعثر على أثر له في المغرب. ولعلي أيضاً أستطيع العثور على أثر للأغنية التي خرجت من

قصـر هارون الرشيد. ولن أفقـد الأمل في محاولة معرفة ملحن أو ملحني أشعـار سانتا ماريا لألفونسو الحكيم. آه، إننـي أبحث عن أشباح، لكن هـذا سيدخل في سياق القصة. كنت سعيـداً بعملي لأنه سيشبع فضولي المتلهف، وسيعالـج عقدة الرواية. كانت حياتـي في تلك الأيام مرتبطة ومرتهنـة بتلـك الحلقات المفقـودة. لكن نقطـة الضعـف في كل هذه المحاولة هو أننـي لم أكن موسيقياً. ولعلها كانت وستكون نقطة ضعف قاتلة. فكيف أستطيع مطاردة لحن أو ألحان، إن لم تكن علاقتي بالموسيقى عمليـة؟ هذا يجعلني أندم على عدم استمراري على العزف على البيانو. وأنـا كتبت رواية عن أجمل موضوع موسيقي دون أن أكون قادراً على متابعتـه، ومتأهلاً له. صحيـح أنني أستطعت أن أفيه حقـه روائياً، لكنه لم يقـدم لي قناعـة كافية بالـذي توصلت اليـه. فأنا لم أتوصـل إلى لحن (اوكاسـان ونيكوليـت)، و لم أستطع قراءة لحن المقطوعـة الموسيقية عن الآنسات الثـلاث، اللواتي يذكرننا تماماً بآنسات هـارون الرشيد. لهذا لم أذكـر هذا الموضوع في الرواية، سوى في إشارة وردت عنه في رسالة المستشـرق الشاب ميغيل. وأرى أن أتطـرق هنا إلى هذا الموضوع الذي ابتسرته في الرواية بسبب عدم إثقالها بالاهتمامات الموسيقية.

كنـت قدر قرأت للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ان هناك لحناً من القـرون الوسطى كان العرب الأندلسيـون والمسيحيون الإسبان يتغنون بـه على حدٍّ سـواء، وكان شائعاً في شبه جزيـرة إيبريا كلها. وقد نشرت الكاتبـة كارولينا ميخالس دي فاسكوتثيلوس كراساً قيماً تذكر فيه أدلة علـى انتشاره وأدائه على المسرح وفي المحافل العامة في عهد غيل فيثنته، وقبل ذلك. وفيما بعد كان المسيحيون الإسبان يرددونه كأغنية للأطفال.

ومن كلمات هذه الأغنية:

calvi vi calvi calvi orabi

ويرى خوليان ريبيرا أن calvi هي «قلبي» العربية، وهي كلمة شائعة في الشعـر في كل الأزمـان. اما orabi فلعل المقصود بهـا، كما يقول، (عريـب) الشاعرة والمغنية العربية التي كانـت لها قصيدة مغناة مطلعها «ماذا بقلبي».

علـى رغم أن هذا رأي قد يعـوزه اليقين القاطع، إلا أنني رجعت إلى كتـاب (الأغاني)، ولعلـي بحثت فيه تحت اسم (عريـب)، أو تحت أي مـادة أخرى، فقـرأت أن هارون الرشيد قال، وقد قيـل: إن العباس بن الأحنف قالها على لسانه:

| | |
|---|---|
| ملك الثلاث الآنسات عناني | وحللـن مـن قلبي بـكل مكان |
| ما لي تطاوعني الـبرية كلها | وأطيعهـن وهـن في عصيـاني |
| ما ذاك إلا أن سلطان الهوى | وبـه قويـن، أعـز مـن سلطاني |

غنته عريب: خفيف ثقيل الأول بالوسطى.

وذكر ريبيرا من بين أشعار الكانسيونيرو هذه الأبيات:

«مـن تودين أن ترافقي معـك / يا إلهي / آه، فاطمـة، فاطمة / تلك الجاريـة الأندلسية الحسنـاء / حبها يمزق نياط قلبـي / أنا متيّم في حب ثلاث جوار أندلسيات / عائشة، وفاطمة، ومريم..... الخ».

وهـذا يذكرنا بالآنسات الثلاث في الأبيـات التي تنسب إلى هارون الرشيـد. لكـن فلنتابع كلام خوليان ريبيرا: «ولحنهـا عذب جداً، وهو على النحو الآتي:

مي لا صول مي دو ري مي

ري دو سي لا، لا سي دو ري مي (ري مي)

ويبدأ المقطع الشعري (أعلاه) بأول هذين اللحنين، ويعاد ثلاث مرات ثــم ينتهي باللحن الثاني، أي على النحو الآتي: «أ أ أ ي». وبهذا يتطابق مع الزجل العربي. وهــو إيقاع مشابه لما كانت عريب تستعمله. كما إن مــدى الأصوات في هذا اللحن لا يتجــاوز الأوكتاف. وهو على غرار المؤلفات الكلاسيكية عند الموصلي».

وهذه المقطوعة عبارة عن منمنمة موسيقية، معبرة، وآسرة، وكاملة. ويقول ريبيرا: إن هذه المواصفات تتفق تماماً مع معلوماتنا عن المدرسة الإسلاميــة في إسبانيا، وبالتالي إن هذه الأغنيــة يمكن اعتبارها شهادة علــى عبقرية الفنان الــذي أبدعهــا. و لم يقف أمر هــذا اللحن، لحن «الجواري الثــلاث» عند هذا الحد، بل تعداه إلى الصعيد العالمي، فقد نســج عليه مندلســون لحناً مهرمنــاً في الحركة البطيئة مــن سمفونيته الرابعة، من دون تغيير أساسي على الصيغة الأولى. كما استخدمه مير بير في أبرز مقاطع اوبرا «الأفريقية».

وكتبت رسالة إلى صديق مستعرب شاب من إسبانيا، ألتمس منه أن يفيدني حول هذا الموضوع. فأجابني برسالة جاء فيها:

«وتابعت موضوع الجاريات أو الآنسات الثلاث، على الصعيدين الموسيقــي والفلسفي، لكــن محاولاتي الموسيقيــة لم تسفر، في نطاق معرفتي الموسيقيَة المتواضعة جداً، عما يمكن أن أضيفه إلى معلوماتك، سوى أن الأغنية لم تنقرض، بل عاشت إلى أيامنا هذه. وتجد طياً كراساً

حول صياغة لـوركا الهارمونية لهـذه الأغنية. أما الدلالـة الفلسفية للموضوع فلعلها تذكرنا بالتقسيمـات الثلاثية في التراث الهندي – الأوروبي، الذي تحدث عند دوموزيل بإفاضة».

ثـم يخلص صديقي المستعرب إلى القـول: «..... من كل ما سبق لا أراني متأكـداً مـن وجود صلـة مباشرة بين آنسات هـارون الرشيد وآنسات الأغاني القروسطية الأسبانية».

قـد لا أختلف معه، لكنني رأيـت أن أعود إلى كتاب الأغاني (لأبي الفـرج) حول آنسات هارون الرشيد. نقرأ بعد الخبر الذي ورد ذكره عنهـن: «المهدي بن سابق (قال): حججت مـع الرشيد آخر حجته، فكان الناس يتناشدون له في جواريه:

«ثـلاث قد حللن حمى فـؤادي / ويعطين الرغائـب في ودادي / نظمت قلوبهن بخيط قلبي / فهن قرابتي حتى التنادي / فمن يك حل عن قلب محلاً / فهن من النواظر والسواد».

وتُرجمـت لي قصائـد فدريكـو غارسيا لوركا. وكانـت من بينها قصيـدة بعنوان (بنـات مدينة خايـن الأندلسيات). وتحـت العنوان «أغنية فولكلورية من القرن الخامس عشر»، جاء فيها:

«ثلاث أندلسيات وقعـت في غرامهن/ من خاين/ عائشة وفاطمة ومريم/ ثلاث أندلسيات مثـيرات/ ذهبن لالتقاط الزيتون/ في خاين/ عائشة وفاطمة ومريم..... الخ».

أنـا لا أريـد أن أتوقف عنـد أهمية العدد ٣ في الـتراث الهندي –

الأوروبي، أو ربما حتى في التراث الاسلامي. لكنني ألاحظ أن الآنسات الثلاث وردن أيضاً في أغاني ألفونسو الحكيم (كانتيغاس). وهذا يدعوني إلى الاعتقاد بأن أغنية هارون الرشيد عن الآنسات الثلاث عاشت في أغاني ألفونسو الحكيم، وفي قصيدة لوركا. فينبغي أن لا ننسى أن ألفونسو الحكيم ألّف مئة أغنية أول الأمر، على غرار المئة أغنية التي اختيرت لهارون الرشيد. لكن ياسمين كانت تفكر في أشياء أخرى.

أذكر أن الأغنية التي خرجت من قصر هارون الرشيد استقر بها المقام في قرية برتغالية. و لم يهدأ لي بال إلّا بعد أن اهتديت إلى مصدر هذا الخبر، وهو كتابي (الموسيقى بين الشرق والغرب)، الصادر عن دار الجمل ١٩٩٧. وسأنقل هنا ما جاء فيه لأن فيه تفاصيل أكثر وأغنى:

ذكر أسحاق الموصلي أن هارون الرشيد أرسل في طلبه ذات ليلة، وقد مضى شطر الليل، أي نصفه، فحضر. وطلب منه الرشيد أن يغنيه بحق جارية كانت ماثلة بين يديه، فغناه هذين البيتين:

جئن من الروم وقاليقلا    يرفلن في المرط ولين الملا

مقرطقات بصنوف الحلي    حبذا البيض وتلك الحلا

فاستحسنه الرشيد، وطرب له. ثم استؤذن لوزيره الفضل بن الربيع، فكان له، فلما دخل، قال له الرشيد: «ما وراءك في هذا الوقت؟». قال: «خير يا أمير المؤمنين، ولكن جرى لي الساعة سبب لم يجز لي كتمانه».

حين سأله الرشيد عن جلية الأمر، روى له الفضل قصة ظريفة وقعت له مع جوارٍ ثلاث من جواريه، هن: سحر، وضيا، وخُنْث. فاستظرف

الرشيد قصتهن (التي تمنعنا أسباب من ذكرها)، وأمر بحملهن إلى قصره، فجيء بهنّ، وكنّ آية في الجمال، وعلى حظ كبير من الذكاء، ونلن عنده حظـوة كبيرة، إلى حد أنه قـال فيهن، وقيل إن العباس بن الأحنف قالها عن لسانه:

ملك الثلاث الآنسات عناني.... الخ

وغنتهـا عريـب المأمونية بإيقـاع خفيف ثقيـل الأول بالوسطى. ثم انتقلـت هـذا الأغنية من فـم إلى فم في جميـع أنحاء بغـداد. وشاعت أغنيـة هارون الرشيد في العالم العربي كله. فقد أثر عن أحدهم أنه قال: حججت مع الرشيد آخر حجة، فكان الناس يتناشدون له في جواريه:

ثلاث قد حللن حمى فؤادي... الخ.

وذكـرت القصيـدة الأصليـة (ملك الثـلاث الآنسـات) نفسها مع تحريـف طفيف في ألف ليلـة وليلة، منسوبة هذه المـرة إلى خليفة آخر، هو المتوكل.

ثـم انتقلت إلى إسبانيـا. وقلدها شعراء أندلسيـون. كما نظم الخليفة الأمـوي الأندلسـي، المستعين بالله، قصيدة علـى غرارها في محاولة منه لمضاهـاة هارون الرشيد. وهي قصيدة طويلـة يذهب الخليفة الأندلسي فيها إلى أن من شأن الحب أن يقهر حتى الملوك. واستشهد بها الفيلسوف الصـوفي محيي الدين بن عربي في أكثر من موضع، في كتابه (الفتوحات المكية)، في سياق حديثه عن الدوافع النفسية في الحب الصوفي. وكتب ابـن قزمان قصيدة زجلية يذكر فيها الجاريـات الثلاث بالأسماء الآتية: عائشة، وزهرة، ومريم.

والظاهـر أن هذه الصيغ انتقلـت إلى أوروبا بنفَس صوفي أو رمزي. فقد كتب دانتي أغنية من وحي أبيات هارون الرشيد، جاء فيها:

ثلاث نساء راودن قلبي

كباقة من الزهور يتربع في قلبها الحب

الذي هو سيد حياتي

بالغات الجمال، حقيقيات

أمرهن مطاع

إنني أقول ما في القلب

ولا يكاد الكلام يسعفني

وهنـاك مجموعة مـن الأغـاني الأندلسيـة تدعـى «كانسيونيرو دي بلاسيـو»، يرجع تأريخهـا إلى القرنين الخامس عشـر والسادس عشر، ألّـف الكثير مـن نصوصها الشعرية علـى طريقة الزجـل العربية، على غـرار أزجال ابن قزمـان الأندلسي. ولاحظ المستشـرق خوليان ريبيرا (١٨٥٨ - ١٩٣٤) أن ما يعادل ٨٥ في المئة من اغاني المجموعة كتب بهـذه الطريقة الزجلية، من بينها الأغنيتـان رقم ١٧، ورقم ١٨، وهما تذكراننا بأغنية هارون الرشيد في موضوعها. تقول هاتان الأغنيتان:

أنا متيّم في حب ثلاث عربيات

من حيّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

ثلاث عربيات فاتنات

كن في طريقهن لجني الزيتون

فوجدنها مجتناة

في حيّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

وجدنها مجتناة

فعدن مغشيات عليهن

ذابلات الألوان

في حيّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

ثلاث عربيات حسناوات

كن في طريقهن لجني التفاح

فوجدنه مجتنى

في حيّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

قلت لهن: من أنتن أيتها السيدات

يا من سلبتن حياتي؟

نحن مسيحيات بعد أن كنا عربيات

في حيّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

أمــا آخر صيغة لهذه الأغنية القديمة، في سياق جولتها في شبه جزيرة أيبريا، فقد عثرت عليها كارولينا ميكايلس في حالة رثّة إلى حدٍّ ما، كما يقــول خوليان ريــيرا، وهي اليوم، ربما تلفــظ أنفاسها في بلدة Parada

بالبرتغال. لكن الجواري الثلاث كلهن مسيحيات وكلهن تحت اسم ماريا. وهذه هي آخر صيغة لأغنية ولدت في بغداد قبل أكثر من ألف عام، وانتشرت في العالم الإسلامي، ثم انتقلت إلى اسبانيا..... ولا بد أنها على نفس إيقاع أغنية عريب المأمونية. على أن اللحن العربي كان يؤدى من قبل صوت واحد، بينما تغنى القصيدة الإسبانية على لسان جوقة.

ولا أريد أن أكرر بقية المعلومات عن مصير أغنية هارون الرشيد، التي تابع لحنها لوركا، من بعد مندلسون، وميير بير. وأنا كتبت أيضاً إلى مستعربة إسبانية أخرى من قرطبة، أستفسر منها أيضاً عن مصير هذه الأغنية. ومضى أكثر من عام و لم يصلني منها جواب. كان ذلك في تسعينات القرن الماضي. ثم علمت أن هذه المستعربة كانت في رحلة طويلة خارج إسبانيا.

وعلى أية حال كانت تلك محاولة مني خارج نطاق الرواية (الأوبرا والكلب). فياسمين كان يهمها أن تتوصل إلى هوية ملحن أو ملحني اغاني ألفونسو الحكيم. كما كان يهمها أن تعرف إن كانت المتتالية في شكلها المؤلف من أربع حركات كانت متأثرة بالنوبة العربية. وقد ذكرت ذلك بشيء من التفصيل في الرواية.

## الفصل الثاني عشر

## الوصول إلى بابل الجديدة

أنـــا الآن في بودابســـت، في منتصف التسعينـــات. وكانت قبل ذلك قـــد حدثت تغيرات كبيرة في الغربة وفي أرض الوطن. في المجر، حيث أقيـــم، تم التخلي عـــن النظام الاشتراكي، وتبني النظـــام الرأسمالي. وفي العـــراق فرض الحصار الاقتصادي منذ ١٩٩١. وأنا فقدت المعونة التي كنـــت استلمها من منظمة التحرير الفلسطينية. وبقيت أحمل دفتر إقامة لمـــدة عشر سنوات أو أكـــثر، لا أذكر. لكن ما جدواها بدون عمل. فهل سأخضـــع إلى حالة الأوكسودوس العراقيـــة إلى بلد يمنح لجوءاً سياسياً أو إنسانيـــاً؟ انها حالة مزريـــة لم تستثنِ أحداً، أصبح فيها جميع العراقيين، على اختـــلاف طبقاتهم ومؤهلاتهم، سواسية في تشردهم. صرنا نعيش عصر مـــا قبل المسيح، هجـــرة جماعية بالمفرّق، أي فـــرادى، إلى جميع بلـــدان العالم، بما في ذلك أبعـــد اصقاع الأرض. السؤال لماذا؟ لم يعد له صدى. وأنا ماذا أفعل بعد أن هجرت منزلي وعملي وتركت عائلتي في

العراق منذ خمسة عشر عاماً؟ وماذا ستجديني مؤهلاتي الكتابية؟ لكنني كنت ما ازال اتردد إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية، الجديد، الأكثر تواضعاً من السابق، بحكم تقلص أو انعدام المساعدة المالية التي كانت تتلقاها المنظمة من الحكومة المجرية، على ما أحسب. .... وذات يوم تلقيت نداء تلفونياً – في مقر المنظمة – من أدونيس. أنا لم أكن منسياً بالمرة، اذن. كان في زيارة لشقيقته وزوجها سفير سوريا بالمجر. اخبرني بأنني مدعو على غداء في مقر السفارة السورية في بودابست.

ذهبت إلى مقر السفارة السورية في سيارة أجرة، وتلقاني أول الأمر كلبان رهيبان من صنف وولف أنزلا الرعب في أوصالي. لكن الشرطيين اللذين كانا في حراسة السفارة كانا في عوني. ولا أذكر من جاء إلى استقبالي، السفير أم أدونيس. المهم أنني اصطحبت إلى غرفة الاستقبال بكل ترحاب. كنت وحدي مدعواً، وكان في استقبالي أدونيس، وشقيقته الحسناء التي لا اذكر اسمها، وزوجها السفير، الذي كان جم اللطف والتهذيب. شعرت على الفور أنني في صحبة أحبّاء، مع أنني ألتقي بأدونيس للمرة الثانية فقط. فأدونيس يشعرك بالحميمية من أول لقاء. وفي لقائي الأول معه زرته في ١٩٧٠ في الجبل في لبنان في صحبة بلند الحيدري عندما زرت بيروت من أجل طبع كتابيّ (الأطروحة الفنطازية)، و (الدادائية). وكان رجلاً وديعاً جداً ومحباً. وشعرت بالألفة رأساً أيضاً مع زوجته السيدة خالدة سعيد. كان وسيماً وأميل إلى القصر. وأنت تحس في صحبته بتواضعه الجم. تحدثت عن هذا اللقاء الأول في مناسبة سابقة. لم نتحدث عن الشعر، لأن أدونيس يشغلك في مسائل أخرى. وفي لقائنا في بودابست تحدثنا عن أشياء كثيرة، أذكر من بينها إعجابه الجم بشخصية سكينة بنت الحسين. ثم

قـال لي: «لماذا، يا أخي، أنت طامر نفسك في بودابست؟ أنت مكانك في بريطانيا....».

كنت أعلـم أن بودابست لم تعد تصلـح لي. وعندما ذكّرني أدونيس بذلك، شعرت بضرورة الهجرة إلى بريطانيا. لكن الوصول إلى بريطانيا في التسعينات، وحتى اليوم، لم يكن ميسوراً جداً لمن يحمل جواز سفر عراقيـاً. وأنا لست ممن يفضلون الوصول إلى أية دولة عن طريق التزوير أو التهريـب. وأنا كنت قد زرت بريطانيـا في السابق عدة مرات، لكن هـذا لا يشفع الآن. فما العمـل، مع أن من هب ودب استطاع الوصول إلى بريطانيا بوسائل مختلفة، ومُنح اللجوء السياسي أو الإنساني.

وبمسعى من اصدقاء وُجهت إليّ دعوة من ديوان الكوفة في لندن لإلقاء كلمة عن العراق القديم. لكن هذه الدعوة لا تضمن الحصول على تأشيرة دخـول بريطانية ضماناً أكيداً. فما العمل؟ علمت أنني أستطيع الحصول على تأشيرة دخول بريطانية إذا كان جوازي يحتوي على تأشيرة دخول حديثة مـن أي بلد أوروبي غربـي آخر. فاتصلـت بأصدقاء مقيمين في بلجيـكا، والتمست منهـم توجيه دعوة إليّ لزيـارة بلجيكا، ففعلوا. ثم قدمـت الطلـب إلى السفارة البلجيكية، فحصلت علـى التأشيرة بعد أن تأخـر الجواب من الوطـن الأم. بعد ذلك قدمت علـى تأشيرة الدخول البريطانيـة. فطلب نائب القنصـل (في بودابست) مواجهته. وكان شاباً لطيفاً، طرح عليّ عـدداً من الأسئلة، وتجاذب الحديث معي بعد أن علم أنني كاتب. وفي الأخـير سألني إن كنت أنوي البقاء في بريطانيا. وكان هذا سؤالاً محرجاً بالنسبة لي، لأنني لا أعرف الكذب. لكنني لم أر محيداً عن الكذب. ومُنحـت تأشيرة الدخول البريطانية. ووصلت لندن في ٩ أيـار، ١٩٩٥.... وإذن، أنـا منذ هذا اليوم سأحـل ضيفاً على عاصمة

الإمبراطوريـة البريطانية، التي استعمرت بلدي يومـاً ما، ونهبت ثروته النفطية، وسأصبح مواطنـاً بريطانياً بفضل النظام السياسي المتقدم الذي يخولنـي هذا الحق بعـد المكوث خمس سنـوات في أراضيه. و لم اتأخر في الحصول على اللجوء السياسـي لأن تأريخ حياتي حافل بالمضايقات السياسية، الموجعة في بعض أشكالها.

قال لي المحامـي: «لا تبخل في ذكر المزيد من الدم إذا كنت تعرضت إلى التعذيـب؛ فالموظفون المعنيـون في وزارة الداخلية البريطانية يبهرهم الحديـث عن الدم». ومُنحت حق اللجـوء السياسي مع ضمان معيشتي وسكني. إنها المدينة الفاضلة، اذن!

في ١٩٩٥/٥/٢٥ ألقيـت كلمتي (ملامح من تأريخ العراق القديم)، بعد أن قدمني بكلمة مسهبة الصديق غانم حمدون. كانت القاعة مكتظة حتـى وقوفاً. كان إهـداء الكلمة إلى (أنخدوانا) ابنـة سارغون الأكدي وأقـدم شخصية أدبية عرفت في التأريخ، من خـلال التراتيل التي ألفتها ابتهالاً بالإلهة (إنانّا). ثم استهللت كلمتي بالأبيات الشعرية الآتية:

لـمـا وردنـا القـادسيـــــة حيث مجتمـع الرفاق

وشممت من أرض الحجاز نسيم أنفاس العراق

أيقنـــت لـي ولمـن أحب بجمـع شـــمل واتفاق

فتملمـل بعض الحاضريـن لأن كلمـة «القادسيـة» أصبحت مقترنة بأسم صدام حسين لتكرارها في دعاية الحرب العراقية الإيرانية. لكنهم سرعـان ما نسوا كلمة «القادسية» في سياق كلمتي الطويلة التي أخذت تثـير فضولهم. فقد تحدثت عـن العراق من العصر الحجـري القديم إلى سقوط بابـل. وطعمت الكلمـة باستشهادات لغوية، ضمـن السياق.

واستطردت في ذكر أخبار مشوقة من تأريخ العراق. تحدثت، مثلاً، عن هواية سنحاريب (٧٠٥- ٦٨١ ق. م).، الذي يحدثنا بنفسه عن مأثرة صب النحاس في الأعمال النحتية الضخمة، في قوله: «أنا سنحاريب، بالذكاء الحاد الذي وهبني إياه الإله إيا، وبتجاربي الخاصة، تمكنت من صب الأسود البرونزية الضخمة ذوات الأرجل المفتوحة عند الركب، والتي لم يسبق لملك قبلي أن قام بها.... وبنيت قالباً ضخماً من الطين لاثني عشر أسداً ضخماً مع اثني عشر ثوراً ضخماً فوق دعامات ضخمة وجذوع النخيل.... وصببت البرونز فيها كما تصب قطع نصف الشاقل». وللإيضاح، كانت عملية الصب مستخدمة منذ بداية الألف الثالث ق. م.

**اهتمامات آشور بانيبال:** يقول آشور بانيبال: «فن المعلم آدابا تعلمت: الكنز الخفي لكل فنون المعرفة الكتابية؛ علامات السماء والأرض.... ودرست النجوم على يد الأساتيذ المتضلعين في فن التعاويذ الزيتية؛ وقمت بحل مسائل القسمة والضرب المعقدة؛ وقرأت الألواح الفنية السومرية والألواح الأكدية الغامضة، التي يصعب إتقانها؛ واستمتعت بقراءة الأحجار من عهد ما قبل الطوفان».

وفي رسالة إلى المدعو شادونا يقول: «أمر من الملك إلى شادونا: صحتي جيدة، ليكن قلبك مفعماً بالأمل، عندما تصلك رسالتي، خذ معك شوما، ابن شوموكينا، وبليطير، أخاه، وأبلو ابن أركاتيلاني، وأمثال هؤلاء الناس من بورسيبا كما تعلم، وكل الألواح التي في منازلهم، وكل الألواح المحفوظة في معبد أزيدا ابحث عنها، واجمع الألواح لأجل التعاويذ الملكية، والواح المترنمات في أيام نيسان، وتعويذة الكهنة المغنين في شهر تشريتو، والألواح التي تشتمل على سلسلة التعازيم في بيت

سلـع، وتعويذة الكهنة المغنـين لحساب الأيام، والتعاويـذ الأربع لرأس السريـر الملكي، وكل ما هـو ضروري للقصر، وكل مـا هو موجود، والألـواح النادرة التي تعثر عليها في الطريـق، التي لا يوجد لها مثيل في آشـور، ابحث عنها واجلبها إليّ. وقد كتبت إلى شاتونو وموظفي الشاكو أيضاً. ضع هذه الألواح في صندوقك المتين. لن يمتنع أحد عن تقديم الألـواح إليك. وإذا عثرت على لوح تميمة لم أذكرها لك، واذا رأيت أنها تصلح لقصري، ابحث عنها واجلبها إليّ».

**امتحان الملك:**

في عيـد رأس السنة الجديـدة يُحتفل في الأحد عشـر يوماً الأولى مـن نيسان البابلـي (في حسابنا يقع بـين آذار ونيسان) حيث يقع فيه الاعتـدال الربيعي. وفي اليوم الرابع من أيام هـذا العيد تـمثل ملحمة الخليقـة على غرار التمثيليات الأوروبيـة الدينية في القرون الوسطى. وفي اليـوم الخامس يظهـر الملك، ولا يُسمح له بالدخـول إلا بعد أن ينـزع شارة السلطان. وينبغي أن يتعرضـ إلى الإذلال، متيحاً لكاهن الششكالـو أن يضربـه بكـف قوي على خـده. وبعد ذلـك يسحبه الكاهن من أذنه، ويجبره على الركوع إلى الأرض. ويتعين على الملك أن ينطـق بالكلمات الآتية أمام الإله مـردوك: «لم أرتكب خطيئة، يا إلـه البلـدان، و لم أشـكك في ألوهيتك. لم أدمر بابـل. لم أتسبب في سقوطهـا.... معبـد إيساجيـلا لم أهمـل طقوسـه. لم أمطـر خدود المواطنـين بالصفعات.... لم أذلّهم، كنـت شديد الغيرة على بابل؛ لم أدمر أسوارها...».

بعد ذلك يطمّن الكاهن الملك بقوله:

«لا تخف.... الإله بعل سيصغي إلى صلاتك. سيباركك إلى الأبد. سيقضي على عدوك، وعلى خصمك».

ثم تعاد شارة السلطان إلى الملك. ويُصفع مرة أخرى. يصفعه الكاهن صفعة قوية على خده. فإذا انثالت الدموع من عيني الملك فمعنى ذلك أن بعلاً استجاب. وأما إذا لم تنهمر الدموع من عيني الملك، فإن بعلاً غاضب، وسيظهر العدو ليقضي على ملكه.

كان جمهور المستمعين صنفين، مثقفين ومتعلمين جاؤوا ليروني ويسمعوني؛ وآخرين كانوا ينشدون فيَّ مخلّصاً لهم من محنتهم العراقية. وكان أقصى ما أستطيع أن أقدمه لهؤلاء هو إشارتي إلى تواضع ملك بابل وتلقيه الصفعات من أجل أن يكون في خدمة بابل.

وكانت كلمتي هذه مدخلاً إلى حياتي الجديدة في أرض بابل الجديدة.

أكتب هذا الفصل بعد عشرين عاماً بالضبط من وصولي إلى بابل الجديدة. كان غانم حمدون في انتظاري بالمطار. وأنا كنت أسحب حقائبي بصعوبة. هرع إليّ ليساعدني، وهو مندهش لعدم تأخري عند مدققي الجواز. كان استقبالي قد تم بأسرع ما يمكن من قبل الموظفة.

وبقيت ضيفاً عند غانم أربعة أشهر إلى أن عثرت على شقة ملائمة جداً لي، سوى أنها تقع في الطابق الأرضي وليس الأول، كما كنت أفضل. لكنني صرت أفضلها الآن بعد أن تقدم بي العمر و لم أكن أعلم يومذاك أنني سأقضي بقية عمري في هذه الشقة.

كان أول شيء قمت به هو اقتناء جهاز موسيقى يوفي بكل الأغراض. فأنا الآن أريد أن أنتمي إلى الموسيقى. أريد أن أقرأ كل شيء عن الموسيقى، وأسمع كل الموسيقى (إن أمكن!)، وأكتب عن الموسيقى وتجربتي معها، وألتَحِف بالموسيقى. و لم أفكر حتى في الرواية، التي بقيت طيلة عمري أحاول الانتماء إليها.

ورأيت أن أوطد علاقتي براديو BBC3. وبحكم كوني أصبحت متقاعداً عن العمل منذ عام، فقد تكفلت الدولة البريطانية بأمر إعالتي وتوفير السكن لي. وهذا أتاح لي أن أكون متفرغاً، للموسيقى في الوقت الحالي. وهو تفرغ للكتابة أيضاً، وستكون في غالبها عن الموسيقى. وكانت قد تجمعت لدي مادة باتت تصلح لطبعها في كتاب، نشر بعنوان (الموسيقى بين الشرق والغرب)، صدر عن دار الجمل في ١٩٩٧. وكان هذا الكتاب مجموعة كتابات جميلة عن الموسيقى. لكنه لم يتحدث عن علاقتي الحميمية بالموسيقى، و لم يجب عن أسئلة ظلت تدور في رأسي عن الموسيقى، مثل: فلسفة الموسيقى؛ وفلسفة كل آلة من آلات الموسيقى؛ والموسيقا والميتافيزيقيا؛ وفلسفة التوافق والتنافر في الموسيقى؛ ومفهوم الموسيقى الرفيعة. وكنت أريد أن أكون على بينة من مستقبل الموسيقى، فأنا كنت مشغول البال منذ سنوات بالموسيقى الإلكترونية.

أنا أريد أن أتحدث عن مليون شيء، لكنني لم أعد أمتلك نفساً طويلاً. أصبح نفسي كنفس مصاب بالربو، أو بالسل. لكنني أريد أن أتحدث عن محنة الموسيقى الحديثة، أو مأساتها؛ وعن فلسفة التنافر في الموسيقى؛ وعن هاجس الأداء في موسيقى البيانو؛ وعن الميتافيزيقيا في الموسيقى.... وأنتقل بعد ذلك إلى حكايتي مع الفيزياء، قبل أن أنتقل إلى الرواية.

لكن ما هو مستقبل الموسيقى؟ وكان هذا السؤال يسري على الفنون

التشكيلية أيضاً؛ وربما الأدب. فالقرن العشرون كان قرن التحرر والانفلات، وربما الجنون. هناك حمّى الشخوص إلى أمام. لا مراوحة، ولا اجترار للماضي. دائماً إلى الأمام. وفي الموسيقى أصبح فاغنر نقطة الوثوب، أو خط اللارجعة. إن اوبرا (تريستان وايزولدة) التي ظهرت في ١٨٥٦ كانت ختام الموسيقى، أو الموسيقى المقامية. (وسأعود إلى فاغنر بمزيد من التفصيل). الطليعيون يريدون أن يتجاوزوها. وتجاوزها يعني الابتعاد عن الموسيقى، والولوج في عالم اللاموسيقى. يعني التخلي عن الأذن، وتبني العين في الموسيقى، أو القراءة بدل السماع. ووفق فلسفة ثيودور أدورنو، الذي يريد أن يعطي للموسيقى بُعداً اجتماعياً، يعني «استعذاب» الموسيقى القبيحة، والتخلي عن الموسيقى الجميلة، لأن القرن العشرين هو قرن القبح. هو يرى أن الموسيقى الجادة ينبغي أن تكون معقدة وكريهة أو قبيحة. لهذا مجّد موسيقى أرنولد شونبرغ الاثني عشرية، أو اللامقامية، وحمل على موسيقى سترافنسكي، وهندميث، وسبليوز. (مع ان المجنون وحده من يحمل على موسيقى سبليوز).

أنا أعتقد أن جوهر المسألة هي فلسفة التنافر الصوتي. ويمكن تلخيصها بالحكاية الآتية: يروى أن تلميذاً كان يتلقى دروساً في الموسيقى على يد أستاذ صارم في التعليم، فضجر من طريقة أستاذه الصارمة، وانتقم منه على النحو الآتي: تسلل إلى البيانو، بعد أن أوى أستاذه إلى النوم، وعزف على مفاتيحه مركباً هارمونياً ناقصاً (من النوع الذي يترك في الأذن انطباعاً بالتنافر، أو يجعل الأذن في حال ترقب لمركب صوتي يكمله). ثم اختبأ وراء الستارة. فما كان من أستاذه إلا أن ينهض بعد قليل متغلباً على نعاسه ومتحدياً شيخوخته، ويهبط درجات السلم،

ويأخـذ طريقه إلى غرفـة الموسيقى ليعزف المركـب الصوتي الثاني، ثم يعود إلى فراشه بعد أن دمدم بشيء مع نفسه.

هـذه الحكاية - صحيحة كانـت أم موضوعة - تعبر عن موقفين من الموسيقى: الارتياح أم عدم الارتياح للتنافر الصوتي.

وأنـا سأخاطـب القارئ الـذي لا يملك ثقافة موسيقيـة، واوضح له مفهوم التنافر الصوتي بأبسط مفاهيمه:

في السلم الموسيقي توجد سبع نوطات موسيقية، هي المفاتيح البيض في البيانو. وهناك خمسة مفاتيح سود أخرى، تشكل مع المفاتيح البيض سلماً كروماتيـاً (ملوناً). ولأجـل التبسيط سنكتفـي بالنوطات السبع الأساسية، ونذكرها مع ذبذباتها في الثانية:

| دو | ري | مي | فا | صول | لا | سي | دو (الاعلى) |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٢٥٦ | ٢٨٨ | ٣٢٠ | ٣٤١ | ٣٨٤ | ٤٢٧ | ٤٨٠ | ٥١٢ |

فـإذا عزفـت النوطـة الأولى (دو مثـلاً) مـع الثامنـة دو (الأعلى)، فسنحصل على توافق صوتي، حيث تكون النسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ٢ إلى ١. ثـم يلي ذلك من حيث التوافق، تآلف الأولى مع الخامسة (دو مع صـول)، حيث تكون النسبة بين ذبذبتيهمـا كنسبة ٣ إلى ٢، وهي أبسـط نسبة بعد السابقة. ويلـي ذلك تآلف الأولى مـع الرابعة، حيث تكون النسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ٤ إلى ٣.

أما بقية التآلفات فستكون متنافرة، وهي الأولى مع الثالثة؛ ونسبة ذبذبتيهما كنسبة ٥ إلى ٤؛ والأولى مع الثانية، والنسبة بين ذبذبتيهما ٩ إلى ٨؛ ثم الأولى مع السابعة، والنسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ١٥ إلى ٨. وهذه نسب معقدة رياضياً، وبالتالي غير مريحة للأذن. ويحصل التنافر الصوتي هنا من أداء صوتين غير متجانسين. ولدى سماع مثل هذه الأصوات تبقى الأذن في حال ترقب وانتظار عسى أن تأتي أصوات أخرى لتكملها.

وسأنتقل الآن بمفهوم التنافر إلى جرعة أثقل في تقنينها. سأنتقل إلى فاغنر الذي وضع التنافر على الحافة من حيث تقبل الأذن له. أما بعده فسننتقل من الموسيقى المقامية المستعذبة إلى الموسيقى اللامقامية غير المستعذبة. وأنا سأتطرق إلى ذكر فيلسوف وموسيقي تركا أثراً مهماً على فاغنر في التعامل مع التنافر، هما شوبنهاور، وفرانز لست.

كنت أريد أن أصفي حسابي مع الموسيقى. ولاحظت أن موضوع التنافر في الموسيقى له أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل الموسيقى. التنافر الصوتي هو نقطة الافتراق، أو مفترق الطرق في الموسيقى. تابعته باهتمام في موسيقى فاغنر، لأنها ستكون مفترق الطرق في الموسيقى. وفي ضوء قراءاتي لاحظت أن فاغنر كان متأثراً هنا بشخصين لعبا دوراً مهماً في التأثير على أفكاره الموسيقية، هما شوبنهاور الفيلسوف، وفرانز لست الموسيقي. فشوبنهاور يؤكد أنه حتى أبسط الألحان، التي هي تعاقب لنوطات مفردة، تدعونا لأن نريدها ترجع إلى القرار، مهما ابتعدت عنه. وإنها تثير فينا ضرباً من عدم الارتياح إذا انتهت إلى نوطة أخرى أعني القرار. ليس ذلك فحسب، بل ينبغي أن ينتهي اللحن ليس فقط عند تلك النوطة القرارية إياها، بل عند ضربة قوية في الإيقاع،

في الوقت نفسه. وإذا فشل الموسيقي في تحقيق هذين الغرضين، فإننا سنشعر بشيء من عدم الرضا، وبشيء من القلق. ويخلص شوبنهاور إلى أن «الموسيقى تتألف من تعاقب مركبّات صوتية غير مريحة للأذن إلى هذا الحد أو ذاك، أو بالأحرى من مركبّات صوتية تثير القلق، مع مركبّات صوتية مريحة؛ مثلما أن حياة القلب (الإرادة) هي تعاقب للقلق في الحياة، من خلال الرغبة أو الخوف». وأكد شوبنهاور أننا حين نستمع إلى الموسيقى، فنحن لا نستطيع إلا أن نشعر بمثل هذه التوقعات والرغبات. إنها شيء لاإرادي. وهذه الاستجابة لا علاقة لها بمعارفنا، أو ذكائنا، أو فهمنا. إن الغالبية العظمى من الناس ذوي الحس الموسيقي الطبيعي، الذين لم يتعلموا أي شيء عن الموسيقى، وليست لديهم أية فكرة حتى عن أبسط تقنياتها، مثل ترقيم الميزان في الفاصلة الموسيقية، أو ما هو مفهوم «القرار»، سيشعرون تماماً نفس الشعور كما لو كانوا ملمين بالتقنية الموسيقية. لذلك، إن الموسيقى، كالحياة، تعبر عن الوضع القلق الذي نحن فيه، إلى أن يتحقق توقف كل شيء، نهاية المقطوعة الموسيقية، أو نهاية حياة المرء. ويتحقق معها توقف الشعور بعدم الارتياح.

عند هذه النقطة يولي شوبنهاور اهتماماً خاصاً بوسيلة تقنية في الهارموني، تدعى «التعليق». وكانت هذه الفكرة هي التي ومضت في ذهن فاغنر. إن التعليق يخلق حالة من الترقب. وهذا يُلمس في المقطع ما قبل الأخير من المركب الصوتي في أي مقطوعة موسيقية. وهذا في واقع الحال تنافر تقريباً. الترقب ينطوي على تنافر في الموسيقى، وليس ذلك فحسب، بل إن التنافر يُفضي إلى تنافر آخر، إلى أن يعود ليستقر على الصوت القراري. هنا عندما يتحرك التنافر إلى تنافر آخر غير متوقع،

فإننا نشعر كأننا بحاجة إلى أخذ نَفَس آخر، نتيجة لما فوجئنا به من تنافر آخـر. وهذا يعني أن حل الترقب كأنــه يجعلنا نسترد أنفاسنا المحبوسة. التي تزداد توتراً عند التأخير.

عندمـا قرأ فاغــنر هذا الكلام، شعر أنه تلقف فكــرة موسيقية، فكرة تأليـف قطعة موسيقية كاملة، في الواقع أوبــرا كاملة، على نفس النمط مــن عملية الترقب. فالموسيقى ستتحرك، على طول، من تنافر إلى تنافر، بصورة تجعل الأذن في حال ترقب مستمر لحل لم يأت. لكن هناك حلاً واحــداً لذلك كله، هو المركب الصوتــي النهائي، الذي هو نهاية النص الموسيقي، وفي الأوبرا نهاية حياة البطل.

وهنا يبقى المركــب الصوتي الأول في أوبرا (تريستان)، الذي عُرف بمركــب تريستان الصوتي أشهر مركب صوتي في تأريخ الموسيقى. فهو ينطوي ليس على تنافر صوتي واحد، بل على تنافرين صوتيين، وبذلك يخلـق عنـد المستمع رغبتـين معذبتـين في مفعولهما، لنشـدان الحل. والمركــب الصوتي الذي يتحرك إليه، يحل أحــد هذين التنافرين، لكن ليــس الآخر، وبذلك يحقق حلاً، لكنه ليس الحــل الكامل. وعلى هذا النمط تتحرك موسيقــى فاغنر: في كل حركة لمركب صوتي هناك شيء يُحَــلّ، لكن ليس كل شيء. كل مركب صوتــي يُحَلّ بطريقة يبقى فيها الآخر، أو يظهر فيها مركب صوتي جديد، وهكذا، في كل لحظة تشعر الأذن الموسيقية أنها تطمنت جزئياً، لكنها ظلت في الوقت نفسه محبطة. وهــذا يستمر في العمل كله. ولا يُحَلّ التنافــر كله إلا في نقطة واحدة، هــي المركب الصوتي الأخير؛ وهذا هــو أيضاً نهاية كل شيء، الأبطال، واهتمامنا بهم، والعمل الأوبرالي كله.

قــال ايرنســت نيومان، وهــو احد أبرز كتبــة سيرة حيــاة فاغنر: إن

(تريستــان وإيزولدة) هي شوبنهاور من المركــز إلى المحيط. إن الفكرة الأساسية لها التي تعتبر بذرة العمل كله كانت استجابة لقراءة شوبنهاور. وكل شيء فيها مستوحى من شوبنهاور: العلاقة بين الموسيقى والعناصر الأخــرى في الدرامــا، المغزى المركــزي للقصة، والمخيلــة الأدبية التي تســود النص، كلها بوحي من شوبنهاور. لقــد أكد توماس مان أن هذا الانصهار بين فاغنر وشوبنهاور كان مثالاً صارخاً في كل الثقافة الغربية ذات العلاقــة المتكافلة بين فنــان خلّاق أصيل ومفكــر كبير. لكن هذا لا يعنــي أن على المرء أن يُلم بفلسفة شوبنهــاور ليتبين الجانب الفني في (تريستان).

كما ينبغي أن نفطن إلى الدين الكبير الذي كان يدين به فاغنر إلى فرانز لست، إلى حــدّ أن كل تجديدات فاغنر، وكل تقنياته، كانت لها جذور عند لســت. وهذا كان واضحاً في عنصر التنافــر الصوتي، الذي اتخذ عند فاغــنر منهجية راسخة أصبحت منطلقاً لــكل الرغبات في التوسع بعنصــر التنافــر بعده. إن إحــدى حيل فاغنر المفضلة كانــت في التعامل مــع الكيــان البنائي لكل الهارمونيــة الغربية، المركــب الصوتي الثلاثي المعــروف. فإما أن يعتصره قليلاً، ليجعل منــه مركباً صوتياً «منقوصاً»، أو يوسعــه قليلاً ليجعل منه مركباً صوتياً «مزيداً». إن المركبات الصوتية المنقوصــة أو المزيدة تتمخضــ عن أشياء غريبة في طريقــة تصرفها. إنها تصبــح غير مستقرة وتنشأ لها نزعــة إلى زعزعة المزاجية، لأنها تنحرف عــن المألوف المريح للسمع، باحثة عن علاقات مع مركبات صوتية غير مألوفــة. إنها عنصر إقلاق في الموسيقى. إنها تخلــق انطباعاً من التوتر، والقلــق، واللايقينية. لقد استعملها فاغنر بغزارة في أشهر أوبراته ليخلق جــواً من الألم أو التوجع أو ليخبرنا بأن شيئاً غير مريح قد يحدث. لكن

هذه المركبات الصوتية القلقة، بمنقوصاتها أو مزيداتها، هي هارمونيات فرانـز لست الداكنة في الأساس. إن سمفونيـة (فاوست) لفرانز لست التي ألفها في ١٨٥٥ تبدأ بلحن موجع مكون كلياً من مركبات صوتية مزيـدة، يتبعها فـوراً تقريباً تفجر عن الألم الشديـد، مطعم بسلسلة من المركبـات الصوتية المنقوصـة الصارخة (هنا يـبرز دور فرانز لست في سمفونيتـه فاوست كسابق لفاغنر). ولحنه الأفتتاحي يحتوي على اثنتي عشرة نوطـة: انه يستعمل كل النوطات الاثنتي عشـرة للسلم الموسيقي الغربي بدون تكرار أي منها. فإلى ماذا يؤول بنا هذا؟ حسن، إنه سيؤول بنـا إلى انهيار النظام المقامي، وبالتالي انهيـار الحضارة الموسيقية الغربية التـي نعرفها. لكن الموسيقى عند فاغنر بقيت تراوغ في مغازلتها الأذن، وذلك في إدخالها عنصر التنافر الصوتي، لكن ليس بصورة مطلقة. كان فاغنر يخلق تنافـرات صوتية لكي يحلها. إنهـا سايكولوجية التلاعب بمزاجية المستمع وإقـلاق راحته بإمطاره بتنافر في إثر تنافر، إلى أن يجد الحل في آخر المطاف. لكن المشكلة هنا أن الموسيقى الغربية وصلت إلى درب مسدود، أو مفترق طـرق، إما العودة إلى نظام المقامية، أو المضي قدماً في نهج التنافر. وآثر الموسيقيون الأكثر نزوعاً نحو التغيير والتجديد المضـي قدماً في ما بدأه فاغنر. فتبنى أرنولـد شونبرغ وأتباعه الموسيقى الاثنتي عشرية بالكامل، وأحدثوا قطيعة مع النظام المقامي الذي يتعامل مـع النوطات بصورة تراتبية، أي حسـب ارتياح الأذن لها. وأصبحت الموسيقى تؤلـف للموسيقيين وليس للجماهير. فربح هؤلاء الموسيقيون النقاد، وخسروا المستمعين.... وأنا لا أدري من يتحمل المسؤولية هنا، النقاد الذين يلهثون وراء التنظيرات النظرية، أم الموسيقيون الطليعيون؟

وكنـت أفضـل أن أكتب فصـلاً خاصاً عـن علاقتـي بالفيزياء، لأن

موضوع ميكانيك الكم، ومبدأ اللاحتمية (أو الحتمية) ظل شاغلاً بالي عقوداً من السنين، منذ علاقتي بالفيزياء، إلى وقت قريب، حيث وقفت على تجارب متأخرة تؤكد مبدأ الحتمية، أي الظاهرة الجسيمية والموجية للكيانات ما تحت الذرية، في آن واحد. وقد عالجت هذا الموضوع وغيره في كتابيَّ (الثورة العلمية الحديثة وما بعدها)، و (تأملات في الفيزياء الحديثة).

ورأيت من المفيد هنا أن أعيد نشر كلمة بعنوان (فيزياء بلا آينشتاين)

فيزياء بلا آينشتاين؟

نشر هارولد أسبدن في بداية عام الاحتفال بمئوية آينشتاين، في ٢٠٠٥، مقدمة تحت عنوان «فيزياء بلا آينشتاين: مراجعة بعد مئة عام»، ذكر فيها لماذا لا تستحق نظرية آينشتاين حول النسبية كل تلك الضجة التي طُبلت لها، وكيف انها أعاقت العمل نحو فهم افضل للكون، وللجاذبية. وجاء فيها أيضاً أن لمن المحزن أن يكون نقد نظرية آينشتاين موضوعاً غير مرحب فيه في ٢٠٠٥، لأن آينشتاين اعتُبر بطلاً ينبغي تمجيده حتى الآن بعدما أخذ عدد الطلبة المعجبين به بالتناقص. ثم إن نظرية آينشتاين لم تعد موضوعاً يمكن أن يستأثر باهتمام الطلبة الطموحين، إذا أخذنا في الاعتبار أن مئة عام مرت عليها.

من الأركان الأساسية لنظرية النسبية الخاصة لآينشتاين، التي ظهرت في العام ١٩٠٥، أن سرعة الضوء ثابتة وأنها أقصى سرعة في الكون. لكن هذه الحقيقة بقيت موضع تساؤل لدى البعض من العلماء. ما قولنا، مثلاً، في السرعة التي تنتقل فيها الجاذبية؟ شيء مذهل، لكنه لا يكاد يثير الانتباه. فمنذ نيوتن كان يقال: إن مفعول الجاذبية فوري،

أو آني. فمـاذا يعني هذا؟ ألا يعني أن هنـاك سرعة تفوق سرعة الضوء بكثـير؟ يقول توم بيثل: «إن أحـداً لم يُعر هذا الموضوع اهتماماً حتى الآن، باستثناء مجلة علمية محترمة جداً نشرت مقالاً ستنسف خلاصته، إذا تم قبولها على النطاق العام، أسس الفيزياء الحديثة، ونظرية آينشتاين عـن النسبية على وجـه الخصوص. يذهب هذا المقـال الذي نُشر في ١٩٩٨، إلى أن السرعـة التي يتم فيها مفعول الجاذبية ينبغي أن تكون عشريـن بليون مرة ضعف سرعة الضوء علـى الأقل. إن هذا سيناقض نظريـة النسبية الخاصـة القائلة إنه ليس هناك شـيء أسرع من الضوء. وهذا الزعم عن المنزلة الخاصة لسرعة الضوء كان قد أصبح من الأشياء المسلـم بها بين المتعلمين في القرن العشرين».

كان كاتـب هذا المقـال، الذي أشـار إليه توم بيثل، هـو الفيزيائي والفلكي الأميركي اللامع توم فان فلاندرن. لا شك في أن مقاله هذا كان صدمة أو اختراقاً للعرف السائد في دنيا الفضاء. فمنذ سنين، كان معظم محرري المجلات الفيزيائية السائدة يرفضون بصورة أوتوماتيكية أي مقال يطعن في نظرية النسبية الخاصة (لآينشتاين). لكن الأنترنت قضـى على احتكار النشر، وشجعـت بعض المجلات العلمية على أن تفتـح صدرها لبعض الآراء المعارضة و «المنشقة». فصار محبو الحقيقة العلميـة يجدون ضالتهم في الأنترنت. لأن المجلات العلمية الرسمية لا تشفي غليلهم في طرح وجهات النظر المخالفة.

تزعم الفيزياء الحديثة أن آينشتاين صحح مفهوم نيوتن عن الجاذبية. نيوتن قال: إن سرعة الجاذبية فورية، أما آينشتاين فقد تبنى نظرية غيربر القائلـة: إن سرعة الجاذبية تساوي سرعة الضـوء (من دون أن يعترف بأسبقيـة غيربر). مـع ذلك، لاحظنـا أن سرعة الجاذبيـة تفوق سرعة

الضوء بكثير، وهو أقرب إلى تصور نيوتن. فهل ينبغي الاعتذار إلى نيوتن؟

أما لماذا يجب أن تفوق سرعة الجاذبية سرعة الضوء، فذلك وفق المنطق الآتي: إذا كانت سرعة الجاذبية مثل سرعة الضوء، فلا بد من أن يكون هناك تأخر ملموس في فعلها. ففي وقت وصول «جذب» الشمس إلينا، فإن الأرض ستكون «تحركت» مقدار ٨،٣ دقيقة (وهو وقت وصول الضوء من الشمس إلينا). وفي غضون ذلك لن يكون جذب الشمس للأرض في الخط نفسه المستقيم لجذب الأرض للشمس. إن نتيجة عدم تطابق هاتين القوتين ستترتب عليها مضاعفة بعد الأرض عن الشمس في غضون ١٢٠٠ سنة. ومعروف أن هذا لا يحدث. إن ثبات مدارات الكواكب يؤكد لنا أن الجاذبية ينبغي أن تفعل مفعولها أسرع من الضوء بكثير. والإيمان بهذا التفسير جعل نيوتن يقرّ بأن قوة الجاذبية ينبغي أن تكون فورية. والمعطيات الفلكية تعزز ذلك.

وفي السنوات الأخيرة أجريت تجارب تؤكد أن سرعة الجاذبية تفوق سرعة الضوء بكثير.

يقول توم بيثل: «قد يبدو مستغرباً أن شيئاً أساسياً بالنسبة إلى فهمنا للفيزياء يمكن أن يبقى موضع نقاش». ويقول فان فلاندرن: «إن أكثر الأسئلة المطروحة على بساط البحث ولا يزال موضع مناقشة هو: ما هي سرعة الجاذبية؟». والغريب أن هذا السؤال نادراً ما يطرح في صفوف الدراسة الجامعية، لأن معظم الأساتذة ومعظم الكتب المدرسية تتحاشى السؤال. إنهم يعلمون أنها سريعة جداً، لكنهم لُقنوا أيضاً بألا يجعلوا أي شيء يتجاوز حدود سرعة آينشتاين (أي سرعة الضوء).

لكن العالم الفرنسي لابلاس أعطى عام ١٨٢٥ حداً أدنى لسرعة الجاذبية، هو مئة مليون مرة ضعف سرعة الضوء، وذلك لتلافي الاضطرابات المتوقع حدوثها في حركة القمر لو كانت سرعة الجاذبية أبطأ من ذلك. ويبدو أنه كان أقرب إلى السرعة التي يقترحها بعض العلماء اليوم (فان فلاندرن مثلاً)، وهي عشرون بليون مرة ضعف سرعة الضوء. إن هذه السرعة هائلة جداً، لكنها ليست آنية، أو فورية، أو لانهائية. ولو كانت آنية لأصبح مفعولها أقرب إلى السحر، فهل تأتي هذه الحقيقة متعارضة مع نظرية النسبية الخاصة لآينشتاين، التي تؤكد أن سرعة الضوء (٣٠٠ ألف كلم في الثانية) هي أقصى سرعة في الكون؟ يقول توم فان فلاندرن: «الجواب نعم، ولا». ويفضل فلاندرن القول أن نظرية آينشتاين كانت ناقصة وليست مجانبة الصواب.

إن عيب نظرية النسبية الخاصة لآينشتاين، التي تؤكد أن سرعة الضوء هي أقصى سرعة في الكون، تم تلافيه في نظرية النسبية الخاصة للعالم الهولندي لورنتس، التي نشرها في ١٩٠٤، أي قبل نظرية آينشتاين بعام. وأن نسبية آينشتاين الخاصة لا تستطيع تقديم تفسير لسرعة الجاذبية التي تفوق سرعة الضوء (بكثير جداً، كما رأينا)، لكن نسبية لورنتس تستطيع تقديم هذا التفسير. وهذا دعا الكثير من العلماء إلى اعتماد نسبية لورنتس بدلاً من نسبية آينشتاين. وعلى أية حال، كانت نظرية النسبية في بادئ أمرها تدعى نظرية لورنتس – آينشتاين.

وهناك طعون أيضاً في نظرية النسبية العامة لآينشتاين (نُشرت في ١٩١٦)، حول تفسيرها الهندسي للجاذبية، في زعمها أن الجاذبية تتسبب من انحناء الفضاء والزمن. هنا يشبّه الفضاء – الزمن في نسبية آينشتاين العامة بمشمع ذي بُعدين، وأن وجود جرم كبير، كالشمس، في

الفضــاء – الزمن سيسبب انحناءً أو انبعاجــاً في الفضاء – الزمن، وهذا يسبب انجــذاب أجرام أخرى أصغر، كالأرض، تجـاه الشمس الجالسة في فجــوة الفضاء. إن هذا يعنــي اعتبار الفضاء شيئاً ملموســاً أو صُلباً، كالمشمــع. لكــن الفضاء فراغ بحــت لا يمكن أن ينحنــي أو ينبعج. إن انبعاجــه يصعب تصوره أو هضمه. وهكذا نلاحظ أن الجاذبية في ضوء التفسير الهندســي لنظرية النسبية العامة ليست «قــوة»، وليست قادرة علــى البــث، لأن الجسم المجذوب يتبــع مساراً منحنيــاً في «الفضاء – الزمن» مــن دون وجود قوة تفعل فعلها. وهــذا يتعارض مع مبدأ العلة والمعلول. لأجل هذا يطالـب عدد متزايد من علماء الفيزياء بإعادة النظر في نظريتي النسبية لآينشتاين.

# الفصل الثالث عشر

حين كتبت الأوبرا والكلب في أوائل التسعينات طمرتها زهاء ست سنوات، ثم نشرتها بعد أن استأنست برأي الصديق فؤاد التكرلي. وأيقنت أنها أجمل رواية كتبتها. هل قلت ذلك قبل الآن؟ أرجو المعذرة، فأنا متقدم في السن. مع ذلك فإنني لم أكتب الرواية التي أحلم بها، مع أنني كنت أشعر أنني قادر على كتابة رواية مذهلة. إلا أن هذا لم يحصل. أذلك لأنني ضيعت فرصتي في كتابات متفرقة؟

أنا عندي أن هناك ثلاثة روائيين في العالم لم يظهر أروع منهم، هم ستندال، وتولستوي، ودوستويفسكي، رغم أنه يضجرني، ورغم ان ستندال تألق في عمل واحد فقط، هو (الأحمر والأسود)، وربما في (دير بارم) أيضاً، ورغم أن لي مآخذ على (الأحمر والأسود)، وربما مآخذ أيضاً على (آنا كاوانينا)، لأنهما روايتان – في رأيي – وليست رواية. لكنني أعتبر ماتيلد (بطلة الأحمر والأسود) أروع بطلة روائية

على الاطلاق. لهذا أنا أشعر أنني لا أستطيع أن اكتب عن شخصية من مستوى ماتيلد. وهذا يتركني محبطاً.

روايتـي الأولى بعد الأوبرا والكلـب، (السراب الأحمر)، هي رواية عـن مدينـة فاضلـة ينشئها مثقفـون في ركن منعزل في عـراق البعث. وكنـت أريـد أن أكتب عن الرجـال المعصوبـي العينين؛ وعـن امرأة. هـذه المرأة ستكون هـي الرواية. فمتى سأقدمهـا؟ أنا لست على عجلة مـن أمري. لكنني مـع ذلك أفكر متى سأقدمها. اخـترت لها اسماً، لا أدري كيـف اصطفيتـه من بين كل الأسماء: داليـا.... لم يعجبني. هي كانت أحب بكثير من اسمها. وهي كانت شخصية روائية بحق، مع أن نسختهـا التي اقتبستها عنها لا تقل عنها روعة. (فيما بعد سأكتشف أن النسخة الأصلية عصابية).

لكننـي كنت أريد أن يكون دخولها الرواية شيئاً بارعاً. كان دخولها في الصفحـة ١٦٦. لم اكن متعجلاً. قلت: «اتصلت به مريم، وقالت له عبر الهاتف: «هل لديك استعداد لاستضافتي مع زميلة فاتنة؟»»

آه، لم يكـن هنـاك موجب لكلمـة «فاتنة»، بـل كان أفضل لو قلت «زميلتي». لا بأس، هذه التفاصيل لن تخدش الرواية.

ثـم قالت مريم: «حدثت زميلتي داليا عـن تجربة كوردرة (أي المدينة الفاضلة)، فذهلت. ما رأيك؟ نذهب سوية يوم الخميس القادم؟»

هكذا دخلت داليا فضاء الرواية. إنه كله عمل روائي بحت، لا علاقة له بالواقع. فمريم لم تكن يومذاك في العراق. وهي لا تعرف داليا. وداليا لم تكـن في العراق يومذاك. لكنهمـا لم تكونا من بنات المخيلة البحتة. همـا من بين معارفي، مثلما كانت ماتيلد مـن بين معارف ستندال، من

لحم ودم، وتحت اسـم ماتيلد. لكن دخول داليا فضاء الرواية عن طريق انبهارهـا بالمدينة الفاضلة كان عملاً بارعاً يستدعي الإعجاب. لكن ما هي المدينة الفاضلة؟

هـي لولـب الروايـة، وملهمتي في كتابتهـا. المدينـة الفاضلة كانت المحرك الأساسي لكتابة الرواية. وأنا لم أختلقها من المخيلة، بل انتزعتها من الواقـع، من إبداع فريقنـا الثقافي الذي أراد أن يتغلـب على السأم والابتـذال بإنشـاء مدينة فاضلة علـى صدر نهر ديالى بعيـداً عن الدنيا والسلطة.

كتبـت فاطمة المحسـن عن روايـة (السراب الأحمـر): «في مفتتح روايتـه، يبني الراوي منتجعاً للمثقفـين العراقيين على كتف نهر ديالى، بضعـة أمتار عن أكبر تجمع لبساتين المنطقة الوسطى. ذلك الحيز لم يكن مجرد يوتوبيا ترمـز إلى عزلة المثقف عن مجتمعه، بل هو الواقع مجسداً في توق إلى الأنتلجنسيا العراقية إلى استكشاف المكان العراقي والعودة إلى الطبيعة وتكوين مستعمرة للحرية بعيداً عن رقابة السلطة».

لكن هذه المدينة الفاضلة كانت فرصة مقتنصة من الواقع الاستبدادي والساحـق لكل الأحلام، وليست حلماً دائماً. لذلك كانت أشبه بأمنية مسترقـة من هذا الواقع. مـع ذلك استطعت أن أخلـق فيها حياة كاملة في سيـاق موقوتيتها. نقلت حيـاة المدينة إليها، إلى هـذا المكان المنعزل عـن العالم. وأصبح نزلاء هذه المدينـة الفاضلة يتحركون بكل حرية في فضاء هذه المدينة. وكنت أريد أن أنشئ مستعمرة داخل هذه المستعمرة. وهـذا ما فعلته. كان هناك ثلاثة أشخاصـ مرشحين لأن يكونوا أعضاء هذه المستعمرة المتحررة من القيود، هم الدكتور رمزي، ومريم، وهشام المقدادي. وفيما بعد ستثير فضول داليا هذه المستعمرة داخل المستعمرة،

وتغريها في أن تقف على حقيقتها. لكن داليا لم تبق أكثر من ليلة والنهار التالي لها، لأن بقاءها كان محكوماً بهذه الموقوتية الزمنية.

وأنـا كنت أريد أن أجعـل المستعمرة داخل مستعمـرة حرة بصورة مطلقـة. أتحـت الفرصة للثالـوث المذكـور أن يستقلوا قاربـاً مطاطياً ويبتعدوا بـه عن الآخرين ليسبحوا عراة. وهـذا ما كان في المخطوطة الأولى من الرواية. وعندما عرضت النص على غانم حمدون ليبدي رأيه فيه، ثارت ثائرته، وطلب مني أن ألغي هذا المشهد، أو يقطع صلته بي، متذرعاً بانه سيعرضنـا إلى النقد الجارح والتهجم من لدن الإسلاميين، فاضطـررت أن ألبسهم لباس السباحـة. وكان موقفي المتحرر هذا من بين الأسباب التي جعلت غانم يقاطعني.

وأنـا اعترف بأن الحياة في «المستوطنة» لم تكن خارج المألوف على الإطـلاق، لكننـي أدخلت ذلـك المشهد من عندي للتعبـير عن ذهنية الثالوث المتحررة، علماً بأن مريم لم تكن إحدى نزلاء المستوطنة، سوى أننـي على علم بتحررها، فهي كانت تسبـح في ألمانيا عارية، و لم يكن لديها مانع في أن تفعل ذلك في محيط معزول.

وأضفى حضور داليا علـى الرواية حيوية وبهجة. وستبقى هي أهم وأحـب شخصيات هذه الروايـة. وستصبح عنصراً مهمـاً في رواياتي الأخـرى. وكما قلـت إنني لم أختلقهـا من المخيلة، بل هـي شخصية حقيقية كان لهـا حضور حيوي في معظم رواياتـي. وسأعترف بأنني كنـت أبحـث عن شخصيـة مثلها لها خلفيـة أكثر تحضـراً. فالنموذج الأصلـي – الحقيقي – لداليا هـو أنها نصف عربيـة ونصف بريطانية. لكننـي جعلتها من عائلـة لبنانية، هاجـرت إلى العـراق في أيام العهد الملكي. جاء في الرواية:

«تنتمي داليا إلى أسرة لبنانية قدمت إلى العراق منذ أوائل الخمسينات. كان أبوها خبيراً في شركة النفط، وله علاقة شخصية بكولبنكيان، والجالية النفطية، وبعض العائلات العراقية المعروفة التي شاركت في الحكم، والوسط الثقافي النخبوي. وكان منزلهم الفاخر في عرصات الهندية ملتقى هذه الأوساط. وأبو داليا، السيد نبيل بارودي، مثقف من طراز رفيع، ويحمل شهادة الماجستير في هندسة النفط من بريطانيا. وكان من هواة فن الرسم بصورة خاصة. فاقتنى عدداً من أفضل اللوحات الفنية العراقية. وتعرف بمعظم الفنانين التشكيليين، ومعظم الموسيقيين والعازفين، العراقيين، والأجانب...»..

وجاء أيضاً: «داليا تذكر أشباح أشخاص لهم وزنهم في دنيا الفن والموسيقى من بين من كان يتردد إلى منزلهم، مثل الشريف محيي الدين حيدر (مدير معهد الفنون الجميلة، وعازف العود الشهير)، وساندو آلبو، عازف الكمان الروماني، ومسعود جميل عازف التشيلو التركي. لكن ذلك كله كان يوم كانت صغيرة. أما فيما بعد، فقد كانت تأنس كثيراً لأحاديث المايسترو الألماني مومر مع أبيها، ولعزف منير بشير، وطقوسه التي يفرضها في أثناء العزف...».

وهناك تفاصيل أخرى - في الرواية - عن حياة العائلة، وهي كلها كانت ترويها لي (غ)، الشخصية الحقيقية لداليا. واعترف بأن فؤاد التكرلي أذهلته شخصية داليا، والأجواء التي كانت تحيا في وسطها. وهو تعرّف إلى (غ) فيما بعد بواسطتي، بعد أن أحبت أن تستشيره في مسألة قانونية. لكنه تعامل معها بغطرسة، وهي لا تنسى ذلك. فقلت لها مازحاً: «ذلك لأنك فاتنة، وأراد أن يتعالى عليك!».

السراب الأحمر كانت، مثل الأوبرا والكلب، موضع نقاش غير

منصــف أو «متخلف»، كما تبين لي. وأنــا لا أدري لماذا استقبلت بهذا الموقف السلبي من قبــل عدد من المثقفين، بالرغم من أنها نالت ثناء من كتبــوا عنها، بمــن فيهم فيصــل دراج، وفاطمة المحســن (التي غمزتني بفظاظــة في كتابتها عن الأوبرا والكلــب)، ووصل إلى علمي أن بعض معارفي من «التقدميين» اعتبر الرواية إساءة إلى اليسار!! وأثار سخريتي وجزعي أن بعضــ «المثقفين» أعرب عن تململه على تصرف البطل فيما يتعلــق بالمسائــل العاطفية. أنا لا أرى ضرورة لمناقشــة هذه الانطباعات التافهة.

تحدثــت أنا والصديق نوري السعدي عن مفهــوم البطل في السياسة والحيــاة. أمــا الآن فأود أن أطرح مفهوم البطــل الروائي. من هو البطل الروائــي؟ هنــاك مصطلــح كان متــداولاً في الأدب الماركســي: البطل النموذجي. ولا أدري اذا كان ما يزال له وقعه في عالم النقد. في جلسة دار فيها نقاشــ عن كتاباتي الرواية، ألمح أحدهــم إلى أن رواياتي تفتقر إلى البطــل النموذجي. لا أذكر كيف عقبت؟. هل نعتبر جوليان سوريل بطــلاً نموذجياً، هذا المواطن الذي ينتمي إلى طبقة متواضعة، لكنه وقف في وجــه أبناء الطبقــة الأرستقراطيــة، وركّع أعتى فتاة مــن بنات هذه الطبقــة. ومن هو، أو مــن هم الأبطال النموذجيــون في رواية (الحرب والسلم)، وفي رواية (آنّا كارانينا)؟ من هو البطل النموذجي في (الجريمة والعقاب)، وفي (الدون الهادئ)، وفي رواية (جان كريستوف لرومان رولان)، وفي (البحث عن الزمن المفقود)؟ وهل كان كل من (دارسي) و (اليزابيــث بنيت) بطلاً نموذجياً؟ ثم ما هو موقــع ماتيلد التي بهرتني أكثر من جوليان سوريل؟

نعــم، إن البطل النموذجي يمكن أن يعلن عن نفسه بوضوح، كما في

شخصيـة سوريل، وفي شخصية بيتشوريـن في (بطل من هذا الزمان).
لكنـه يضللنا في الكثير من الأعمال الروائية الأخرى. على سبيل المثال، هـل هناك ضرورة لأن نبحث عن بطـل روائي نموذجي، أو بطلة روائية نموذجيـة، في روايـة (الأوبرا والكلب)؟ روايـة (الأوبرا والكلب) هي روايـة تحوم حول البحث عـن حلقة مفقودة، كما سبقـت الإشارة إلى ذلـك. وهـذا هو سـر أهميتهـا. لكن هذا ليس كل شـيء في الرواية. فالروايـة، إلى جانـب ذلك، هي روايـة الفتاة ياسمين بـكل مشاعرها وأحاسيسها في تعاملها مع هذا الموضوع، وبكل علاقاتها مع الآخرين. وأنـا أشعـر أنها كانت انطلاقـة بارعة في تجربتي مـع الرواية. لكنني لم أنصـرف إلى كتابة الرواية إلّا بعد كتابـة (السراب الأحمر)، التي كانت بداية مشروع روائي متعدد، لأنه سيتناول سيرة حياة مثقف عراقي تحت اسـم هشام المقدادي. وهنا دخلت شخصيـة امرأة هي المحفز الرئيسي لكتابة الرواية، أعني بها شخصية داليا.

وأنا سأتابع حياة البطل هشـام المقدادي، والبطلة داليا بارودي على مدى خمس روايات، سيكون لحضور ابنتهما شهرزاد دور مركزي في الجزأيـن الأخيرين. وسينتقل اهتمامي إلى شهرزاد كشخصية روائية من طراز خاص.

في هذه المناسبة سأعلن عن حضور ثلاث شخصيات نسائية مهمة في أعمالي الروائيـة، هن داليا، وشهرزاد، وتمارا، التي سيتكرس حضورها في روايتـين جديدتـين، بعد السلسلة الخماسية، همـا (فرس البراري)، و(الفرس الزرقاء).

كانـت رحلتي مـع هذه الروايـات جولة جميلـة نقلتنـي إلى أجواء فردوسية، رغم ما رافقها من هموم (على مصائر البطلات).

كان البطـل واحداً – تقريبـاً– في كل هذه الروايات، وإن تغير اسمه (الى هيثـم بغدادي) في الروايتين الأخيرتين؛ باستثناء (الأوبرا والكلب) التي لم يكن له حضور فيها. أما البطلات الثلاث فلكل منهن شخصيتها الخاصـة، لكن يجمعهن شيء مشـترك، هو تحررهن الزائد. وقد فقدت السيطرة على بعضهن، وترتبت على ذلك نتائج جاءت مغايرة لرغباتي.

وفي الواقـع إنني كنت أريـد أن أخلق بطلة روائيـة متميزة. وكانت شهـرزاد ابنة داليـا وهشام مرشحة لهذه المهمـة. وأنا كان لي حساب، ومـا يزال، مع الفيزياء. فجعلت شهـرزاد متألقة في هذه المادة. مع أنني أحببـت كل نسائي الروائية، إلاّ أنني تعلقت بشهـرزاد أكثر من البقية، لأنها كانت تحمـل رسالتي (في العلم)، وأنـا أنشأتها مذ كانت صغيرة (في روايـة زنابـق بين الألغـام) وتابعـت مسيرتها في الحيـاة يوماً بعد يـوم، لأنني كنت أريـد لها أن تتألق في الفيزيـاء، وتصبح فتاة من طراز خاصـ (هو الجزء الرابع من المسلسل). وقد كانت. ولكنني خذلتها في اللحظـات الأخيرة، عندما جعلتها ضعيفة امـام الجنس، بعد أن كانت فوق كل شيء.

إن (فتاة من طراز خاص) تبقى My master piece، رغم أنني خذلت البطلـة، وجعلتها مخلوقة معقدة جداً، إلى حد أنها أحالت حياتها وحياة أمهـا وأبيها إلى جحيم، وهـذا بالرغم من أنها لم تتراجع عن اهتماماتها الفيزيائية المتألقة.

ولا أدري لمـاذا فقدت السيطرة عليها، و لم أستطع استرجاع وضعها النفسي المتداعي إلا بشق النفس، وفي نهاية الرواية تقريباً.

كان هشـام المقـدادي يتوسم في ابنتـه نبوغاً في العلـم، وعلى وجه

التخصيص الفيزياء. وهو كان يطمح إلى أن يشكل مع ابنته شهرزاد فريقاً علمياً للتصدي للسياسة «اليمينية» التي تتبعها المؤسسة العلمية الرسمية وكان يتابع اهتماماتها العلمية هذه، ويعقد عليها آماله.

كان موضوع (الفوضى والنظام في الكون) شاغل بالهما. وكثيراً ما كانا يتبادلان الأحاديث حول هذا الموضوع، ومواضيع أخرى علمية وعاطفية تشغل بال شهرزاد. وسأنقل نموذجاً من هذه الأحاديث التي كانت تدور بينهما. كانت هي تؤلف كتاباً عن الفوضى والنظام في الكون. سألها أبوها هل كتبت شيئاً؟، فأجابته بالإيجاب. فأحب أن يعرف ماذا كتبت. قالت:

«ينبغي أن يدخل في حسباننا، باب، أن الفوضى تعني الفناء التدريجي للطاقة (الكونية) ؛ وتعني أيضاً عدم القدرة على التنبؤ. لكن هناك أكثر من تحدٍّ لنظرية الفوضى في مفهومها الثاني (عدم القدرة على التنبؤ) ؛ اهم هذه التحديات ميكانيك الكم. وميكانيك الكم هو الفيزياء؛ والفيزياء هي العلم. (تعلم، باب، إن رذرفورد قال: «إن العلم هو إما فيزياء، أو جمع طوابع، وإن صرنا ننحني الآن أمام إنجازات علم الأحياء»)، وينبغي أن يدخل في حسباننا أن ميكانيك الكم تخلى في بعض التجارب المتأخرة عن لا حتميته. تذكر، باب، التجربة الهندية – اليابانية؛ وتجربة معهد ماكس بلانك في برلين ومعهد باسادينا في كاليفورنيا؛ وتجربة شهريار أفشر في جامعة هارفرد الأميركية وغيرها؛ التي برهنت على إمكانية قياس الطبيعة الجسيمية والطبيعة الموجية في وقت معاً للكيانات ما تحت الذرية. وهذا تحدٍّ أيضاً لنظرية الفوضى».

وأشارت أيضاً إلى أن بول ديفز قال في ١٩٨٩، في مؤتمر لدراسة النظام ونظرية التعقيد: إن حقيقة كون وجود البشر، وإنهم يستطيعون

فهـم أداء الكون على نطاق واسع يعني أن الكون ككل يجب أن يكون بشـكل ما algorithemically compressible، بعبارة أخرى، لا يمكن أن يخضع كلياً إلى قانون الفوضى.

وقالـت: وأنا أريد أن أؤكـد أن الفوضى لا ينبغـي أن تكون فزاعة. وأنهـا يجب أن تكون حافـزاً لدى البشر على فهمهـا وتعزيز قدراتهم من اجل الهيمنة عليها. لكن التحدي الأكبر الذي أواجهه هو الفوضى في مفهومهـا الأول، المخـرب، الذي يتجسد في القانـون الديناميكي الحراري الثاني. والبناء هو النظام في الكون. ومن بين الأمثلة على ذلك وجود الحياة. لكن هذا متداخل مع القانون الديناميكي الحراري الثاني، لأنه يتم على حساب صرف طاقة. فهل هناك خلق للطاقة مستمر أيضاً؟ كيف، وأين؟ إن علـم الفلك ما يزال قاصراً عن تقديم إجابات لمثل هذه الأسئلة، لأن المؤسسة العلمية تشبثت بنظرية الانفجار الكبير، ولا تريد أن تصغـي إلى الطعون فيها. وأنا سأبقى في مـا يشبه الضياع بين نظرية الانفجار الكبير والقانون الديناميكي الحراري الثاني».

ويثنـي أبوها كثيراً على عملها، ويتمنى لو تتصدى أيضاً إلى موضوع كان يود هو لو عالجه، هو موضوع (الفيزياء إلى أين؟). لكن شهرزاد تجد ذلـك أكبر من طاقتها، وتلمح إلى أنها لم تخلق للفيزياء وحدها، وتقول له: «أن حالتي معقدة، باب، بين الطموح الأكاديمي والحب...».

كانت رواياتي عن شهرزاد محاولة للكتابة عن امرأة متميزة. واخترت لهـا أن تكون متفوقة في الرياضيات والفيزياء، إلى جانب تمتعها بجمال «اكزوتيكـي» شرقـي آسـر، وبشخصيـة كاريزمية دوخـت المحيطين بها. لكـن شهرزاد وجدت نفسها في موضـوع تخصصها في الفيزياء إنهـا كانـت تسبح ضـد التيار. فهـي لم تؤمن بنظريـة الانفجار الكبير

التـي تتبناها المؤسسـة العلمية الرسمية؛ وكانت غير مرتاحة لأسطورة آينشتايـن التي تحاول المؤسسة العلمية التستر عليها؛ وساءها أن المؤسسة بقيـت تؤمن بمبدأ اللاحتمية الذي جاء بـه فيرنر هايزنبرغ ونيلز بور في العشرينـات من القرن العشرين؛ و لم تتقبل التجارب الأخيرة (منذ أوائل التسعينـات) التـي أكدت بطلان هـذا المبدأ. وهذا الموقـف الذي تبنته شهرزاد حرمها من مباركة المؤسسة العلمية الرسمية، ومن فرص التقدم في مجـال اختصاصهـا. فلم يعد عليهـا بالفائدة تفوقهـا العلمي. وهذا بالتـالي، أورثها كآبة مقيمة، وحرمها مـن أن تصبح سعيدة في حياتها. هذا إلى أنها لم تكن موفقة في حياتها العاطفية.

أعـترف بأنني كنـت لصيقاً بعالم رواياتي الخاصـ بي. وهذا لم يتغير حتى في كتابتي عن حدث لا ينتمي إليّ، بل إلى الجميع، هو الكتابة عن مقتـل المثقف كامل شياع. وقد خيّل هنا لفاطمة المحسن أنني صادرت مقتـل كامل وسحبته إلى فلكي. لكن هـذا كان في إطار شكلي بحت، وبقي كامل متعالياً علـى كل شيء، لاسيما الموت، الذي خذلنا بارتمائه في أحضانه، بكل شجاعة، واستهانة حتى بنا، نحن الذين كنا نريد له أن يوفر نفسه للثقافة والأدب، ولا يقدم نفسه ضحية مجانية لقوى الظلام. روايـة (موعد مع الموت) ناقشت قصة مقتل كامل شياع بطريقة روائية بحتة كتبت بمزيد من التصرف. واعترف بأن «انتماءها» إلى عالم رواياتي الأخرى، من خلال إدخال شخصيـات من عالمي الروائي أحدث شيئاً من الارتباك لدى القـارئ المطلع على عالم رواياتي الأخرى. لكن هذا لم يغـير في شيء لدى القارئ الاعتيـادي. المهم أنني قلت ما كنت أريد أن أقولـه عن مثقف فيه ملامح مـن كامل شياع. وأحسبني كنت موفقاً في هذه المهمة. فقد قال فوزي كريم عن الكتاب:

«قرأتـه البارحـة في ليلة واحـدة، لأني وجدت فيه أكـثر من عامل مشـوق...». ثـم قال: «الأمـر الذي لا أملـك القـدرة النقدية على البـت به هـو مصدر عنصر التشويـق الذي أشرت إليـه. هل هو كامن في الكتـاب كرواية، أم في الكتاب كسـيرة لشخص أعرفه عن قرب؟ هـل لاحقت صفحات الكتاب بفعل فضـول لمعرفة ما خفي عليّ من أحـداث، وأفكار صديق أعرفه؟» لكنه يؤكـد بعد ذلك مباشرة: «في كتـاب الأستـاذ علي الشوك الجديـد من الصعب الفصـل بين هذين. فالكتـاب «سـيرة» وضعـت بصيغـة روائيـة موفقـة». وسأشير إلى ملاحظـات فوزي عن الرواية. أريد أن أقـول إن فوزي لم تهمه أبعاد أخـرى في الرواية تبتعد بها عـن صلب الموضوع، كان يهمه الوقوف علـى حقيقة الحدث، وكيف عالجه الكاتب. أمـا فاطمة المحسن فقد قالت عن الروايـة: «لعلها مهمة صعبة لروايـة كتبت على استعجال، وفي ظرف نفسي ضاغـط». الرواية لم تكتب على استعجال، وأقسم أن وضعي النفسي لم يكن ضاغطاً أو مهزوزاً!

لكننـي أود ان أناقـش موضوع الرواية، روايتـي، هل كانت عملاً روائياً (في الأساس)، أم «شبه سيرة»، أم «سيرة»؟ أنا تعمدت أن أموّه كثـيراً في شخصيـة البطل رياض العبيدي، وجعلتـه يختلف كثيراً عن كامل شياع، في المظهـر (على سبيل المثال كان رياض أزرق العينين)، وفي سلوكـه وحياته. أنا لم أكتب سيرة، ومـا كانت تلك مهمتي. قد تكـون هذه مهمة أخيه مثـلاً. أنا كتبت رواية. ومـن أسفي أن فوزي تعامـل معهـا كسيرة وليـس «سيرة»، كمـا ذكر في مستهـل كلمته. وكذلـك تعاملـت فاطمة مع النصـ. لذلك حاسبنـي كل منهما، من منطلقـه، لأنني لم ألتزم بسيرة حياة «كامـل». لكن كيف ألتزم بسيرة

حياتـه وقد أدخلـت أشخاصاً آخريـن روائيين إلى عـا لم القصة. قال فوزي: إنني أقحمت شخصيـة نسائية «مصطنعة»، هي شهرزاد على عا لم كامل شياع. لكن البطل لم يكن كامل شياع، بل رياض العبيدي. وقد تصرفـت كثيراً في حياتـه، وعلاقاته. وكانت شهـرزاد شخصية محوريـة في القصة. في نصـ أرسله شهاب الـدوري إلى المؤلف باللغة الإنكليزيـة، يقع في ١٥ صفحة، قـال: «.... ليست شهرزاد واحدة مـن بين الشخصيات الروائية الرئيسيـة فحسب.... بل هي تمثل أيضاً دور شخص يقوم مقام الراوي في هذا العمل. إنها على ما يبدو تشغل دوراً مركزياً في القصة...».

أنا أعترف أن كامل شياع كان شخصاً غامضاً في حياته. وأنا ناقشت في الروايـة شخصية البطل الغامضة. وسأعترف بأن كامل شياع قال لي في آخـر مكالمة تلفونية بيننا، وكان ذلـك قبل مقتله ببضعة أيام: إنه فقد الثقـة في نفســه بالكتابة. فأدهشني بذلك. لكـن اعترافه هذا، الذي لم أكن ميالاً إلى تصديقه، جعلني أعتبر رياض العبيدي، الشخصية الروائية التـي تماهيـه، غير راضٍ عـن نفسه وعن إنجـازه الأدبـي. وذهبت إلى الاعتقـاد بأن رياض العبيدي كان يريد أن يكون كاتباً إبداعياً، في كتابة المسرحية على سبيل المثال، وهو شيء كان تصوراً من عندي. ولعل هذا جعل فاطمة المحسن تزعم أنني قزمت كامل شياع أمام هشام المقدادي (في الروايـة)، الذي يماهي علي الشوك. وهذا لا معنى له طبعاً. فالبطل رياضـ العبيدي كان موضع حب وإعجاب هشام المقدادي، لكنه كان شخصية غامضة أيضاً. وأنا لا أنسى أعترافه لي بأنه فقد الثقة في نفسه في الكتابة، وربما جعله هذا الأعتقاد يستهين بنفسه وبالحياة. (أنا لم أتطرق في الروايـة إلى فقدان البطل (أو كامـل) ثقته في نفسه بالكتابة)، لكنني

أشير إلى ذلك هنا لأول مرة. وأنا أعتقد أن كامل لم يكن محقاً في تصوره هذا. إن مثل هذا التصور يمكن أن يخامر ذهن أي كاتب.

وأنا أدعو القرّاء إلى قراءة (موعد مع الموت)، لأنها رواية ممتعة كتبت بأسلوب جميل غير تقليدي. الرواية صادرة عن دار المدى.

# الفصل الرابع عشر

سأنتقـل الآن إلى بقية أعمالي الروائية، وهي عن شخصية امرأة تدعى تمـارا، كتبت عنها ثـلاث روايات، هي (تمـارا) ؛ و(فرس البراري) ؛ و(الفرس الزرقاء).

جرثومـة هـذه الكتب الثلاثة هـي رسالة، استلمتهـا في ١٩٩١ من سيـدة. وسأنقـل رسالتها هنـا، لأنها كانـت محفزي علـى كتابة ثلاثة نصوص، أو أربعة في واقع الحال. النص الأول يغطي ٨٥ صفحة، وقد ألغيتـه بعـد أن أرسلته للطبع ثـم سحبته. كان بعنـوان (رسالة من امرأة ليست مجهولة).

كتبـتْ الرسالة التي أرسلتها إليّ صديقة باللغـة الإنكليزية، وأنا أنقل نصها هنا مترجماً إلى العربية:

عزيزي هيثم .

بدأت بكتابة رسالة (قبل هذه)، ثم مزقتها لأنني رأيت أن لا أدخل في

مزيد مــن التفاصيل. كما سبق أن علمت، أنا لا أشعر الآن أنني مرتاحة البــال بأي شكل من الأشكال. إنني أشعر أنني في حال متزعزعة وممزقة تماماً.... لا بد أنك تــدرك شعور المرأة عندما تفقد أملها في مستقبلها، هيثــم، لعلك تدرك ذلــك، لكنك لا تستطيع أن تتفهــم هذا الإحساس تمامــاً، لأنك رجل، سيعود يوماً ما إلى عائلته، ويعرف أين هو مستقبله، رغــم كل الوعود التي قطعتها لي. لقــد كنتَ تدرك ذلك دائماً، ولست ألومــك على ذلــك. ولا ينبغــي أن أحمل ضغناً عليــك بسبب ذلك، نحــن كلنا بشر، ونريد لحياتنا ومستقبلنا أن يكونا على أفضل ما تتيحه الظروف. أنــا أيضاً أريد أن أعيش، وأن أكــون سعيدة. لكنني أشعر، لســوء الحظ، أنني لقيــت إهمالاً. فأنا لم أعد أنتمــي إلى أي مكان، أو إلى أي إنسان (أنا أتحدث عن المستقبل). هذا الإحساس كان يتملكني دائماً، لكنه الآن صار يؤرقني. ولست ألوم أحداً على ذلك. كنت أنا أتمتع بالقدرة على توجيه حياتي الوجهة التي أريدها. وكنت دائماً أتبع غرائــزي. هكذا كنت منــذ صباي. كنت دائماً أريــد أن أنهج نهجي الخاص. وقد فعلت ذلك. وأتمنى الآن حَقاً لو أن الأمور كانت مختلفة، أتمنى لو أنني واجهت ظروفاً أقسى لربما ساعدني ذلك الآن على تدبير أموري على نحــو أفضل.... إنني أكتب إليــك الآن لأنني أشعر أنني لا أستطيــع الاختبــاء وراء الحقائق. لقد قلت لي عــبر الهاتف: إن عليّ أن آخــذ في الحسبان أن هناك من هم في أوضــاع أسوأ، صدقني إنني أفكــر في الآخرين لكن هــذه ليست الوسيلة التي تنســى فيها نفسك وهمومــك. لا أريــد أن أشغــل بال الآخريــن في مشاكلــي. بل أتمنى أن يكــون في مقــدوري حــل مشاكلي بيــدي. بَيْدَ أنــي لا أنسى أن الأشخاصــ الذين امتصوا رحيق شبابــي (زوجي) ؛ وكانوا في حاجة إليّ بقــدر ما تعلقت بهم لإعجابي بمواهبهم (أنت)، حاولوا أن يتخلوا

عني الآن. عندمـا قلتَ لي عبر الهاتف: «إذا كنتُ أنا عائقاً، وإذا كان انسحابي يحل المشكلة، فأنـا على استعداد للانسحاب، لأجل وضع حدٍّ لعذابك، ورغم صعوبة تحمل مثل هذا القرار، فأنا جاهز لعمل أي شـيء من أجلك». أي أن تتوارى عن عالمي. هيثم، إن آخر شيء يمكن أن يطرأ على بالي هو أن أسمع مثل هذا الكلام البارد من الرجل الذي كنـت أحبه دائماً، وأحببته في أصعب المواقف. أنا لم أتراجع قط، و لم يمنعني شيء من الرغبة في أن أكون معك. ثم، أوَ لم أكن تلك المرأة التي تبعـث البهجة في حياتـك بين الحين والآخر؟ أنا لا أريـد أن يشار إليّ بأنني امرأتك التي أصبحت الآن لديها مشاكل، وكأنك تبقي نفسك في معزل عن أي شيء.

٢١ تموز ١٩٩٢

عندمـا قلتُ لـك إنني جادة في طلاق زوجي، فـإن علاقتي الحالية بك لن تغـير الأشياء. وإذا رأيـت اتخاذ هذا القـرار، فإنني سأتخذه. وبقدر تعلق الأمر بنا، أنت وأنا، فأنا سأبقى تلك المحبة، وسأظل أشعر بالحاجـة إلى أن ألتقيـك، لكن ينبغي عليك حقـّـا أن تبرهن على أنك تهتّم بي.

هـل تعتقد أننا لـو قطعنا الصلة بيننـا، فإن ذلك سيحـل مشاكلي، ويعيـدني إلى زوجي؟ مطلقـاً، لا.... زوجي لا يريد طلاقـاً، بَيْدَ أنني أفكـر في نفسي: (إذا حـدث أن افترقنا، أنت وأنـا)، وانقطعت بيننا الأسبـاب، فلن أفكر في الارتباط بـأي رجل آخر. أفلا تعتقد، والحال هـذه، أنني أستحق - بعد كل الذي مرّ عليّ - أكثر من أن تقترح عليّ

بأن تنسحب، لحل المشكلة؟ إن ما أنا في حاجة إليه الآن هو أن تُشعرني بأنك تُعنى بي من كل قلبك وفي كافة الظروف. تشعرني بأن هناك من يمنحني حبه، ولا يدير ظهره لكل ما عشناه سوية.

أرجو أن تتلفن إليّ بعد قراءة هذه الرسالة، ولا تحاول أن تعيد على سمعي «أنتِ لم تفهميني»، أنا أفهم لماذا تقترح تلك الأشياء عليّ. أنت لا تريد أن تكون سبب عذابي. لتعلم أن فراقك عني سيكون هو سبب عذابي. لقد قدمت ما كنت أريد أن أقدمه إلى رجل كان كل شيء بالنسبة لي؛ ولا أحسبني أطلب الكثير الآن. لذا ينبغي عليك أن تفهمني.

مع كلِّ حبي.

**تمارا.**

في الختام، أنا لا أريد أن تعتبرني تلك المرأة التي ستدبر أمرها، المرأة التي يتعين عليها أن تحل مشاكلها، المرأة التي تجدها أمامك دائماً، مهما عاملتها.

أشعر أنني أهنت بعض الشيء. لأجل هذا كتبت تلك الكلمات الأخيرة. لكنك تعلم أنني لا أريد أن أعقد العلاقة بيننا. أنا لا أنشد سوى أن اكون أكثر اطمئناناً.

كنت الآن قد فرغت من علاقتي (الروائية) مع شهرزاد. كانت آخر علاقتي بها في دورها في قصة (موعد مع الموت)، مع أنني أمضيت أياماً جميلة معها قبل ذلك في رواية (أحاديث يوم الأحد). هذا مع أنني خذلتها، لأنني قمعت رغبتها في أن تحب أباها، مع أن أباها كان

الرجـل الوحيد الـذي تعتقد أنه يصلح لها كحبيب. علـى أية حال، أنا أنهيـت علاقتي بشهـرزاد، وأنا أشعر بالأسف لأننـي لم أكن سعيداً مع هـذه العلاقة. وبالتـالي شعرت أنني لم أنصف المـرأة في تلك الكتابات الروائية.

وشهرزاد كانت شخصية مختلقـة مئة بالمئة. لكنها كانت أحب امرأة إليّ، كمـا قلت، بين النساء الحقيقيـات والمختلقات. كانت أحب حتى من أمها التي نشأت لي معها علاقة حقيقية؛ وأحب من أولريكا الألمانية، التـي كانت الضلع أو الساق الثاني في رواية (مثلث متساوي الساقين). ولا أدري لمـاذا لم أتحدث عن رواية (مثلث متسـاوي الساقين)، مع أن بطلتيها امرأتان حقيقيتان. أو لعلي تحدثت عنها ونسيت؟

أنا أنتقل إلى مجموعة جديـدة من الروايات بطلتها امرأة واحدة، هي في إطـار ما «داليـا» متجددة، وفي إطار آخر امرأة مـن الخيال. لم أكن في البـدء أنوي أن أكتب أكـثر من صيغة واحدة. كنـت أريد أن أكتب روايـة عن قصة حب ثلاثي، مركـب، أو معقد. قصة حب تصبح رباعية بعـد دخول عنصر جديـد سيبقى بعيداً عن «الاكتـواء» بنار الحب، مع أنـه سيخلق جواً جديـداً من الصراع أو التـأزم. إنها لعبـة، لكنها لعبة تراجيدية.

كتبـت روايـة (تمارا) في فـترة قصيرة نسبيـاً: هيثم بغـدادي مثقف متزوج يترك العراق لأسباب سياسية. ثم يلتقي في خارج العراق بامرأة متزوجـة أيضاً. ويحب بعضهما الآخر، ويعيشـان سوية عدة سنوات. ثـم تفاجئه زوجته بالالتحاق به، بعـد أن تنتهي دراسة ابنهما وابنتهما. فتضطـر تمارا إلى الالتحاق بأختها في امـيركا، لكن هيثم لا يطيق الحياة مـع زوجته، فينفصل عنها، ويتصل بتمارا ليلتحق بها. ويفاجأ بأن تمارا

التحقت بشريك حياة جديد، أميركي، تتعلق به كثيراً، لأنه يسّوع في سلوكه، وكان قد أقال عثرتها بعد ان خذلها هيثم، مع أنه أعطاها وعداً بالعودة إليها. لكن صديقها الجديد أندرو يفرض عليها أن تعود إلى هيثم، انطلاقاً من فلسفته المسيحية، ولا يتراجع عن هذا القرار. فتجد تمارا نفسها ملزمة بالعودة إلى هيثم، لكن قلبها أصبح مع اندرو.

هذا تكثيف جائر لرواية تقع في ٣٠٠ صفحة.

أنا لم أكن راضياً تماماً عن هذا النص الجميل، لكنه لم يخلُ من مآخذ. ومأخذي أنا على هذا النص هو أنني جعلت تمارا تتخلى عن قوة شخصيتها منذ التحاقها بصديقها الجديد. فهي كانت شخصية مركزية أو محورية إلى الأخير تقريباً، ثم هوى نجمها منذ التحاقها بأندرو. ففقدت كل سحرها وقوتها.

على أنني أعترف بأنني كنت متحرراً جداً في كتابة هذا النص، وكنت أتعامل مع المرأة بحرية مطلقة تقريباً. كنت أريد أن تتمع المرأة بمثل ما يتمتع به الرجل من حرية. لكن ردود أفعال القرّاء كانت متباينة. بعضها، وهي الغالبة، كان رأيها إيجابياً، والأقل كان سلبياً. وقارئتان أعطتا النص خمس نجمات من خمس. لكن إحدى القارئات، وهي محجبة، كتبت عن الرواية كلمة متشنجة جداً. جاء في كلمتها: «سأضطر ولأول مرة أن أستعمل بعض الكلمات النابية أو المصطلحات التي لا تلائمني ولكنها تلائم الرواية. لم تصعقني دناءة أفكارها والحب الشيطاني الذي يجعل أي إنسان يزدري الحب كما تزدري الرذيلة...».

أنا أرثي لحالي لأنني وُجدت في أمة متخلفة جداً لا تستحق أن تمارس حياتها في القرن الحادي والعشرين. وجود مثل هذه القارئة بين ظهرانينا

يجعلني أشعر بخلل شنيع في عالمنا، وأنني لا أنتمي حقاً إلى هذا العالم. هذه القارئة تذكرني بوزيرة عراقية كانت تمثل المرأة وهي ترتدي العباءة، وترضى أن يؤدب الرجل المرأة. لكنني لن أتوقف أكثر عند هذه القارئة.

أنا لم أرتح إلى سلوك البطلة تمارا، ولا إلى سلوك البطل هيثم. الشخصية الروائية الوحيدة التي نالت إعجابي في عملي الروائي هذا، هي شخصية أندرو اليسوعية، الذي رفض إبقاء تمارا معه بعد أن عاد إليها صديقها (هيثم). اعترف أنها رواية شيقة عن مثلثي حب، كان مثلثها الثاني أكثر إثارة للفضول من الأول. الأولى كان مثلث حب بين الزوج والزوجة وصديقة الزوج تمارا. أما الثاني فكان مثلث حب بين هيثم وتمارا وصديقها الجديد أندرو. المثير للفضول هنا هو أن المحب الجديد لم يكن متعلقاً بتمارا سوى من منطلق مسيحي بعد أن أقالها من عثرتها. وتمارا أصبحت عاشقة ومتيمة في حبه إلى حد اثارة إستياء حبيبها الأول هيثم. هنا، أنا وجدت معادلة غريبة من نوعها في علاقة الحب المثلثة، معادلة أفقدت الحب طابعه المألوف، بعزوف المحب الجديد عن ممارسة دوره كمحب، انتصاراً للمحب الأول. وهذا فتّ في عضد تمارا وربما حرمها سعادتها حتى مع محبها الأول. فكانت الحصيلة خسارة الجميع.

فرأيت أن أعيد كتابة هذه الرواية من جديد. بالرغم من أنها نشرت. هذه المرة على لسان البطلة تمارا. كنت أريد أن تكون البطلة فرساً جموحاً، فاخترت العنوان التالي (فرس البراري). واستسلمت إلى متطلبات السوق، فأضفت إلى العنوان: اعترافات امرأة. وكانت المؤهلات الأساسية التي تتمتع بها البطلة هي جمالها الخارق، مع ذكاء لافت. لكن هذه الرواية نمت تدريجياً لتصبح عملاً فيه سمات ملحمية. البنية الأساسية للرواية هي شخصية تمارا القيسي، وشخصية هيثم

بغدادي، مع حضور زوجها تحسين كيلاني. ثم يحصل توسع في دخول شخصيات أخرى، سيكـون لها حضور لامع في النص. وسيطغى لحن رئيسـي لهذه الرواية، هو الجمال والمـال. وسيكون محور الرواية، رغم كل غنى الرواية وتشعباتها.

أنـا سأتحدث عن هـذه الرواية بشيء من الإسهـاب، لأنها أصبحت شاغـلاً كبيراً بالنسبة لي، سبب لي هماً كبيراً لم يفارقني حتى الآن. ذلك أن روايـة (فرس البراري) ستبقى أكـبر مغامرة أدبية في حياتي، وستظل توغـر جرحاً في ذاكرتي، لأنني أسأت إلى البطلـة إساءة بالغة لم أستطع التخلص منهـا. وكانت هذه الإسـاءة غير مخطط لها في البـدء، لكنها فرضـت نفسها على الرواية دون إرادة منـي، وبقيت تعذبني. فكتبت روايـة مكملـة لها، في مسعى لترميـم إساءتي، وأحسـب أنني أفلحت جزئياً.

وجاء على غلاف الرواية:

«كُتبت هذه الرواية للآخرين، وليس للقراء المحافظين أو المتحفظين. فهـي في هذا الإطار قـد تكون صادمـة لكثير من القـرّاء. لكنها مثيرة للفضول في كل الأحوال. هي رواية تنتمي إلى القرن الحادي والعشرين، وإلى قـرّاء متحررين. هـي اعترافات امرأة من خلفيـة برجوازية، وفيها دم عربـي ودم غربـي، أميركي. امـرأة متحررة جداً، لكنهـا لا تنسى أنهـا تعيش في مجتمع. وهذا الصراع بـين الانطلاق الذاتي بلا إحساس بالقيود، وشبح المجتمع الذي يؤمن بقيم، يؤرقها ويعكر حياتها.

«إن الفكـرة الأساسية التي يحوم حولها موضوع الرواية هي جمال المـرأة الخـارق، ومـا سيترتب عليـه. وهذا انطلاقـاً من مقولـة أناتول

فرانسـس: «الجمال هو أعظم قوة علـى وجه الأرض». من هذه الخلفية، ومن خلفيـة أخرى وهي قول جان بول سارتر: «الجميلات هن بين أن يكن برجوازيات أو بنات هوى»، نشأت لدى الكاتب فكرة الرواية.

فأي مصير سيكون للجمال؟

إنهـا اعترافات امرأة استدرجت إلى ركوب مغامرة جنونية، من دون أن تـدري. لكن هـذه النزوة لم تنل من مكانتهـا، فلقد ظلت متألقة في عالمها، وموضع حب وإعجاب بين الناس الذين تتحرك ضمن دائرتهم، على الرغم من أنها ستظل تمارس إحساساً قاتلاً بالندم عن نزوتها.

والرواية، إلى جانب ذلك، بانوراما شيقة في أحداثها وأفكارها».

سألتنـي امرأة من أقاربي قرأتْ الرواية، من هي شخصية تمارا؟ فقلت لهـا: إنها شخصية مختلقة. فلم تصدق. وهـذا من شأنه أن يطرح سؤالاً أو أسئلـة عـن شخصيات الروايـة. قريبتي لم يفتهـا أن تلاحظ أن هيثم البغـدادي فيـه الكثير مـن شخصيتي أنـا، وهذا صحيـح. وأضيف أن شخصيـة اسبرانتا مستوحاة من شخصية هنـاء أدور، وسيتضح هذا في الكتاب الثاني (الفرس الزرقاء) على نحو أوضح. أما بقية أبطال الرواية فكلهم مختلقون.

وفي الروايـة، أو الروايتـين، فرس البراري؛ والفرسـ الزرقاء، هناك شخصيات أخرى، نسائية ورجالية، متألقة أيضاً. بمن فيهم الشخصيات الثانوية. وأنـا أخص بالذكر شخصية اسبرانتـا المذهلة، التي استضافت هيثم عندهـا ليمضي شهراً كامـلاً معها في برلـين (الشرقية) في شقتها المؤلفـة من غرفـة واحدة، دون أن يحصل بينهمـا وصال جنسي. كما استفـدت مـن رواية رفيـق عن فتاة ايرانيـة من حزب تـودة اليساري،

سميتهـا أناهيد صفـوي، حول اغتصابها من قبـل لافرانتي بيريا، وزير داخلية ستالين، بعد اعتقالها بسبب انتقادها لبعض نواقص النظام.

كان القســم الأول من الروايـة كتاب هيثم بحـق. ولعله كان أروع أقسام الكتاب. هنا تألق هيثم في أحاديثه الساحرة عن خلفياته الثقافية، والأدبية، والموسيقية، التي جننت تمارا، وفي أحاديثه عن «نسائه»، التي كانت تصغي إليها تمارا والآخرون بانبهار.

تم اللقـاء بين هيثم وتمـارا في لندن، في شقة عائلـة صديقة لكليهما. هـو كان قادماً من بودابست التي آوته مـن مضايقات السلطة العراقية؛ وهـي كانت قادمـة من العـراق في محاولة لإكمـال دراستهـا، بعد أن خـاب ظنها في زوجها المليونير، السكير، ومعاشر النساء. في هذا اللقاء يجتمع مثقف من طراز رفيع مع ملكة جمال. هو يبهره جمالها وسحر شخصيتها؛ وهي تبهرها ثقافته وسحر شخصيته. نال أعجابها بتواضعه الجم المحبـب إلى النفس: «أنا أشعر أنني فاشـل في الحياة لأنني لم أفلح في تعلم الرقص». لكن حديثـه صار يأخذ بمجامع قلبها. لقد أسرها في حديثه عن موسيقى الهاربسيكورد. لا أحد في الدنيا استطاع أن يذهلها في الحديث عن روح الدعابة والنكتة في موسيقى الهاربسيكورد، وعن نفـوره من ضربات الدربكة الوقحة. وروى للحضور عن وقع أصوات «الدنبـك» المبحـوح على سمعه عندمـا كان ما يزال صغـيراً. وكانت تأنس لأبيات الشعر القديمة التي كان يلقيها على مسمعها.

مع أن هيثـم سيكون ألمع شخصية في هذه الرواية، إلا أن الرواية هي روايـة تمارا. وستظهـر شخصيات روائية أخرى لهـا وزنها، لكن هيثم وتمارا سيبقيان محور الرواية. هيثم يرمز إلى سلطان الفكر، أما تمارا فترمز إلى سلطـان الجسد. وأنا لم أرد هنا أن أوزع الأدوار بين الرجل والمرأة.

ففي روايتي (فتاة من طراز خاص) كرست للمرأة (شهرزاد) دوراً فكرياً، هو النبوغ في الفيزياء.

سأعترف بأن فلسفتي في رواية (فرس البراري)، ومكملتها (الفرس الزرقاء) كانت معقدة تجاه البطلة، ولا تُستوعب بسهولة. أنا مأخوذ بشخصية المسيح وفلسفته. سواء كانت حقيقية أم مختلقة. وقد ناقشت هذه الفكرة في الجزء الثاني من الرواية. كانت فلسفة المسيح تشغل بالي منذ كتابة روايتي (فتاة من طراز خاص)، حيث جعلت البطلة شهرزاد ترتبط بهوارد لأن فيه مواصفات مسيح. هذا لأن شخصية المسيح مهيمنة عليّ. أنا رجل ذو نزعات يسوعية بصرف النظر عن أفكاري المتحررة. وعندما بدأت أكتب (فرس البراري)، كان في ذهني أن أكتب عن امرأة فيها شيء من الأثنيين اللتين ارتبطت حياتهما بالمسيح، أعني بهما مريم المجدلية؛ ومريم بنت عنيا. وهاتان الحواريتان، من حواريي المسيح، كانتا أحب الحواريين إلى المسيح، مع أنهما كانتا بغيين. وهذا الموضوع شغل بالي كثيراً. أحب الحواريين إلى المسيح كانتا بغيين.

وأنا لم يرد في بالي أول الأمر أن أجعل تمارا تمارس البغاء إلا فيما بعد، بعد منتصف الرواية. وذلك عندما جاءت في بالي شخصيتا البغيين في قصتهما مع المسيح (إحداهما هي التي أنزلت جثته من الصليب بعد الصلب). وكانت تمارا تدور في فلك هيثم بغدادي، ذي المؤهلات الثقافية العالية، والنزعات الدنيوية. ثم تثور عليه لفقره، وتتركه لتلتحق بأمها في أميركا، وتقع في سحر أندرو كلارك، صديق إيان زوج أختها، وكلاهما مختصان في الفلسفة. لكن أندرو كلارك كان نسخة أخرى من المسيح، مثل هوارد بطل رواية (فتاة من طراز خاص). ولم أجد ما

يدعوني إلى التردد في جعل تمارا تمارس البغاء، لكأنها كانت في إطار فلسفتي بمثابة مريم المجدلية، بالرغم من كل دنيوية الرواية.

أنا أعلم أن شخصية تمارا مروان القيسي ستبقى ملغزة أمام القرّاء. لماذا مارست البغاء وهي لم تكن مقسرة على ذلك؟ سيؤسفني أن القرّاء لن يدركوا فلسفتي في كوني اعتبرت تمارا شخصية من «جالية» المسيح، بعد ارتباطها مع أندرو، الذي كان يدعى مسيحاً ثانياً. تمارا كانت دنيوية إلى أقصى حد، وتعتز كثيراً بجمالها وجسدها، لكنها آثرت الانتماء إلى أندرو بعد هجران صديقها هيثم الذي لا يضاهيه أحد في غزارة معارفه وثقافته، لأن أندرو يحقق لها انتماءً روحياً غامضاً في مواصفاته اليسوعية. وأنا تعاملت مع تمارا كمريم مجدلية أخرى، بل وأكثر سحراً من المجدلية، وأكثر دنيوية. هنا كنت أريد أن أتعامل مع نزق الجسد، وتألقه الذي يرقى إلى مصاف القدسية. وهذا اتخذ تعبيره في فن الرقص (الشرقي)، الذي تألقت فيه تمارا، وتمردت عليه. لقد أصبحت تمارا قديسة الرقص الشرقي بعد أن تمردت عليه وطورته وشذبته من ابتذالاته. لكن ما أحزنها هو أنها لم تستطع فرض سطوة هذا الرقص على مسيحها المتعالي على الرقص. كانت ترقص للآخرين، فالرقص وجد للرجال، لكن أحب انسان إليها خذلها بعزوفه عن الرقص. لكن تمارا لم تستسلم. إنها تعلم أنها أتقنت فناً لا يدانيها فيه احد في تقنياته العالية. ولسوف تؤدي عرضاً في مسرح البولشوي لن يستطيع حبيبها أندرو كلارك، المتعالي، ان يتغيب عنه.

وكنت أريد لتمارا أن لا يقف في وجهها شيء، كأن تطوع أكبر بليونير في أميركا. وقد طوعته، لكنه لم يتخل عن شروطه وإملاءاته،

كأن يفرض عليها أن لا ترقص لأحد غيره. وهو كان صاحب سطوة هائلة ونزوات. من بين نزواته أنه كان يطلب منها أن ترقص على أنغام موسيقى الأورغن. وكان هذا يلبي أهواءها.

لكن مراجعات روايتي، وهي بعد مخطوطة، احتججن على الحرية المطلقة التي منحتها لتمارا، إلى حدّ استهانتها بولائها المطلق لمسيحها اندرو، فوضعتُ حداً لاندفاعتها، وكبحت علاقتها بالبليونير (جورج هاملتون)، وجعلتها تتخذ قراراً بتجميد علاقتها العاطفية مع الرجال، بمن فيهم أندرو، الذي أسمعها كلاماً بأنها متحررة أكثر مما ينبغي. وهذا أحزن ابنتي زينب، أعني قرار تمارا بمقاطعة الحياة، مع أنها كانت من بين من حاسبها على حريتها المطلقة. كانت هذه نهاية غير مريحة بالنسبة للقارئ وللرواية. لكنني اعتمدتها لكي أضع حداً لجموح البطلة تمارا، مع أن ذلك جاء ضد رغبتي.

وأنا أقول ذلك مرة أخرى لأحيط بعض النقاد علماً بأنني لم أجرب كتابة الرواية لكي يقال عني أنني مارست كتابة الرواية أيضاً، باعتبارها حلم كل كاتب. لقد ذكرت في مستهل هذه المذكرات أن الرواية كانت هاجسي الأول عندما بدأت أفكر في الكتابة. فأنا الآن إنما أحقق حلمي الأول وكأنه إحساس بأداء الواجب. فأنا كنت أكتب المواضيع غير الإبداعية بحب لا يقل عن رغبتي في كتابة الرواية. الفرق الوحيد هنا، مع الرواية، هو انك تنشئ علاقات مع أبطال الرواية التي تكتبها. وحتى هذه العلاقات قد لا تقل حميمية عن الأشياء غير الإبداعية التي تكتب عنها. وقد أشرت إلى علاقتي الحميمية التي نشأت بيني وبين الأشجار التي كتبت عنها.

لكنني أعترف الآن بأن علاقتي مع أبطال رواياتي أصبحت شيئاً لا

ينفصل عن حياتي. وسأقتصر في الحديث عن البطلة الرئيسية تمارا في رواية (فرس البراري)، وتعاملي معها. هي وجدت في شخص هيثم بغدادي رجل أحلامها. لكن «الشيطان» هنا وسوس في أذني، فرأيت أن أعرّض العلاقة بينها وبين صديقها إلى الامتحان، لأخلق أجواء تعكر، أو تبلبل، أو تفسد هذه العلاقة حيناً من الزمن، وقد تكون فاتحة لانقلاب جوهري في سيرة حياة البطلة، ينحرف بمسار الرواية ربما بنسبة مئة وثمانين درجة. فأنا هنا دخل في روعي أن أجعل من البطلة نسخة مشابهة لشخصية مريم المجدلية.

أنا لم أحاسب نفسي كثيراً على جنوح تمارا، لأنني أردتها أن تكون مثل مريم المجدلية. هي حاسبت نفسها كثيراً، و لم تتساهل مع «زلتها». ولأجل أن يُرد إليها الاعتبار كتبت الجزء الآخر المكمل لفرس البراري، وأطلقت عليه اسم الفرس الزرقاء. هنا أردت أن أجعل منها بطلة روائية متألقة. وهذا من خلال جسدها بالذات. لم تكن هي في حاجة إلى أن تبرع أو تنبغ في شيء ذهني. جسدها كان قميناً بأن يحقق لها تألقاً لا مثيل له، من خلال الرقص. وكانت أبرع راقصة في العالم، هي شريكة حياة المسيح الثاني. فأية مفارقة جميلة هذه. لكن هل سيفطن النقد أو النقاد إلى ذلك؟

الشخصان المهمان في حياة تمارا، وفي الرواية، هما هيثم، وأندرو. وهما على طرفي نقيض في طباعهما. الأول كان انبساطياً، extrovert، والثاني كان انطوائياً، introvert. وكان لكل منهما تأثير مهم عليها. لكنها عشقت الثاني أكثر بكثير من الأول. فما هو سر هذا الانجذاب نحوه؟ أذلك لأن تمارا كانت مأخوذة بيسوعية أندرو؟ حاجة الجانحة إلى التسامح؟ مع ذلك لم يكن أندرو شديد التسامح. ثم أنه لم يقدّر

براعتها في الرقص. فلماذا كان أندرو معبودها؟ ولماذا تعلق هو بها أكثر من غيرها من النساء؟ والأكثر مدعاة إلى التساؤل، لماذا سحرته من اللقاء الأول مـع أنها لم تخفِ نزوعها إلى الجنوح؟ ولماذا بقي ينتظرها شهوراً وهو يعلـم أنها كانت منتمية إلى عالم اللذة، عـالم الرجال؟..... ولماذا أحب المسيح مريم المجدلية أكثر من بقية الحواريين؟

ثـم ألا يترتب على ذلك أن نحب مـريم المجدلية، وأن لا يكون لدينا موقـف سلبي مـن البغاء، لأن مريم المجدلية كانت بغيـاً. فما هو البغاء؟ إننـي أناقش هنـا موضوعاً محرجاً تماماً. المرأة التـي كان المسيح يفضلها على كل حوارييه كانت بغياً. ما هو البغاء، إذن؟

ولأتوقـف عنـد الرواية، أعني فرس البراري. هـل تساهلت أنا مع جنوح تمارا، لأنهـا ستلتقي بشخص فيه مواصفـات المسيح، أي أنه لا يحمـل موقفاً سلبياً من البغاء؟ وهـل سيبقى موقفي متساهلاً مع جنوح تمـارا لو لم يكن لأندرو حضور في الرواية؟ وهل كان حضور أندرو في الروايـة شيئاً أساسياً؟ ماذا لو لم يكن له حضـور في الرواية؟ هل كانت تمـارا ستلجـأ إلى غيره، إلى هيثم مثـلاً، عندما تقرر الكـف عن ممارسة البغـاء؟ وفي هذه الحال هـل كان وجود أندرو نافلاً؟ بل هل كنت أفكر في وجود شخص متسامح مع البغاء عندما دفعت تمارا إلى ممارسة البغاء؟ هذا السؤال قد يفسد المعادلة بين إقدام تمارا على ممارسة البغاء، ووجود «مسيح» يتسامح معها، فيقدم تبريراً لممارستها. وهذا يجعلني أشعر بأن وجود أنـدرو في الرواية كان ضرورياً، ولن تكـون هناك أهمية للبديل عن أندرو، مثل هيثم، لأن هذا البديل ليس مسيحياً، أو «مسيحاً».

أنـا هنـا أنقل مركـز الثقـل في الرواية من هيثـم العلاّمـة إلى أندرو «المسيح». لكن تمارا تبقى لؤلؤة الرواية. وهي على أية حال كل الرواية،

بالرغم من أن الرواية ستشكو من فراغ هائل بغياب هيثم وأندرو. ومع أن الرواية هي كل شخصياتها، بمن فيهم ابسط الأشخاص الثانويين، إلا أن (فرس البراري) هي تمارا، وهيثم، وأندرو. وأنا انتقلت منذ منتصف الرواية مـن هيثم إلى أندرو، لأن أندرو سيكون لاعباً رئيسياً في مغامرة تمارا في ممارسة عمل الليل.

إنني أسائل نفسي هل كان مشـوار الجنوح، أعني ممارسة عمل الليل ضرورياً؟ وأجيب نفسي أنه لم يكن ضرورياً بأي شكل من الأشكال. لذلـك أنـا نادم عليـه. وأما وقد سبـق السيف العذل، كمـا يقال، فقد وجدت في شخصية أندرو، ذي المواصفات المسيحية ذريعة لي في تقبل جنـوح تمارا. إن وجوده في الرواية كشخصية يسوعية، يمكن أن يجعلنا نماهـي تمارا بشخصية مـريم المجدلية. وأنا، في واقع الحـال، منبهر أمام وجود بغيـين في سيرة حياة المسيح. ومن اللافـت أن الكنيسة اعترفت بتفوق مريم المجدلية على بقية حواريي المسيح. وأنا أود أن أشير إلى قول أنـدرو لتمارا في حضور الآخرين: «لكن هـل تعلمين لماذا تعلقت بك عندما جنحت؟ كنـت عندي مريم المجدلية. وهذا يقدم تفسيراً لغرامي بجنوحك. تعلمين أنني كنت أعتبرك قديسة».

هـذا يجعلني أشعـر أن جنوح تمارا كأنه كان مـبرِّراً لوجود شخصية يسوعية مثل أندرو.

روايـة (فرس البراري) حافلـة بالأبطال، وفي المقدمـة منهم، هيثم، الشخصيـة المتألقة في الرواية. ثم يأتي أنـدرو كشخصية لامعة أخرى. لكـن أندرو لا يتفوق على هيثم في مؤهلاتـه. شيء واحد جعله متفوقاً علـى هيثم، في عيني تمارا، وحسب قناعاتنا نحـن أيضاً، هو يسوعيته. وانتماء تمارا إليه فور قطيعتها مع عالم الليل، كان لمسح زلّة الجنوح، ورداً

للاعتبـار لهـا. فأندرو هو شخصية محوريـة أو مركزية في الرواية. لكن وجـوده لم تكن له ضرورة لولا جنوح تمـارا. وهذا لا يقلل من أهميته. فقد أصبح أنـدرو أوكسجيناً بالنسبة لحياة تمارا. صحيح أن لجوءها إليه بعد ممارسـة عمل الليل، وهي تبكي بلا توقف، كان مشهداً ميلودرامياً أكـثر ممـا ينبغي. لكن هـذا يؤكد أن أنـدرو كان هو الأمـل الوحيد لها لاستعادة حياتها الطبيعية، وذلك بفضل الفلسفة التي يؤمن بها.

أنا هنا كنت أريد أن أناقش مسألة البغاء. وقد فرضته في الرواية على تمـارا بصورة مقحمـة، وغير متوقعة أو مبررة. لكننـي أردت أن أناقش الموضـوع رغم إساءتي إلى تمارا المسكينـة، أو الرائعة لتحملها إملاءاتي عليهـا. ما هو البغاء؟ ولماذا كان مقدساً يوماً مـا؟ أنا لا أستطيع أن أقدم موقفاً واضحـاً أو محدداً منه. وكيف تعاملت معه الأديان؟ في المسيحية هناك تسامح تـام معه. وحتى اليهودية أظن أنها ليست متشنجة تجاهه. وفي القـرآن هناك آيـة تتعامل مع البغـاء بتسامح أيضـاً لكن في الإطار الـذي يمارس فيه. جاء في القرآن: ﴿وَلَا تُكْرِهُـوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًـا (اي الزواج) لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِـن بَعْـدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُـورٌ رَّحِيمٌ﴾. هذا موقـف متسامح حتى بعد ممارستهـن البغاء. لكـن ماذا عن النسـاء اللواتي يمارسـن البغاء من غير إكـراه؟ لا ذكر هنا في القـرآن إلى مثل هذه الحـالات. لكنني أعتقد أن الإسـلام يتسامح مـع التي «يُقسرها» وضعها المالي علـى تعاطي البغاء. لكـن ماذا عن اللواتي يمارسنه بدون إكراه أيّاً كان شكله، مثل تمارا؟ هل فرضت أنا على تمارا شيئاً خارج إطار القيم؟ هل كانـت حالتها تعجيزية أمـام القيم الاجتماعيـة والدينية؟.... أنا حاولـت أن أناقش حتى هذه الحالـة من تعاطي البغاء بصورة طوعية لا إكراه فيها. وأدخلت في روع

تمارا أن تنخرط في سلك الرهبنة لتجد فيه غفراناً لـ «زلتها». فماذا كان موقف رئيسة الدير من زلتها؟ قالت لها: لا موجب أبداً لهذه الحساسية من زلتها، ولا داعي لانخراطها في سلك الرهبنة. ثم إنها إذا دخلت السلك، فستلتمس كل الراهبات منها أن تعلمهن الرقص الشرقي!

لكن ابنتي زينب عقبت قائلة: «أنا أحسست أن موقف مديرة الدير يعكس رأي البطلة ليس إلا. أو ربما أمانيها. نعم، أعلم أن المسيحية الحقة رأسمالها التسامح، لكن أن تعتبر بائعة الهوى قديسة، لم أستطع فهمه. إدخالها الفرح والسعادة في حياة من عاشرها؟ هناك تناقض، لأن هذه لم تك غايتها في الأساس حسب اعتراف البطلة، كان هدفها المال والمتعة والشعور بالحرية التي لم تك تفتقدها بالأساس....؟

ولعل من المفيد أن أنقل بعد ذلك، أو قبل ذلك، الحوار الذي دار بين رئيسة الدير وتمارا:

قالت لي الأخت مريم: – لنبدأ بطلبك. أنت تريدين الانتماء إلى سلكنا، هل لي أن أسألك لماذا يا ابنتي؟

قلت لها: – أنت قرأت اعترافاتي، يا سيدتي، وأنا أريد أن أكفّر عن خطاياي مع الرجال.

– أية خطايا، يا طفلتي؟ تلك لم تكن خطايا، هل تعلمين؟

– فما هي، يا أخت؟

قالت لذهولي: – أنت كنت يوتوبيا بالنسبة للرجال، يوتوبيا، وأنت كنت تعلمين بذلك، ففيم عذاب الضمير؟

– لكنني كنت أستلم مالاً من الرجال، يا أخت.

– مـال، ما عيب ذلك؟ البابـا كان يستلم مالاً لقاء صكوك الغفران، وهي قبض ربح. أما أنت فاستلمت مالاً لقاء اللذة التي قدمتها للرجال.

قلت للأخت مريم: – ما هي اللذة، يا أخت؟

قالـت: – تسألينني عـن اللذة، وأنت كلـك لذة. أنـت من أجمل اللوحـات الفنيـة في الوجـود. إن النظـر إليـك سعـادة، فكيف لو تم امتلاكك؟

– لكنك تتحدثين عن الامتلاك، يا أخت.

– نعـم، الامتـلاك هـو يوتوبيا. وأنـت كنت توزعـين سحرك على الرجال، لقاء مال طبعاً، وإلا ماذا سيكون ثمن سحرك؟

– فأنا لم أكن مخطئة، يا سيدتي؟

– لا تكـوني بلهاء، يا ابنتي، أنت كنت يوتوبيا. عودي إلى مسيحك أنـدرو كلارك، فأنت لست في حاجة إلى أن تـزفي إلى المسيح الأكبر. هو ليس في حاجة إليك.

أنـا لا أريـد أن أتوقف أكثر عند هذه الروايـة. لكنني أود أن أقول إن تمارا كان لديها المزيد مما يمكن أن تقدمه لنا كبطلة روائية. فهي أصبحت أعظم راقصة في الفن الشرقـي المشذب؛ كما بات في وسعها أن تمارس فـن الكتابة بعـد أن أبدعت في كتابة مذكراتها. فرأيـت أن أكتب عنها جزءاً آخر مكملاً لفرس البراري. وقد تم إنجاز هذا الكتاب تحت عنوان (الفرسـ الزرقاء)، الـذي تألقت فيه تمـارا، كما تألق فيه أنـدرو أيضاً،

وآخرون، بمن فيهم رئيسة الدير الأخت مريم، التي توثقت العلاقة بين تمارا وبينها.

كنت أود أن اتوقف هنا في مذكراتي المبتسرة هذه. لكنني لا أريد أن أكون معتزلاً أو اعتزالياً بالمرة عن حياتنا، مع أن لي عذري في اعتزالي. فأنا كنت وما أزال متشائماً جداً في ما يخص السياسة في عالمنا العربي. وما يجري فيه الآن يزيدني، ويزيدنا، تشاؤماً. نحن لم يكتب لنا أن نتقدم. العالم العربي ليس مسموحاً له، وليس متاحاً له أن يتقدم. وعندما لاحت بوادر تململ هنا وهناك في عالمنا العربي، قلت: لا بدّ إن وراء الأكمة ما وراءها. هذا التململ يبدو مشبوهاً. واختاروا لهذا التململ عنواناً زاهياً: الربيع العربي.

أخبرني أحد اقربائي من المقيمين في ألمانيا أن ربيع تونس كانت وراءه ألمانيا. وطلبت منه أن يزودني بالمصدر، لكنه لم يصلني. وهذا بات جزءاً من السلوك العربي. وتعلمون إلى أين أفضى الربيع العربي بمصر، وبليبيا. وقد أحزنني أن معظم المثقفين في مصر خدعوا بلعبة الربيع العربي. وأحزنني أكثر أن العناصر الديمقراطية في مصر أسهمت في وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم، بذريعة أن لا يعود أنصار مبارك.... وكانت ثالثة الأثافي بزرع داعش في العراق وسوريا وتمددها إلى بقية البلدان العربية. أحد أبطال روايتي (الفرس الزرقاء) المعدة للطبع يتساءل: «ماذا يجري في العالم العربي. أمن الممكن أن يتحرك التأريخ إلى الوراء؟»

أنا الآن أشعر في حالة شديدة من الإجهاد، ولا أعتقد أنني أستطيع أن أواصل الكتابة بعد ذلك. وأنا لم أكن أفكر في في كتابة شيء بعد رواية (الفرس الزرقاء)، لكن الصديق الفنان فيصل لعيبي التمس مني أن

أكتب بضع صفحات عـن سيرة حياتي، لأنه مزمع على كتابة شيء عن رواياتـي. فرأيت أن أرسل نسخة منها إلى الصديق فخري كريم. وحال وصول بريدي الإلكتروني، أجاب الصديق فخري بالرسالة الآتية:

«عزيزي علي

سيرة قراءتها ممتعة، مع أنها لا ترسم ملامح ذلك الزمن الذي طاردت فيـه أحلامك بإصرار، وكتبت رغم كل شـيء الرواية التي تحب، سوى أنهـا توزعت في دزينة مـن الروايات التي كتبت، وتلك التي ظلت طي المستور في الأعماق البعيدة.!

ألا ترى أن الكاتب العبقري، أو حتى مشروع الكاتب المُجيد يقول في نهاية المطـاف: إن الرواية الأجمل عصية على الكتابة، لأنها سرعان ما تتبدد بين محيط الحروف حين تنبعث من مكامنها في النفس الإنسانية المحبطـة، بسبب فشل عرضـي لقصة حبٍّ لم تكتمل فصولها في السر، أو أُجهضت لتعرضها لعملية اغتصاب بإماطة اللثام عنها قبل الأوان.

واضـحٌ أنـك كتبـت، تحت هاجـس العجالـة، وليس تحـت ضغط العجالـة....، وبـودي أن لا تسمح لمثل هذه الضغـوط أن تستلك من حالة الإلهام.

قد تكتب بضعة سطور أخيرة فتكون هي الكتابة المكتملة.....

لا أدري إذا كنـت مصيبـاً، فهذه هي المرة الأولى التـي أقرأ فيها، في وقفة إنسانية ذكرى رفـاق لم يخلوا بحياتهم لكي نظل نعيش ونفعل، وربمـا لأنهم أعتقدوا بأنهم سيخلدون باستمراريتنا. هل «هي ما يُشبه» عودة الروح....؟

في هـذه الساعة المتأخرة قرأت سيرتـك المُستقطعة، وأغرتني بكتابة هذه السطور التي أخشى أن تدخل في باب الادعاء....

نم وأنت علي الشوك، دون حاجة لمزيدٍ أو خشية إنكار».

لم أتلـقَّ الرسالة بارتيـاح أول الأمر. ثم لما أعدت قراءتها، فكرت في أن أكتب سيرة حياة أطول. وكانت هذه السيرة التي بين يدي القرّاء.

لكـن هل ستكون مثـار نقاش، أو ربما تساؤل واستنـكار؟ أنا كتبتها بـكل تلقائية وصدق، على أيـة حال. وقد كتبتهـا للصديق فخري في المقـام الأول. وقد اختصرت الأسمـاء بحروفها الأولى أول الأمر، لكنه بعـد الاطلاع على الصفحات الأولى التي كنـت أدفع بها إليه، رأى أن تكـون الأسمـاء على حقيقتهـا. فاستجبت له، باستثنـاء بعض الأسماء لأسباب خاصة.

لكـن هذه السيرة ستكون مهـداة إلى كل من يهمـه أن يقرأ لي. وأنا أعتـذر لأن هذه الصفحات جـاءت معتصرة جـداً، لأن الكتابة لم تعد تسلس لي القياد بعد تعب العمر وضمور الذاكرة.

ويتعـين عليّ أن أؤكـد أخيراً أن هـذا الكتاب لم يظهـر إلى الوجود بـدون مساعـدة ابنتي زينب، وقريبتـي اكرام الشـوك، والصديق محيي الصميدعـي، والصديق أحمد أصفهـاني وفي المقام الأول بدون مبادرة الصديق فخري كريم.

أنا الآن لم أعد أجد لذة في القراءة. وهذه الظاهرة بدأت تلازمني مع احساسي بالانطفاء. و لم أكن أتصور أن الانطفاء سيطال القراءة أيضاً. أنا منطفٍ الآن، لأسباب بايولوجية. وهذا شيء بات يورث عندي أفدح أنواع الكآبة. فأنا أريد أن أكتب حتى النفس الأخير. أريد أن أكتب موضوعاً عن فن القراءة؛ وموضوعاً آخر عن مريم المجدلية والمسيح. لكن الشعلة أو الجذوة منطفئة. وهذا شيء غير عادل بالمرة. شيء ظالم بكل معنى الكلمة، أن لاتستجيب إليّ طاقاتي في الكتابة. وفي أفضل الاحوال، تستجيب الآن بكل تقتير وشح، مع أنني قبل ذلك، ليس بزمن بعيد، كنت أكتب عشر صفحات في اليوم، وأحياناً أكثر. كان ذلك في عام ٢٠١٢، وحتى بعده، عندما كنت اكتب رواية (فرس البراري). فكتبت رواية أخرى بنفس النفس. ثم على حين فجأة جاء الانطفاء. فوجئت بأن الأشياء الهائلة مما تحفظه ذاكرتي النجيبة تبخرت على حين فجأة. فكيف سيتسنى لي أن اكتب، أريد أن أكتب عن اهم امرأة في الدنيا، وأنا لا أدري كيف كنت غافلاً عنها قبل الآن. كنت في السنوات الأخيرة معجباً جداً بشخصية المسيح، إلى حد أنه هيمن على تفكيري واهتماماتي الروائية. فخلقت بطلاً روائياً يذكر بالمسيح في كتاباتي الروائية الأخيرة... ثم اكتشفت في سياق هذه الكتابات أن هناك امرأة كان لها دور هائل في حياة المسيح، وفي نشوء المسيحية. فلماذا كانت غائبة عن ذهني وأنا ملتصق بالمرأة في كل كتاباتي؟ فلأجند نفسي للكتابة عنها. ولأقرأ كل شيء عنها، كل شيء إن أمكن... لكن هذا غير ممكن، فهناك عنها مكتبة كاملة. مع ذلك، لأقرأ ما أقدر على قراءته.

آه، إنني لم أعد أستطيع أن ألتقط ما أقرأه. لم تعد هنا شاشة في رأسي

تسجل ما أقرأه. وحاولت الشروع بالكتابة عن الموضوع. لكنني صرت أكتب وأمزق أكثر من مليون مرة. إنه الانطفاء. وهذا ألعن من الموت.

أيتهـا الأفكار لا تخذلينـي، ويا صفاء الذهن هلـم إليّ ولو بجزء من طاقاتك.

آه، لا جـدوى. بعـد أشهر من المحاولات كتبـت خمس صفحات فقط عن مـريم المجدلية. المهم أنني كففت عن لعنـة التمزيق. ولأعطي نفسـي اجازة، وأترك الكتابة الآن، ربمـا لأعود إليها بعد أن أجد حافزاً من جديد.

في غضـون ذلك اتصل بي الصديق فخري كريم، وبدأ كلامه غامزاً: «هـل أرسلـت مذكراتـك إلى أكثر مـن عشريـن شخصـاً؟، أمطروني بملاحظاتهم الجارحة».

«لماذا».

«أنت تكتب بلا مراعاة للاعتبارات والحساسايات».

«لكنني أكتب مذكرات».

قـال: «اتصل بي فلان، وفلان، وفلانة، وأخبروني بأنهم في صدد أن يطلبوا منـي إيقاف نشر المخطوطة... تعلم، حول مـا كتبته عن الرفيق (.....)..؟

قلت: «أنا نقلت ما ذكره لي الرفيق (...). عنه، وكنا في نفس القاعة التي نقـل إليها الرفيق (.....). وأنا كنت أشغـل مقعده بعد غيابه، إلى جوار الرفيق (...)..

«اسمع، قال الصديق فخري: إن ما نقلته عنه قد يعرضك ويعرض الرفيق (...). إلى مساءلات لا موجب لها. اترك الأمر لي».

ثم تلقيت نداء آخر من الصديق فخري يؤكد فيه أن الرفيق (...). قد اعترض على إثارة هذا الموضوع، وهو يرفض الإشارة إلى اسمه، ويرى أن أنسى الموضوع بالمرة».

عند ذاك اتفقت أنا والصديق فخري على حذف المقطع أو المقاطع التي يمكن ان تثير حساسية، ورأيت أيضاً أن أحذف اسم الرفيق (...).، الذي كان في الصيغة الأولى مذكوراً. وإنتهى الإشكال، أو ما أدراني.

وهو على أية حال، لم ينته بالنسبة لي. فقد أثار عندي موضوع فن القراءة، أو فلسفتها، إن كانت للقراءة فلسفة. ولهذا الموضوع سابقة حدثت لي مع روايتي (السراب الأحمر). وهي تتعلق أيضاً بطريقة القراءة، والخلفية الثقافية للقارئ.

هناك فلسفة امريكية تقول: «الحق دائماً مع الزبون». فهل ينسحب هذا على القارئ؟ صحيح أن القارئ هنا مثل الزبون، لأنه هو الذي يبت برأيه في النص الذي يقرؤه. لكن هل القارئ مصون غير مسؤول عن النص الذي يقرؤه، مثل الملك العراقي، حسب الدستور؟ أنا اقول لا، إن القارئ ليس مصوناً في أحكامه على ما يقرأ. فالكاتب له حق أيضاً، وحقه مقدس. وفي كل الأحوال إن القارئ لا يحق له أن يتعالى على الكاتب، بل العكس هو الصحيح. الكاتب صاحب إنجاز. أما القارئ فليس أكثر من مستهلك.

حين صدرت رواية (السراب الأحمر)، أقام الصديق فؤاد التكرلي لي دعوة عائلية مشتركة، احتفالاً بالرواية. كنا يومذاك في عمّان. وكما

ذكـرت، أعرب عن إعجابه بشخصية البطلة داليـا، التي «أحبها» لأنها شخصيـة متميـزة في رهافتها، وتخلـق في الرواية جواً محببـاً إلى النفس بأنوثتها المرهفة جداً. والحق أن شخصية داليا كانت أو أصبحت محورية في هذه الرواية. وفي رأيي أنها أسهمت في «تألق» الرواية.

هـذا في حين أنني علمت أن عدداً مـن قرائنا «التقدميين» أعرب عن امتعاضه من مشهد الحـب الذي دار بين البطل وبين هذه البطلة الفاتنة، لأنـه جرى في غرفتـه المجاورة لغرفة أمـه، التي كانت نائمـة (على أية حـال). وكان هذا، ربما إلى جانب حديث صريح عن الجنس (طبعاً بغير إثارة)، هو سبب امتعاض أصدقائي القراء «التقدميين» من الرواية، بكل هذه الاختزالية التي ألغت كل مزاياها الأخرى.

هذه وأحكام تعسفية واختزالية أخرى جعلتني أبتئس من طريقة تلقي بعضـ القراء النص الروائي والتعامل معه. وحركت عندي فكرة الكتابة عن فن القراءة.

أنا، كقارئ، لم أعجب بمشهد وصول البطل جوليان سوريل إلى غرفة حبيبته ماتيلد بواسطة استعمال السلم المحمول والدخول إلى غرفتها من النافذة المطلة على الحديقة. لم يكن اعتراضي على قيامه بعمل الحب مع حبيبته التي كانت غرفتها لصق غرفة أمها. بل على طريقة الوصول إليها «البهلوانيـة» التي كثيراً ما يلجأ إليها كتاب الروايـات الغرامية السابقة للقرن التاسع عشـر. لكن هذا الاعتراض لم يمنعني من الإعجاب الكبير بالروايـة ككل. هل ذكرت أنني أتحدث عن روايـة (الأحمر والأسود) لستندال؟

وسأشـير هنا إلى قراءتـي لهذه الرواية، وقراءة ستيفـان زفايغ لها. أنا

أعترف بأن قراءتي هذه الرواية تختلف عن قراءة ستيفان زفايغ. فأنا لم أقرأ بارتياح الفصل الذي يتحدث فيه الكاتب عن اقتحام جوليان غرفة ماتيلد عبر نافذتها بواسطة السلم المحمول. كان هذا الفصل بطولياً، ويرفع من مقام البطل جوليان سوريل في عين ماتيلد المترفعة على كل طالبي ودها، باستثناء جوليان، الذي عاملها بلا إبالية. لكن ثم ماذا. إنه مشهد تقليدي ليس إلا، لا يخرج عن نمط المكرور في عالم الرواية. أما أنا، فإن الشخصية التي حظيت بإعجابي الهائل، هي ماتيلد في تألق شخصيتها الرومانسية التي فاقت جميع الشخصيات الروائية. وفي رأيي أن ستندال لم يتألق في فصل اقتحامه غرفة ماتيلد، بقدر تألقه في الفصل الذي تحدث فيه عن «جنون» ماتيلد، أو غرابة أطوارها، التي فاقت فيها في رومانسيتها كل البطلات الروائية. وهو الفصل الذي جاء تحت عنوان «الملكة مارغريت». ويبدأ بدهشة جوليان عندما إلتحق بصالة العشاء، ووجد ماتيلد وحدها، دون بقية أفراد أسرتها، مرتدية بدلة حداد سوداء. هذا المشهد زاد في حيرة جوليان تجاه تصرف ماتيلد. وقرر أن يسأل الكونت الإسباني التاميرا عن سرّ هذا السلوك. وعندما سأله جوليان، قال التاميرا: «ماذا! أنت واحد من نزلاء هذا القصر، ولست تعرف عن تصرفها الجنوني هذا؟»

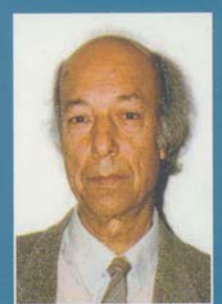
ويخبره بأنه كان يشهد هذا التصرف في ٣٠ نيسان من كل عام منذ ثماني سنوات، أي مذ كانت ماتيلد في الثانية عشرة من عمرها. ففي الثلاثين من نيسان من عام ١٥٧٤ تم قطع رأس قريبها الأقدم بونيفاس دي لامول، أكثر شبيبة زمانه وسامة بعد فشل محاولة سياسية. وكان هو موضع تولة الملكة مارغريت من نافاره. ثم قال الكونت لجوليان: «وتذكر أن المدموازيل ماتيلد دي لامول تسمى أيضاً ماتيلد مارغريت».

ثم قال الكونت التاميرا لجوليان سوريل المندهش: «أن ما أثار إعجاب ماتيلد من هـذه الكارثة السياسية القديمة هو أن الملكة مارغريت، ملكة نافارا، اختبأت في منزل قريـب من موضع الاعدام، لتطلب من الجلاد رأس حبيبهـا. وفي الليلة التاليـة، حملت الرأس في عربتها، وذهبت لتدفنه بيديها في كنيسة في مونتمارتر».

أنـا أعجبت بستندال بصفة خاصة لاجتراحه هذه الشخصية الروائية التي لا تضاهيها بطلة أخـرى في سلوكها الرومانسي. وقد تطرقت إلى ذلك كمثل على مزاجية القراءة.

هذه قراءات منزهة عن الغرض، لكن هناك قراءات تستبطن أغراضاً، أو تنطوي على مواقف مسبقة. وأنا أشير مرة أخرى إلى قراءات بعضهم لرواياتـي. بعض هؤلاء القراء يملكون ذهنيات أيديولوجية متحجرة، أو يتمتعون بثقافة متخلفة. وينطلقون من هذه الخلفيات في أحكامهم على مـا يقرأون. وهذا شـيء مؤسف. والعيب هنا كما قلـت، أنهم ينسون أنهم ليسوا أكبر من النص... لكنني أعلم أيضاً أن معظم القراء يتعاملون مـع النص بحب واحترام... وسيسعدني أن أشير إلى قراءة الراحل كامل شيـاع لرواية (الأوبـرا والكلب) ؛ وإلى قراءة الصديـق زهير الجزائري لرواياتي. فهـو يقرؤها بحب وارتياح، لكنه لاينسـى، أيضاً أن نزعتي كمثقف تطغى أحياناً على نزعتي كروائي. وهذا نقد نزيه.

# الفهرست



توهّجتْ ثقافةُ علي الشوكِ في زمن الصعودِ والانتصارات التي شهِدتها البشريّةُ بعدَ الحرب العالميّة الثانيةِ والانتصارِ على الفاشيّة والنازية، وتركت بصماتها في كلّ ميدانٍ من ميادين العلوم والثقافة والمعرفة بتنوّعها وتعدُّدِ حقولها وتطبيقاتها ومنجزاتها في المجتمع والطبيعةِ وسبرِ أغوار الأكوانِ البعيدة.

كانَ علماً، يتوهّجُ بثقافة، تتميّزُ بالتنوّعِ والغنى المعرفيّ والثقافيّ، والتعدُّدِ في الاهتمام باتجاهاتها الفكريّةِ ومدارسها الفنيّة، غيرَ هيّابٍ في تطويعها والتفاعلِ معها وهو يكتب ويؤلّفُ ليبتكرَ لنفسه أُسلوباً يُميّزه، وينحتُ مسلّةً جماليّةً قوامُها السردُ والموسيقى ونقدُ النقد، متّكئاً على معرفةٍ بالعلوم والرياضياتِ ملتقطاً شذراتٍ من كلّ ميدانٍ من ميادينها متماهياً في بحورها وتجلّياتِها.

يقول علي الشوك، كلّما أرادَ أن يتوقّفَ عند محطّات إبداعهِ الفكريّ والأدبيّ أنّ كتاب «الأُطروحة الفنطازية» يظلُّ يحتلّ موقعاً أثيراً في مسيرة عطائه، فريداً من نوعه في العالم العربيّ، ويجدُ في اعترافِ كلّ من أدونيس ومحمود درويش بقيمة الأُطروحةِ دالّةً تُكرّسُ قيمتَها وسعةَ تأثيرها. ويرى الشوك أنّ «الأُطروحةَ الفنطازية» كرّستهُ كاتباً ذاع صيتُه بين أبرزِ مجايليهِ من الكتّاب والمبدعين وجوازَ مرورٍ إلى عالم الكتابة والأدب. والأطروحةُ قد تصلُح مفتاحاً لفهم شخصيّتهِ التي تجمع بين الانفتاح على العلم المجرّدِ الملغوم بالمعادلات الرياضيّةِ ومتاهاتِ نظريّاتِ الفيزياء والإبحارِ في عوالم الأدبِ والفنون، ومِنهما تمكّنَ من تطويع علمِ الرياضيّات لصياغةِ عملٍ أدبيّ رفيعِ المستوى.

لوحة الغلاف للفنان فيصل لعيبي

